الإصدار: 60



من أدب الوصايا

أ. زهير الحموي

مراجعات

يهدى ولا يباع





من أدب الوصايا

أ. زهير محمود حموي

الإصدار: 60 (ديسمبر 2012م / محرم 1434هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

أ. زهير محمود حموي

من مواليد حلب بسوريا، خريج دار نهضة الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وحاصل على درجة الإجازة العالية من جامعة الأزهر، يعمل إماما وخطيبا أول بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، كما يشغل أمين سرّ هيئة الفتوى بقطاع الإفتاء والبحوث الشَّرْعِيَّةِ بالوزارة نفسها.

له مؤلفات عديدة، منها: «الإنسان بين السحر والعين والجان»، و«وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة»، و«صنعة الكِتاب وأخبار الكُتّاب»، وغيرها...



نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) – فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

ديسمبر 2012 م / محرم 1434هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

رقم الإيداع بمركز المعلومات: 24 / 2012

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2012 / 085

ردمك: 978-99966-50-38-3

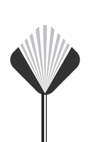
فهرس المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل السادس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



تصدير

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

كانت الوصية ولم تزل بالنسبة للأمة الإسلامية أحد المكونات الأساسية في بناء الوعي الإسلامي وتشييد النموذج الإنساني الذي يليق برسالة خير أُمَّةٍ أخرجت للناس.

ولعل المتأمّل في التراث العربي الإسلامي يجد أنَّ الوصايا، باعتبارها من وسائل التواصل التربوي والحضاري، توالت عبر مختلف الأعصر واتسعت في موضوعاتها وأساليبها، مما استدعى أن يكون لها وعاءٌ خاصّ عُرِفَ بأدب الوصايا، وهو وعاء يمثل مستودع الخبرة وعصارة التجربة الحضارية الإسلامية على امتداد مسيرتها...

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا العمل الأدبي إلى جمهور القراء الكرام ومحبي الحكمة، وهو سفر وفق اللّه تعالى مُؤَلِّفَهُ إلى جمعه وتصنيفه... وتقديمه في صورة جامعة وميسرة تسهل الإفادة منه ، لأنه جمع في سياق واحد ما تفرق في بطون المصادر الدينية والأدبية والتاريخية.

واللّه سبحانه وتعالى نسأل أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء... إنه سميع مجيب الدعاء...



مقدمة

بدأ حُبِّي للأدب، واهتمامي بجماليات الكلمة، ونَصَاعَةِ المعاني مع بداية طلبي للعلم؛ إذ كنت أجمع في كشكول خاص ما يعجبني من «الأمثال والحكم والكلمات المأثورة»[1].

ثم تنامَتْ عندي هذه الهواية واتسعت لتتعدّى الاهتمام بالأمثال والحكم إلى العناية بالنصوصِ الجيدة النادرة بشكل عام.

ومن هذا القبيل كتبت رسالة بعنوان «نقوش خواتيم المشاهير» جمعت فيها ما أعجبني من نقوش بعض الصحابة والتابعين، والأئمة والسلف والصالحين، والخلفاء الأمويين والعباسيين، والولاة، والأمراء، والقضاة، والشعراء، والظرفاء، والحكماء، وأهل الحزم؛ على خواتيمهم، فكان ذلك بمثابة الشعار الخاص بهم.

ثم تَرَكّزَ اهتمامي في البحث عن أدب الوصايا، فجمعتُ قبل عشر سنوات مجموعةً من أشهر الوصايا العلمية والوعظية التي أوصى بها بعض الخلفاء والعلماء والحكماء قبل الموت، وطبعت في كتاب بعنوان «وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة».

وتابعت مسيرة البحث في مجال الوصايا؛ لكني في هذه المرة رحت أبحث عن الوصايا التي كان لها أثر في صناعة الحياة، فكان هذا الكتاب الذي أسميته «من أدب الوصايا» ولك أن تسميه «مجلة الوصايا ومستودع التحف والهدايا» أو«وصايا وكلمات في فن صناعة الحياة» أو«الوصايا بين الأدب والدين» أوردت فيه مختارات منتخبة من الوصايا، والنصائح، والمواعظ، التي تهمُّ المسلمَ السَّاعيَ نحو النجاة والنجاح، بذلت جهدي بجمعها، وتأليفها، وترتيبها، وتصنيفها، وشرح غامضها، وتوضيح مبهمها وتخريجها.

١- الكَشْكُولُ: الدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط، وهو في الأصل اسمٌ لِظرف مربوط بسلسلة يحملهُ على أكتافِهم المتسولون المُتجولون؛ يجمعُونَ فيه مَأكُولاتٍ مُتنوعةً مِنْ ألوانِ محّصُولاتِهم، وهي كَلمةٌ فارسيَّةُ الأَصلِ كَما في كِتاب الألفاظِ الفارسيةِ المُعرَّبة.

ولعلَّ سَببَ تركيزي على أدب الوصايا هو تقديري لأهمية هذا الفن، سواء من ناحية اللفظ «الشكل»، أو من ناحية المعنى «المضمون»؛ إذ الْوَصِيَّةُ –غالبًا ماتكون- خُلاصةَ الوعي الإنسانيِّ، وقِمَّةَ الإبداع البيانيِّ.

كما أن أدب الوصايا جزء مهم من ثقافتنا العربية والإسلامية، ووجه مشرق من أوجه إبداعاتنا التي نفخر بها، وكنزٌ غنيٌّ من موروثنا الديني والتاريخي والأدبي.

كما أن أدب الوصايا يساعدُ على رياضةِ النَّفسِ وتَهذيبِ الأَخْلاقِ؛ وليس ثمّة غاية للأدب أسمى وأجلّ من صقل النّفوس وتهذيبها، وبثّ قيم الخير والفضيلة فيها؛ لاسيما وأن أمتنا الإسلامية - وبالرغم مما تتمتع به من موروث أخلاقي- فإنها تعيش أزمة أخلاقية حقيقية، تظهر آثارها من خلال تراجع منظومة القيم، وتصاعد وتيرة العنف، وتردّي العلاقات الإنسانية، وضعف العرى والأواصر الاجتماعية والأسرية.

كما أن أدب الوصايا يساعدُ على استلهام نجاحات أولئك الحكماء الناصحين الناجحين، ويدفع باتجاه التأسِّي بهم؛ والاستفادة من خلاصة تجاربهم.

ذلك، ولم تغب المرأة عن أدب الوصايا، فوجدناها –مثلاً- توصي ابنتها ليلة زفافها، ووجدناها توصي ولدها عند سفره، ووجدناها توصي ولدها الملك بما ينبغي عليه اتخاذه من تدابير.

علمًا بأنه ورد في ثنايا بعض الوصايا فقرات ربما يفهم البعض منها أنها تمييز ضدّ المرأة، وأنا سقتها متقيدًا بمنهج الأمانة العلمية بإيراد النص كما هو، وذلك مثل قول الأحنفِ بن قيس في وصيته: «إيَّاكَ ومُشَاوَرَةَ النِّساءِ...» ونحو ذلك.

وهذه الفقرات – في تقديري- ليست على إطلاقها وعمومها؛ لأنَّ هذا التعميمُ يعارضُ ما ثبتَ في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. أما في القرآن الكريم فإنّ نبيُّ اللّه شعيب عليه السلام أخذَ برأي ابنته حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[1]. وأما في السنة النبوية الشريفة، فقد ثبت أن للرجل أن يستشير المرأةِ الفاضلة فيما لها خبرة به، حيث قَبِلَ النبي ﷺ بمشورة أمّ سلمة رضي اللّه عنها في صُلْحِ الحُدَيْبِيَة[2]، كما ورد عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ أنها قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبي ﷺ وَنَحْنُ نَغْسِلُ ابْنَتَهُ فَقَالَ: اغْسِلْنَهَا ثَلاَثًا أَوْ خَمْسًا أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ «إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ» بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ»[3]؛ فردَّ الرأي إليهن في ذلك. وأما حديث «شاوروهن وخالفوهن» فحديث لا يصحّ، ضعّفه السخاوي في المقاصد الحسنة، وحكم عليه بعض العلماء بالوضع.

وكذلك الأمر بالنسبة للوصايا التي اشتملت على حضّ المرأة على طاعة زوجها، فهي ليست أيضا على إطلاقها، وإنما هي مقيدة من الناحية الشرعية، بما ليس فيه معصيةً، وهناك أسباب للقوامة والطاعة ذكرها الفقهاء.

لقد قمت بجمع وتأليف هذه المجموعةٌ من الوصايا المشهورةِ، والنَّصائحِ المأثورةِ، والرَّسائلِ المنثورةِ، حبًّا بهذا التراثِ العظيم، ووفاءً لحقِّ أولئكَ الرجال، وتذكرةً للعاقلِ، ومَنْبَهَةً للغافلِ، وتَمحيْصًا للنُّصحِ والتَّبْصيْر، وأداءً لحَقِّ اللّه تَعَالَى في التذكيْر.

فإلَيْكَ عزيزي القارئ هَذِهِ الوصايا، فهي طريقٌ لتهذيبِ النَّفْسِ ورعايةِ الأخْلاقِ، ومُعِيْنٌ عَلَى توسيعِ المَدارِكِ وتفتيحِ الآفاقِ؛ فقَدْ اخترتُها لَكَ ومَحَّضْتُكَ النَّصِيْحَةَ، فأكبَّ عَلَيْها -يارَعاكَ اللّه- قراءةً وحِفْظًا؛ فَإنَّها من

---

١ – سورة القصص: الآية ٢٦.

٢– انظر الحديث في البخاري (بَاب الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ).

٣– رواه البيهقي في السنن الكبرى.

أحسنِ الأحاديث معنىً وأشْرفها لفظًا، وَاجْعَلْهَا فِي أذُنيك كالشَّنْفِ، فَإنَّ بعضَ كَلِمَاتِها خَيْرٌ من ألْف، والله موفّقُكَ[1].

أسأل الله تَعَالَى أنْ يثقِّلَ بهذا الْعَمَلِ ميزاني، وأن يَجْعَلَهُ خالصًا لوَجْهِهِ، وأنْ يَنفَعَني بِهِ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إلا مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، والله من وراء القَصْدِ.

١- الشَّنْفُ: الذي يُلبَسُ في أعلى الأُذُنُ.



الفصل الأول

مباحث تمهيدية

المبحث الأول: الوصية وأخواتها..

«اختلاف في المباني وائتلاف في المعاني»

بينَ الوَصِيَّةِ، والنصيحةِ، والموعظةِ، والحكمةِ، والعهد، والتَّذكيرِ، والقَصصِ؛ اختلافٌ في الألفاظِ، وائتلاف وتتقارب في المعاني، وهذا تعريف لكل واحدٍ من هذه الإطلاقات.

أولاً : الْوَصِيَّةُ .

لكلمةِ الوَصَيّة في اللغة معان عدة؛ منها «العَهد» ومنها «الفَرْضُ» ومنها «الوَصْل» فيقال: أَوْصى الرَّجلَ ووَصَّاه: عَهِدَ إِليه، وأَوْصَيْتُ له بشيءٍ، وأَوْصَيْتُ إِليه: إِذا جعلتَه وَصِيَّكَ، وأَوْصَيْتُه ووَصَّيْته بمعنى، وتَواصي القومُ: أَي أَوْصى بعضهم بعضاً، وفي الحديث: اسْتَوْصُوا بالنساءِ خيراً فإِنَّهن عندكم عَوانٍ، والاسم الوَصاةُ، والوَصايةُ، والوِصايةُ. والوَصِيُّ: الذي يُوصي والذي يُوصى له، وهو من الأَضداد، والوَصِيَّةُ: ما أَوْصَيْتَ به، وسميت وَصِيَّةً لاتصالها بأَمر الميت. ويُوصِيكُمُ اللهُ: أي يَفْرِضُ عليكم.[1].

والإِيصَاءُ والْوَصِيَّةَ وَالْوَصَايَةَ فِي اصْطِلاحِ الْفُقَهَاءِ: تَخْصِيصُ الْوَصِيَّةِ بِالتَّبَرُّعِ الْمُضَافِ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْوِصَايَةِ بِالْعَهْدِ إِلَى مَنْ يَقُومُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُ[2].

قال أسامة بن منقذ: الوصية وصيتان؛ وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل. ووصية الأموات للأحياء، عند الموت، بحقٍ يجب عليهم أداؤه، ودين يجب عليهم قضاؤه[3].

١- لسان العرب: لابن منظور ، مادة «وصى».

٢- مغني المحتاج: الخطيب الشربيني ٣ / ٣٩.

٣- لباب الآداب: الأمير أسامة بن منقذ، تحقيق أحمد شاكر (صفحة ٢) مكتبة السنة.

وعلى هذا فإن مفهوم الوصية يشمل الأمر بمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الزلل، والتبصرة بصالح العمل.

وعرّف د. محمد رجب النجار الوصيةَ بأنها: فنٌّ قوليٌّ شفويُّ الأصلِ يصدر عن رؤيةٍ أو عن نزعةٍ مثاليةٍ في مضمونِهِ وغايته...والغاية من الوصية نقل الخبرة العملية وحشد التجربة الإنسانية وتنظيم أمور الحياة الخاصة أوالعامة من الأكبر للأصغر على نحو مثالي ونموذجي[1].

وعرَّفت د. سهام عبد الوهاب الفريح الوصية بأنها: هي الثمرة الفكرية التي يكتسبها الفرد من تجاربه في حياته اليومية، ومن تفاعل هذه التجارب مع بيئته ومجتمعه، وهي كالحكمة، ولعلها تتكوّن من الحكم والأمثال[2].

وإذا كان بعض المختصين من المعاصرين، يشترط لدخول النصّ في فنِّ الوصايا – من ناحية التعريف والوظيفة- أن يتوجه الموصي إلى فرد بعينه معروف له على المستوى الشخصي، من خلال كلمات بعينها مثل «وصية، وأوصى، وأُوصي، وأوصيكم، وما في معناها» فإن ثمة من يرى أن مفهوم الوصية يتسع ليشمل النصوص المشتملة على معاني النُّصح، والإرشاد، والموعظة، والنَّصيحة، والأمر بمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الزلل، والتبصره بصالح العمل؛ لا سيما وإني قد رأيت أن هذا التداخل موجودٌ في كثير من كتب الأدب. وهذا ما أخذت به في هذا الكتاب، إذ أوردتُ النصائحَ والأقوال الحكيمِة، الصادرة عن مجرِّبٍ خَبِيْرٍ، لمن هو أقل تجربة منه، أو لكل من يحبُّ أن ينتفع به.

١- النثر العربي القديم: د. محمد رجب النجار، جامعة الكويت، صفحة ٥٥، مكتبة دار العروبة الكويت.

٢- الوصايا في الأدب العربي القديم: د. سهام عد الوهاب الفريح، أستاذة اللغة العربية بجامعة الكويت. ص ١٧، مكتبة المعلا.

ثانيًا: النصيحةُ.

النصيحةُ من مادّة «نَصَحَ» الّتي تدلّ على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما، وأصل ذلك النّاصح وهو الخيّاط، قال الأصمعيّ: النّاصح الخالص من العسل وغيره، وكلّ شيء خلص فقد نصح. والنصيحةُ اصطلاحًا: كلمة جامعة تتضمّن قيام النّاصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادةً وفعلاً وتشمل النّصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمّة المسلمين وعامّتهم[1]، إذًا فبين النّصيحة وبين الوصيّة تقارب في المعنى، فكلاهما يريد الخير للمنصوح أو الموصى، ودعوته إلى ما فيه صلاحه، وكلاهما يقتضي وجود طرفين؛ أحدهما معطٍ والآخر متلقّ.

ثالثًا: الموعِظةُ.

الموعظة: النّصح والتّذكير بالعواقب[2]. والموعظة اصطلاحًا: زجر مقترن بتخويف[3]. وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب.

وقد أمَرَ اللّهُ تعالى بالموعظةِ فقال: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ النساء: ٦٣. وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ النحل:١٢٥. كما كان النبي ﷺ يعظُ الناس، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: (وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَت مِنهَا العُيونُ، وَوَجِلَت مِنهَا القُلوبُ)[4]. وعن عمرو بن الأحوص أنّه شهد حجّة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وذكّر ووعظ[5]. وأمر الله المؤمنين بوعظ الناشزات فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴾ النساء: ٣٤.

١- جامع العلوم والحكم: لابن رجب.

٢- الصحاح: للجوهري.

٣- المفردات: للراغب الأصفهاني.

٤- رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

٥- رواه الترمذي.

رابعًا: التَّذكيْرُ.

التذكير لغة: تدلّ مادة (ذكَّر) على خلاف النّسيان. والتذكير اصطلاحا:لم يرد التّذكير مصطلحًا في الكتب الّتي تهتمّ بإيراد المعاني الاصطلاحيّة؛ بيد أنّه يمكن استنباط تعريف له من خلال تعريفهم للذّكر من ناحية، ومن خلال كتب اللّغة والتّفسير من ناحية أخرى، فتقول: التّذكير: أن تجعل غيرك يستحضر ما تذكّره به بغرض الاتّعاظ والخروج من ميدان الغفلة والنّسيان إلى مجال المشاهدة والحضور[1].

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى أهمية التذكير، فقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥). وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية:٢١). وقال: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور: ٢٩). وقال: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ (الأعلى:٩). وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٠).

وكان النبي ﷺ يذكّر أصحابه؛ فعَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَولادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلائِكَةُ عَلَى

١- نضرة النعيم.

فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلاثَ مَرَّاتٍ[1].

وعن أبي وائل قال: (كَانَ عَبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيس، فَقَالَ لَه: رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمَن، لَوَددتُ أَنَّك ذَكَّرتَنَا كُلَّ يَوم، قَالَ: أَمَا إِنَّه يَمنَعُنِي مِن ذَلك أَنِّي أَكرَه أَن أُمِلَّكم، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكم بِالمَوعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِي ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَينَا)[2].

خامسًا: الْقَصَصُ.

قال ابن الجوزي رحمه الله: القاصُّ هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها[3]. والقصص والوعظ محمود وممدوح من حيث الأصل؛ وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦). لكن العلماء مختلفون بالقصاصين بين مؤيد لهم ومعارض، فمنهم من يرى: (أنّ معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص)[4]، وكان ابن عمر رضي الله عنهما أنه يخرج من المسجد ويقول: (ما أخرجني إلا القصاص، ولولاهم ما خرجت)[5]، إلا أن الإمام أحمد كان يقول: (إذا كان القاص صدوقاً فلا أرى بمجالسته بأساً). وكان الحسن إذا قصّ القاصُّ لم يتكلم. فقيل له في ذلك، فقال، إجلالا لذكر الله عز وجل.قال ابن الجوزي: والقُصَّاصُ لا يُذَمون من حيث هذا الاسم، وإنما ذُم القُصَّاصُ لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القَصَصِ دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبُهم يُخَلِّط فيما يورده، وربما اعتمد على ما أكثره محال[6].

١- رواه مسلم، و(عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات) معناه: عالجنا معايشنا وحظوظنا، والضيعات: هي معاش الرجل من مال، أو حرفة، أو صناعة. و(نافق حنظلة) أي خاف أنه منافق.

٢- رواه البخاري ومسلم.

٣- القُصَّاص والمذكرون: لابن الجوزي (١٥٧-١٥٩).

٤- المرجع السابق: (٣٠٨).

٥- الآداب الشرعية: لابن مفلح (٢/٨٢-٨٩).

٦- تلبيس إبليس: لابن الجوزي: (١٣٤).

سادسًا: الحكمةُ.

الحكمة من مادّة «حكم» التي تدلّ على المنع أو المنع للإصلاح، ومن هذا الأصل أخذ أيضًا الحكم في معنى المنع من الظّلم، وحكمة اللّجام لأنّها تمنع الدّابّة عمّا لا يريده صاحبها، والحكمة لأنّها تمنع من الجهل. قال الرّاغب: الحكمة: إصابة الحقّ بالعلم والعقل، ويختلف معنى الحكمة باختلاف من يتّصف بها، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات.

وقد ذكر أهل التّفسير أنّ الحكمة في القرآن على ستّة أوجه.

أحدها: الموعظة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (سورة القمر: ٥). الثّاني: السّنّة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (سورة البقرة: ١٥١). الثّالث: الفهم؛ ومنه قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾. (سورة لقمان:١٢). الرّابع: النّبوّة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾. (سورة ص: ٢٠). الخامس: القرآن؛ أمره ونهيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (سورة النّحل : ١٢٥). السّادس: علوم القرآن؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (سورة البقرة : ٢٦٩).

سابعًا: العهد.

من معاني كلمة العهد : الوصية؛ يقال: عهد فلان إلى فلان: أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه؛ قال تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾[١]، وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾[٢]، ويُقَال: عهد الأَمِير إِلَى فلان بِكَذَا: إِذا أمره.

١- سورة البقرة آية ١٢٥

٢- سورة يس : ٦٠.

والأَصْل فِي مَعْنَى الْعَهْد : حفْظُ الشَّيْءِ وَمُرَاعَاتُهُ حَالاً بَعْدَ حَالٍ، ثُمَّ اسْتُعْمِل فِي الْمُوثَقِ الَّذي يَلْزَمُ مُرَاعَاتُهُ[1].

ومِنْ مَعَانِي الْعَهْد فِي اللُّغَة أيضًا: الأَمَانُ، وَالذِّمَّةُ، وَالْيَمِينُ، وَالْحِفَاظُ، وَرِعَايَةُ الْحُرْمَة، وَكُل مَا بَيْنَ الْعِبَاد مِنَ الْمَوَاثِيق فَهُوَ عَهْدٌ[2]، قَال أَبُو هِلاَل الْعَسْكَرِيُّ: الْفرق بَين الْوَعْد والعهد: أَن الْعَهْد مَا كَانَ من الْوَعْد مَقْرُونا بِشَرْط الْعَهْدُ مَا كَانَ مِنَ الْوَعْدِ مَقْرُونًا بِشَرْطٍ[3].

١- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت (ص: ٦٤٠).

٢- (تاج العروس: مادة عهد).

٣- الفروق اللغوية للعسكري : أبو هلال، الحسن بن عبد الله العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ) دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة (ص: ٥٧).

المبحث الثاني

«أدب الوصايا خطوة في طريق الإصلاح»

إذا كان لابدَّ لكل عملٍ علميٍّ جادّ وجيد من هدف يسعى الكاتب لتحقيقه؛ لئلا يكون سعيه عبثًا، فإني أردت لهذا العمل «أدب الوصايا» أن يكون خطوة في طريق الإصلاح، وذلك من خلال التأثير الإيجابي وغير المباشر على قارئه، في المجالات «النفسية، والسلوكية، والأدبية».

أما النفسية: فبتعزيز الانتماء للهوية الإسلامية.

وأما السلوكية: فبتفعيل القيم الأخلاقية، من خلال التذكير والإشادة بها.

وأما الأدبية: فبتقديم نصوص أدبية تتوافر فيها الاشتراطات الفنية، لترتقي بالذائقة الأدبية والنقدية بالقارئ إلى مستوى معايشة هذه النصوص الجميلة وتذوقها.

- **اولاً: دور أدب الوصايا في تعزيز الانتماء للهوية الإسلامية.**

تعني كلمة الهوية حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره[١]، وأعني بها هنا إذكاء المعاني الإيجابية، من الانتماء، والولاء، والحب، والنصرة، ووحدة الشعور بين أبناء الأمة الإسلامية، والاعتزاز بهذا الدين العظيم، وتعاليمه الوسطية السمحة، والتشرف بحمله، والعمل به، وتبليغه للناس؛ إذ يتأكد تعزيز هذه المعاني في هذا الوقت بالذات؛ لأن كثيرًا من أبناء المسلمين قد وقعوا تحت تأثير الانبهار بالغرب، وفتنوا ببريق حضارته المادية، كما أن كثرًا منهم قد ساء فهمه للدين، فرأوا فيه شعائر وطقوسًا شكلية، لا صلة لها بالسلوك، والقيم والمفاهيم.

كما يتأكد تعزيز مفهوم الهُوية في هذا الوقت؛ لأن محاولات أعداء الأمة لم تتوقف مساعيها الرامية للتشكيك بثقافتنا الإسلامية، وادّعاء تفوق

١- المعجم الوجيز، القاهرة، مجمع اللغة العربية القاهرة.

الثقافة الغربية عليها؛ وفي رأيي أن نشر هذه الثقافة، ذات الطابع الإنساني الحضاري، يساعد على إعادة الثقة في نفوس أبناء الأمة، الذين قد يشعرون بالضعف والانهزام والانكسار أمام الثقافة الغربية، علمًا بأن الحقائق والوقائع تؤكد على أن ثقافتنا قدمت للإنسانية جمعاء فنوناً من العلم والمعرفة لم يكونوا يعرفونها، وهذا ما أقرّ به المنصفون من علماء الغرب؛ ومنهم «غوستاف لوبون» على سبيل المثال إذ قال: «كلما أمْعنَّا في درس حضارة العرب المسلمين، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم، ظهرت لنا حقائق جديدة، وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفَضْل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها - مدة خمسة قرون - موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقًا، وتأثير العرب عظيم في الغرب»[1].

- **ثانيا: دور أدب الوصايا في توجيه النشء للاقتداء بالنماذج والقدوات التاريخية الصالحة.**

لم يعد خافيًا أنَّ ثَمّةَ حملة تشهير وتشكيك ممنهجة تشنّ ضد القدوات والرموز الإسلامية - وربما يستشهد هؤلاء المشككون بسوء تصرفات بعض المتصدرين للخطاب الديني - وهذا ما يدعونا لتوثيق العلاقة بالماضي، دون غفلة عن الحاضر، ومدّ جسور التواصل مع فكرنا وتراثنا، وتقديم هذا الأدب شكل من أشكال مدّ جسور التواصل مع هذا التراث العظيم.

١-غوستاف لوبون (١٨٤١- ١٩٣١) طبيب، ومؤرخ فرنسي، عُنِيَ بالحضارة الشرقية، هو أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، ألف عام ١٨٨٤ كتاب حضارة العرب، فجاء جامعاً لعناصر حضارتنا وتأثيرها في العالم، وبحث في قيام دولتنا وأسباب عظمتها وانحطاطها، وقد نقل الكتاب إلى اللغة العربية عادل بن عمر زعيتر (ت ١٩٥٧) وهو حقوقي من أعضاء المجمعين العلميين بدمشق وببغداد، مولده ووفاته في نابلس. حضارة العرب: غوستاف لوبون، Dr.G.Lebon، الطبعة الرابعة، مطبعة عيسى البابي الحلبي (صفحة ٢٦).

- **ثالثاً: دور أدب الوصايا في تفعيل القيم الأخلاقية.**

في تعريفِ الخُلُقِ قال ابن منظور: «هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها»[١]. وقال الفيروزابادي: «اعلم أن الدّين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وهو يقوم على أربعة أركان: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل ... وذكر أن كل واحد من هذه الأربعة يؤدي إلى غيره من المكارم ويحمل عليها». وذكر يوسف بن أسباط أن علامة حسنِ الخلق عشرُ خصالٍ: «قِلةُ الخلاف، وحسنُ الإنصات، وتركُ طلب العثرات، وتحسينُ ما يبدو من السيئات، والتماسُ المعذرة، واحتمالُ الأذى، والرجوعُ بالملامة على النفس، والتفرُّدُ بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقةُ الوجه للصغير والكبير، ولطفُ الكلام لمن دونه ولمن فوقه»[٢].

وفي تقديم أدب الوصايا تشجيع لأبنائنا على الاستفادة من التجارب الناجحة.

وفي تقديم أدب الوصايا إذكاءٌ لروح الفضيلة، ودعوة للتمسك بالأخلاق النبيلة، المستقاة من هديٍ من كتاب الله تعالى القائل: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (سورة البقرة: ٨٣)، ومن سنة نبيه المصطفى ﷺ الذي بعث ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، وأوصى بحسن الخلق فقال: «وخَالقِ النَّاسَ

١- لسان العرب: لابن منظور (محمد بن مكرم المتوفى سنة ٧١١ هـ) مادة خلق.

٢- الإحياء: للغزالي. ويوسف بن أسباط: زاهد من سادات المشايخ له مواعظ وحكم نزل الثغور مرابطاً. سير أعلام النبلاء: للذهبي.

بِخُلُقٍ حَسَنٍ» رواه الترمذي[1]. فمن المفيد أن نقدم لأبنائنا هذا الزاد من الآداب في هذا الوقت الذي بدأت تظهر فيه بوادر أزمة أخلاقية في الأفق، وإذا ما حاولنا أن نبحث عن أسبابها فلربما وجدناها تكمن في عدة أمور؛ منها ضعف الوازع الديني والأخلاقي، ومنها طغيان الجانب المادي، والتحول من التسابق في الخيرات إلى التسابق بالأموال والثروات، ومنها التصور الخاطئ للإسلام، ومنها وليس آخرها جهل وفظاظة بعض الدعاة.

لكن هذه الظواهر لا ينبغي أن تبث اليأس والاستسلام للأمر الواقع في نفوسنا، بل علينا أن نواصل العمل والسعي والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة متفائلين، موقنين بوعد الله تعالى بالنصر والتمكين، مستذكرين قول النبي ﷺ: «أمتي كالغيث، لا يُدرى أوله خير أم آخره»[2].

وأعتقد أن جهدي المتواضع هذا خطوة في طريق الإصلاح، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3].

- **رابعاً: دور أدب الوصايا في الارتقاء بالذائقة الأدبية:**

يتفق النقاد -عند تحليل النص- على أنّ النص الجيد هو النص الذي توافرت فيه شروط الجودة في لفظه ومعناه، أو في معانيه ومبانيه، أو في شكله ومضمونه، ونحن إذا ما أمعنَّا النظر في هذه الوصايا عموما نجد الآتي:

١- للدكتور عبد الرحمن بدوي رأي في أدب الأمثال والحكم، ذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب «الحكمة الخالدة» لأبي علي، أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه الرازي، وهذا الرأي يقول: إن هذا النوع من الأدب «الأمثال والحكم والمواعظ» فيه من النفع بقدر ما فيه من الضرر؛ فهو إن أفاد في الحث على الفضيلة وفي استلهام الموعظة واتخاذ معايير السلوك؛ فإنه يضر من حيث هو قيدٌ يشدُّ النفس إلى صيغ مصنوعة وأفكارٍ سابقة، ومعانٍ متعارفة، وهذه من شأنها أن تحجر السلوك في مجاري السنة التقليدية ممَّا يدعو إلى الانصراف عن التجديد والتوثب (د. عبد الرحمن بدوي» ولد سنة ١٩١٧، أستاذ الفلسفة بجامعات الكويت، وطهران وطرابلس،

٢- رواه الترمذي ، وروي أيضًا بلفظ (أمتي كالمطر).

٣- القصص: ٨٨.

- على مستوى اللفظ:

اتسمت هذه الوصايا بدقة العبارة، ووضوح الألفاظ، وسهولتها، وقد صيغ بعضها بأسلوب السجع، وهي قليلة إذا ما قورنت بباقي الوصايا.

- وعلى مستوى العاطفة:

لم نجد لها حضورًا كبيراً في أغلب الوصايا، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الموصين غالبًا، كانوا يتجهون لإيصال الفكرة بدقة ووضوح.

- وعلى مستوى الأخيلة والمجازات:

إنّ الأخيلة والمجازات في هذه الوصايا -عمومًا- لم تكن حاضرة كثيراً؛ إذ غلب عليها المعاني الواضحة المباشرة الجلية.

- وعلى مستوى «المضمون»:

لقد بدت هذه الوصايا واضحة في أفكارها، متشابهة في معانيها، ولا غرابة في ذلك؛ فالوصية العربية –كما وصفها الأستاذ أحمد أمين- «تكاد تكون واحدة، وهي في عناصرها الأدبية، تتكون من حكم وأخبار، وما الحكمة العربية إلا تلك الثمرة الفكرية التي يجتنيها المرء من تفاعل نشاطه في بيئته الطبيعية والاجتماعية؛ فيخلص منها إلى سلوكه العام، وينسجها على المعيار الكلامي ذي الدلالة والإيجاز»[١].

كما بدا أن هذه الوصايا تشترك مع بعضها من حيث «المضمون» في الدعوة للقيم «الإيمانية، والأخلاقية، والإنسانية»؛ فهي تدعو لتوحيد الله تعالى، والتعاون على البرّ والتقوى، وبثِّ قيم المحبة، والإخاء، وصلة الأرحام، وقرى الضّيف، وإغاثة الملهوف، والمحافظة على الجار، وحمايَة الضّعيف ودفعَ الظّلم عنه، والترغيب بمجالسة الكرام، وبحسن اختيار الأصدقاء والجلساء، والترغيب بكسب الفضائل، والاهتمام بالعلم، والحرص على

١- «إلى ولدي»: أحمد أمين ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

الوقت، ومحاسبة النفس، وغير ذلك من المعاني النبيلة والأخلاق الفاضلة. إلا أن هذا لا يمنع أن يكون لكل موصٍ أو أديب طريقته وأسلوبه الخاص الذي يميزه.

- الخلاصة:

لقد اتسمت هذه الوصايا من -حيث العموم- بالبلاغة والفصاحة والبيان والسهولة؛ إذ عبَّرت عن المقاصد والمعاني بأسلوب بليغ، بعيد عن التكلف واللبس والتعقيد، وقد وصف «أبو هلال العسكري» جيد الكلام، بقوله: الكلام -أيدك الله- يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشابه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخيره لمباديه، مع قلّة ضروراته، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقًا، وبالتحفظ خليقاً[1].

١- المختار من كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري: اختيار محمود أبو رية، نشر وزارة الثقافة المصرية (ص ٣٠).

المبحث الثالث

منهــج الكتــاب

جاء هذا الكتاب مكونا من ستة فصول؛ الفصل الأول: مباحث تمهيدية. الفصل الثاني: وصايا جامعة لمكارم الأخـلاق. الفصل الثالث: وصايا بالتربية والتعليم وطلب العلم الشرعي. الفصل الرابع: وصايا في العلاقات الأسرية. الفصل الخامس: وصايا في الإدارة والسياسة وتدبير الملك. الفصل السادس: وصايا في الطب وصِّحَّة البدن. وبلغ عدد الوصايا فيه أكثر من مئة وصية.

أوردت فيه الوصايا التي أعتقد أنها تثري الثقافة الإسلامية على تعدّد رؤاها وتنوع اهتماماتها، علمًا بأن بعضها يشتمل على فهوم وتجارب خاصة، لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية، أو النصائح الطبية، فقد أوردتها بغية إثراء وتنويع المعلومة، ولبيان أن العلماء المسلمين شاركوا في كل ميادين المعرفة، وأبدعوا في كل ميدان دخلوه، وتَمَيَّزوا في كلِّ فنٍّ كتبوه.

كما أوردت فيه الوصايا التي رأيت أنها مميزة، إما لطرافتها، كوصية الزمخشري في (مقامة الارعواء) أو لتعارضها مع الخط العام للكتاب، كوصية الكندي لولده بالبخل، أو لاشتمالها على روح الدعابة وخفة الظل، كوصية الحريري لولده في (المقامة الساسانية).

واكتفيتُ بنسبة الوصية لقائلها، حسب ما ورد في المرجع الذي نقلت عنه، دون مناقشة أو تعقيب، لأنه كما يقال: (من أسند فقد برِئت عُهدته) أو (من أسند فقد أحال)!.

وقدّمت لكل وصية بتعريف موجز بشخصية الموصي.

وشرحت الكلمات الغامضة، دون توسع، لئلا أشغل القارئ، وأصرفه عن متابعة الفكرة، ولئلا أثقل الحواشي.

وربما يكون من تمام البحث والنظر – عند تناول أدب الوصايا- التعرض لبعض الجوانب المُجليَّةِ له، مثل التعرض للوصايا في القرآن الكريم، والوصايا في السنة النبوية الشريفة، ووصايا لُقْمَان، ووصايا العرب في الجاهلية، والوصايا في آداب الأمم والشعوب، واستعراض أشهر الكتب المؤلفة في أدب الوصايا، وبخاصّة كتب وصايا الملوك[1]، وهذا ما استوفيته أثناء البحث، ولكنه لم ينشر. وعذري في عدم نشر هذه المادة هو الوفاء بمنهجية هذا الإصدار؛ من حيث الحجم، ولعل الله جلَّ وعزّ ييسر لي إصدار ذلك في بحث مستقل.

١-وصايا الملوك: هي الوصايا التي تهدف إلى وعظ الملوك والحكام والولاة بسوق النصائح والأخبار والحكم والأمثال. ويطلق عليها (مرايا الأمراء).



الفصل الثاني

وصايا جامعة لمكارم الأخلاق ومعالي الأمور

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا أبي بكر رضي الله عنه لِلنَّاسِ

خَطَبَ سَيِّدُنا أبوبَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه فقالَ:

- أُوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَأَنْ تثنوا عَلَيْهِ بما هُوَ أَهْلٌ لَهُ، وَأَنْ تخلطوا الرهبة بالرَّغْبَةِ، فإِنَّ الله أَثْنَى عَلَى زكريا وأَهْلِ بيته، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[1].
- وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله قَدْ ارْتَهَنَ بحقّهِ أَنْفُسَكُمْ، وأخذَ عَلَى ذَلِكَ مواثيقَكم، واشتَرَى مِنْكُمْ القَلِيْلَ الفاني بالكَثِيرِ الباقي.
- وهذا كتابُ الله فِيْكُم لا ينطفِئُ نُوْرُهُ، ولا تنقضي عجائِبُهُ، فاستضيئوا بنورِهِ، وَانْتصحوا كتابَه، واستضيئوا مِنْهُ ليَوْم الظُّلمةِ، فإِنَّما خلقَكُمْ لعبادتهِ، ووكَّلَ بكمْ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ.
- ثُمَّ اعْلَمُواْ (عِبَادَ الله) أنكم تَغْدُونَ وتَرُوحونَ في أجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُم عِلْمُهُ، فإن اسْتَطَعْتُم أن تنقضي الآجال في عَمَلِ الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذَلِكَ إلا بالله، فسابقوا مَهَلَ آجالِكُم قَبْلَ أن تنقضي آجالكم فيردَّكم إلى سوءِ أعمالِكم، فَإِنَّ قومًا جَعَلُوا آجالهم لِغَيْرِهِمْ، ونَسُوا أنفسَهم، فأنهاكم أَنْ تَكُونُوا أمثالَهم[2].
- فالوَحَا الوَحَا، ثُمَّ النّجا النّجا، فإِنَّ من وراءِكمْ طالبٌ حثيثٌ[3]، مَرُّهُ سريعٌ[4].

١- سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

٢- مَهَلُ الرجل: أَسْلافُه الذين تقدّموه، يقال: قد تقدّم مَهَلُك قبلك، ورَحم الله مَهَلَك.

٣- الوَحا (يُمَدُّ ويقصَر): أي السُّرْعة، منصوبة على الإغراء، والحَثُّ: الإِعْجالُ في اتِّصالٍ، وقيل: هو الاستعجالُ ما كان.

٤- أخرجه الحاكم في (المستدرك على الصحيحين) عن عبد الله بن عكيم: ١٦/ ٤٢١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا علي رضي الله عنه لكُمَيْلِ بنِ زيادٍ

قالَ أبو بكرٍ الخَطِيْبُ عن هذِهِ الوَصيَّةِ: هَذا حديثٌ حسنٌ من أحسنِ الأحاديثِ مَعْنىً وأشْرفها لفظًا.

- عن كُمَيْل بن زيادٍ رضي الله عنهما قال: أَخَذَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه بيدي، فأخْرَجَني إلى ناحيةِ الجَبَّانَةِ[1]، فلَمَّا أصْحَرَ جَعَلَ يتنفَّسُ ثُمَّ قَالَ[2]:
- يا كُمَيْلُ بن زيادٍ: القُلُوبُ أوعيةٌ فخَيْرُها أوْعاها للخَيْرِ، احْفَظْ عَنِّي ما أقولُ لك.
- النَّاسُ ثلاثةٌ: فعالمٌ ربَّانيٌّ، ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سبيلِ نَجَاةٍ، وهَمَجٌ رَعَاعٌ أتْبَاعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون مَعَ كُلِّ ريحٍ، لَم يستضيئوا بنورِ العِلْمِ، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيقٍ[3].
- العِلْمُ خَيْرٌ من المَالِ، العِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ المَالَ، العِلْمُ يزكو عَلَى الإنفاقِ (وفي رِوَايةٍ عَلَى العَمَل)، والمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ.
- العِلْمُ حاكمٌ والمَالُ مَحْكومٌ عَلَيْهِ.
- وَمَحَبَّةُ العالم دِيْنٌ يُدَانُ بها.
- العِلْمُ يُكْسِبُ العالمَ الطَّاعَةَ في حَيَاتِهِ، وجَمِيْلَ الأُحْدوثَةِ بعد وَفَاتِهِ، وصَنِيْعَةُ المَالِ تزوْلُ بزوَالِه.
- ماتَ خُزَّانُ المَالِ وهم أحياءُ، والعُلَمَاءُ باقونَ ما بقي الدَّهْرُ، أعيانُهم مفقودةٌ، وأمثالُهم في القُلُوبِ مَوْجُوْدَةٌ.

١- الجَبَّانَة: الصحراء وأهل الكوفة يسمون المقبرة جَبَّانَة.

٢- كميل بن زياد بن نهيك النخعي الكوفي: تابعي ثقة من أصحاب علي بن أبي طالب، كان شريفًا مطاعًا في قومه، شهد صفين مع علي، وسكن الكوفة، وروى الحديث، وقال عنه ابن حبان في (المجروحين): من المفرطين في علي، حدَّث عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي هريرة، قتله الحجاج سنة ٨٢ وقيل ٨٨ هـ. وانظر ترجمته في (الطبقات: لابن سعد).

٣- رجلٌ هَمَجٌ وهَمَجةٌ: أَحمق، يقالُ: هَمَجٌ هامِجٌ لرُذّالِ النَّاسِ.

- هاهِ، إنَّ هَاهُنا (وأشار بِيَدِهِ إلى صَدْرِهِ)، إنَّ هاهنا عِلْمًا لو أصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً[1].
- بلى أصيبُ بِهِ لَقِنًا غَيْرَ مَأمُونٍ عَلَيْهِ، يستعملُ آلَةَ الدِّيْنِ للدُّنْيَا، يستظهِرُ بِحُجَجِ اللّٰه عَلَى كتابِهِ، وبنعمِهِ عَلَى عِبَادِهِ[2].
- أو مُنْقَادًا لأَهْلِ الْحَقِّ لا بصِيْرَةَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، ينقدِحُ الشَّكُّ فِي قلبِهِ بأوّلِ عارِضٍ من شُبْهَةٍ، لا ذا ولا ذاك.
- أو مَنْهومًا باللذاتِ سَلِسَ الانقياد للشَّهَوات، أو مُغرىً بجمعِ الأموالِ والادّخارِ.
- لَيْسُوا من دُعاة الدِّيْنِ (وفي روايةٍ: لَيْسُوا من رُعَاة الدِّين) أقْرَبُ شَبَهًا بِهِمْ الأنعامُ السَّائمةُ.
- كذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حامِلِيْهِ.
- اللّٰهُمَّ لا تُخْلي الأرْضَ من قائم للّٰه بحجَّتِهِ؛ لكيلا تَبْطُلَ حُجَجُ اللّٰهِ وبَيّناتُهُ، أُوْلَئِكَ الأقلُّونَ عَدَدًا، الأعظمونَ عِنْدَ اللّٰه قَدْرًا، بِهِمْ يدفعُ اللّٰه عَنْ حُجَجِهِ حتى يُؤَدّوها إلى نُظَرائهم، ويزرعوها في قلوبِ أشباهِهم، هجمَ بِهِمُ العِلْمُ عَلَى حقيقةِ الأَمْرِ فاسْتلانوا ما اسْتَوْعَرَ مِنْهُ الْمُتْرَفون، وأنِسوا مِمَّا استوحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُونَ، صَحِبوا الدُّنْيَا بأبدانٍ أرواحُها مُعَلَّقَةٌ بالْمَلأ الأَعْلَى.
- أُوْلَئِكَ خُلفاءُ اللّٰه في أرْضِهِ ودُعَاتُهُ إلى دِيْنِهِ.
- هَاه، هاه شوقًا إلى رُؤْيَتِهِمْ[3]، وأسْتَغْفِرُ اللّٰه لي ولَكَ، إِذَا شئتَ فَقُمْ[4].

١- هَاهُنا: وتكتب (هَهُنا): كلمةُ تَنبيه للمُخاطَب يُنَبَّه بها على ما يُساقُ إليهِ مِنَ الكلام.

٢- لَقِنٌ: سريعُ الفهم.

٣- هَاهْ: تكون وعيدًا في حال، وحكاية لضحك الضاحك في حال، وتكون في موضع آهْ من التَّوَجُّع.

٤- القولُ العليُّ لشرح أثر الإمام علي: لمحمد بن أحمد السفاريني (١١١٤- ١١٨٨ هـ) إصدار وزارة الأوقاف، الكويت.

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا علي رضي الله عنه لأولاده

لَمَّا ضربَ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُلْجِم المُرادِيُّ عليًا رضي الله عنه دَخَلَ مَنْزِلَهُ[1]، فاعْتَرَتْهُ غَشْيَةٌ، ثُمَّ أفاقَ، فَدَعَا الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا فقال[2]:

- أُوصِيكُما بِتَقْوَى اللهِ، والرَّغْبَةِ فِي الآخِرَةِ، والزُّهدِ فِي الدُّنْيَا، ولا تأسَفَا عَلَى شيء فاتَكما مِنْهَا، اعملا الْخَيْرَ، وكونا للظَّالِمِ خَصْمًا، وللمَظلومِ عَوْنًا.
- ثُمَّ دَعَا مُحَمَّدًا وقال: أما سَمِعْتَ ما أوصيتُ بِهِ أخويك. قال: بلى[3].
- قال: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِهِ، وعَلَيْكَ بِبِرِّ أَخَوَيْكَ، ومَعْرِفَةِ فَضْلِهِمَا، ولا تقطعْ أمرًا دونَهُمَا.
- ثُمَّ أقبل عَلَى الْحَسَنِ والْحُسَيْنِ، وقال: أُوصِيكُما بأَخِيكما وابن أبِيكُما، وقد عَلِمْتُمَا أن أباكما كَانَ يُحِبُّه فأحبَّاه، ثُمَّ قالَ:
- يا بَنِيَّ، أُوصِيكُم بِتَقْوَى اللهِ فِي الغيبِ والشَّهادة، وكلمةِ الحقِّ فِي الرِّضَا والغَضَبِ، والقَصْدِ فِي الفَقْرِ والغِنَى، والعَدْلِ عَلَى العَدوِّ والصَّدِيْقِ، والعَمِلِ فِي النَّشاطِ والكسلِ، والرِّضا عَنِ اللهِ فِي الشِّدَّةِ والرَّخاء.
- يا بَنِيَّ، ما شَرٌّ بَعْدَهُ الجنَّةُ بِشَرٍّ، وما خَيْرٌ بعدَهُ النَّارُ بخَيْرٍ، وكلُّ نعيمٍ دُوْنَ الجنَّةُ حَقِيْرٌ، وكلُّ بلاءٍ دُوْنَ النَّارِ عافيةٌ.

١- عبد الرحمن بن ملجم المرادي التدؤلي الحميري: أدرك الجاهلية والإسلام، وهاجر في خلافة سيدنا عمر، شهد فتح مصر، وشهد صفين مع سيدنا علي، وكان من شيعته، ثم خرج عليه، واتفق مع البرك وعمر بن بكر على قتل سيدنا علي ومعاوية وعمرو بن العاص، ونفذ مخططه، فقبض عليه وقتل سنة ٤٠ هـ (الأعلام).

٢- الغَشيةُ: ما ينوب الإنسان من غيبوبة.

٣- محمد بن الحنفية (المتوفى سنة ٨١ هـ) أبو القاسم، محمد بن علي بن أبي طالب، اشتهر باسم أمه خولة بنت جعفر وكانت أمةً لبني حنيفة، ولد في آخر خلافة سيدنا عمر، وكان كثير العلم والورع، وتعتقد بعض فرق الشيعة إمامته (وفيات الأعيان).

- يا بَنِيَّ، من أبصرَ عَيْبَ نَفْسِهِ شُغِلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِه، ومن رَضِيَ بقسم اللّه لَمْ يحزن عَلَى ما فاته، ومن سَلَّ سَيْفَ البَغْيِ قُتِلَ بِهِ، ومن حَفَرَ لأَخِيْه بئرًا وقعَ فِيهَا، ومن هَتَكَ حِجابَ أَخِيْه كَشَفَ عَوْرَاتِ نَفْسِه، ومن نَسِيَ خَطِيْئَتَهُ استعظَمَ خَطِيْئَةَ غَيْرِه، ومن أُعْجِبَ برأيِهِ ضَلَّ، ومن استغنى بعقلِهِ زَلَّ، ومن تكبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، ومن خالطَ الأنذالَ احْتُقِرَ، ومن دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ، ومن جالسَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ، ومن مَزَحَ استخفَّ بِهِ، ومن أكثرَ من شيءٍ عُرِفَ بِهِ، ومن كَثُرَ كلامُه كَثُرَ خَطَؤُهُ، ومن كَثُرَ خَطَؤُهُ قلَّ حَيَاؤُهُ، ومَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قلَّ وَرَعُهُ، ومَنْ قلَّ وَرَعُهُ ماتَ قلبُـهُ، ومن ماتَ قلبُـهُ دَخَلَ النَّارَ.
- يا بَنِيَّ، الأَدَبُ خَيْرُ مِيْراثٍ، وحُسْنُ الْخُلُقِ خَيْرُ قَرِيْنٍ.
- يا بَنِيَّ، العَافيةُ عَشَرَةُ أَجْزاءٍ؛ تسعةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ إلا عَنْ ذكرِ اللّه، وواحدةٌ فِي تركِ مُجَالسةِ السُّفَهَاءِ.
- يا بَنِيَّ، زِينةُ الفَقْرِ الصَّبْرُ، وزينةُ الغِنَى الشُّكْرُ.
- يا بَنِيَّ، لا شرفَ أعلى من الإسْلامِ، ولا كَرَمَ أَعَزُّ من التَّقْوَى، ولا مَعْقِلَ أَحْرَزُ من الورعِ، ولا شفيعَ أنجحُ منَ التَّوْبَةِ، ولا لِبَاسَ أَجْمَلُ من العافيةِ، الْحِرْصُ مفتاحُ التَّعَبِ ومَطِيَّةُ النَّصَبِ.
- التَّدْبِيْرُ قبلَ العَمَلِ يُؤَمِّنُكَ من النَّدمِ، فبئسَ الزَّادُ إلى المَعَادِ العُدْوانُ عَلَى العِبَاد.
- طُوْبَى لِمَنْ أَخْلَصَ للّه عِلْمَهُ وعَمَلَهُ، وحُبَّهُ وبُغْضَهُ، وأَخْذَهُ وتَرْكَهُ، وكلامَهُ وصَمْتَهُ، وقَوْلَهُ وفِعْلَهُ[1].

١- الشهب اللامعة في السياسة النافعة: عبد الله بن يوسف المالقي، نشر مكتبة المدار الإسلامي.

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا العباس لابنه عبدالله رضي الله عنهما

أدب مجالسة الصغير الكبيرَ

العبَّاسُ بنُ عبدِ المطلب بن هاشم، عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ وجدُّ الخلفاء العَبَّاسِيِّينَ، أبو الفَضْلِ، قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أجْوَدُ قريشٍ كفًّا وأوصلها، هَذا بقيَّةُ آبائي». كَانَ مُحْسِنًا سديدَ الرأي، واسعَ العَقْلِ، مولعًا بإعتاق العبيد، وكَانَت لَهُ السِّقايةُ وعمارة المسجد، ورد في الحديث: «كلُّ مأْثَرةٍ من مآثِرِ الجاهلية تحت قدميَّ إلا سِقايةَ الحاجِّ وسِدانةَ البيت». وهي ما كانت قريش تَسْقيه الحُجَّاج من الزَّبيب المُنْبُوذِ في الماء، وكانَ يليها العباسُ بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام، كان إذا مرَّ بعمر أيام خلافته ترجَّلَ عمر إجلالا له، وكذلك عثمان، توفي العباس سنة ٣٢ هـ وترك عشرة أولاد من الذكور، وأحصي ولده سنة ٢٠٠ هجرية فبلغوا ثلاثًا وثلاثين ألفًا.

قالَ سيدنا العباس لابنِهِ عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مُوَصِيًا:

- إِنِّي أَرَى هَذَا الرَّجُلَ (يَعْنِي عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يُقَدِّمُكَ عَلَى الأَشْيَاخِ فَاحْفَظْ مِنِّي خَمْسًا:
- لا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا.
- وَلا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا.
- وَلا يُجَرِّبَنَّ عَلَيْكَ كَذِبًا.
- وَلا تَعْصِيَنَّ لَهُ أَمْرًا.
- وَلا يَطَّلِعَنَّ مِنْكَ عَلَى خِيَانَةٍ.

فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخَمْسِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ[١].

١- الإحياء: للغزالي.

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بخمس كلمات

أَوْصَى سيِّدُنا عبدُالله بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ:

- إِيَّاكَ وَالْكَلامَ فِيمَا لا يَعْنِيكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَرُبَّ مُتَكَلِّم فِيمَا لا يَعْنِيهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَدْ عَنَتَ.
- وَلا تُمَارِ سَفِيهًا وَلا فَقِيهًا، فَإِنَّ الْفَقِيهَ يَغْلِبُكَ وَالسَّفِيهَ يُؤْذِيكَ.
- وَاذْكُرْ أَخَاكَ إِذَا غَابَ عَنْكَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ تُذْكَرَ بِهِ.
- وَدَعْ مَا تُحِبُّ أَنْ يَدَعَكَ مِنْهُ.
- وَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُجَازَى بِالإِحْسَانِ وَيُكَافَأُ[١].

وَصِيَّةُ بعض الأنصار ابنه

أوصى بعضُ الأنصارِ ابنَهُ فقال: يا بنيّ، إني موصيكَ بوصيَّةٍ، إن لَم تحفظْها عَنِّي كنتَ خليقًا ألا تَحْفظَها عن غَيْري:

- يا بنيّ، اتَّقِ الله، وإن استطعتَ أن تكونَ اليومَ خَيْرًا منكَ من أمسِ وغدًا خَيْرًا منك اليومَ فافعلْ.
- وإذا عَثَرَ عاثرٌ من بني آدمَ فاحمدْ ألاّ تكونَهُ.
- وإيَّاكَ والطَّمعَ، فإنَّهُ فقرٌ حاضرٌ.
- وعليكَ باليأسِ، فإنكَ لن تيأس من شئٍ إلا أغناكَ اللّهُ عنه.
- وإيَّاكَ وما يُعْتَذرُ منه، فإنه لا يُعْتَذَرُ من خَيْرٍ أبدًا [٢].

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح المقدسي.

٢- نَثْرُ الدُّرّ: لمنصور بن الحُسين الآبي، دار الكتب العلمية – لبنان، ٦/ ٢٤٩.

وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه

عُمَيْرُ بن حبيبٍ بن (حباشة) ويقال ابنُ (خَماشَةَ) الأنصاريّ الخطميّ، يقال: إنه ممن بايع تحت الشجرة، روى عن النَّبِيِّ ﷺ.

أوصى عُمَيْرُ بن حبيبٍ، وكان بايعَ النَّبِيَّ ﷺ بَنِيْهِ فقالَ[١]:

- يا بنيّ، إيَّاكمْ ومُخالطةَ السُّفهاءِ، فإنَّ مُجَالَسَتَهُمْ داءٌ، وإنَّهُ من يَحْلُمْ عن السَّفيهِ يُسَرُّ بحلمِهِ، ومن يُجِبْهُ يندمْ، ومن لا يُقِرُّ بقليلِ ما يأتي به السَّفيهُ يُقِرُّ بالكثيرِ.
- وإذا أرادَ أحدُكم أن يَأْمُرَ بالمعروفِ أو ينهى عن المنكرِ فَلْيُوَطِّنْ قبلَ ذلكَ على الأذَى.
- ولْيُوْقِنْ بالثَّوابِ من الله عزَّ وَجَلَّ، إنَّهُ من يوقِنْ بالثَّوابِ من الله عزَّ وَجلَّ لا يجدْ مَسَّ الأذَى[٢].

١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البرِّ.

٢- الأمالي: للقالي، أبي علي، إسماعيل بن القاسم: ٢/ ٥٧، دار الكتب المصرية.

وَصِيَّةُ الأحنف بن قيس لبني تميم

الأحنف بن قيس (المتوفى سنة ٧٢ هـ) أبو بحر، سيد بني تميم، وأحد العظماء، الدهاة، الفصحاء، الشجعان، الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، ولد في البصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره، اعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه، فأغلظ له الأحنف الجواب، فسئل معاوية عن صبره عليه فقال: هذا الذي إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون فيمَ غضب.

سُئِلَ الأحنفُ بنُ قيسٍ: هل رأيتَ أحْلَمَ مِنْكَ؟ قال: نعم، وتعلَّمْتُ مِنْهُ الْحِلْمَ، قيل: ومَنْ هو؟ قال: قَيْس ابن عاصم المِنْقَرِيُّ، حَضَرْتُه يَوْمًا وهو مُحْتَبٍ، يُحَدِّثُنا إذْ جاءوا بابنٍ لَهُ قَتِيلٍ، وابنِ عَمٍّ لَهُ كَتِيفٍ، فقالوا: إنَّ هَذا قَتَلَ ابنَكَ هذا، فلم يَقْطَعْ حديثَهُ، ولا نَقَضَ حَبْوَتَه، حتى إذَا فَرَغَ من الْحَدِيثِ التفتَ إلَيْهِم فقال: أين ابني فلان؟ فجاءه، فقال: يا بُنَيَّ، قُمْ إلى ابن عمِّكَ فأطْلِقْه، وإلى أَخِيْك فادْفِنْهُ، وإلى أمِّ القتيلِ فأعْطِهَا مائةَ ناقةٍ فإنَّها غريبة لَعَلَّها تَسْلو عَنْهُ.

رُوِيَ عَنْ رَجُلٍ من بني تَمِيْم قال: حَضَرْتُ مَجْلِسَ الأحنفِ بنِ قيسٍ وعِنْدَه قومٌ مجتمعونَ في أَمْرَ لَهُم، فحمد الله وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قال[1]:

- إنَّ من الْكَرَم مَنْع الْحُرَم.
- مَا أَقْرَبَ النِّقْمَةَ من أَهْلِ الْبَغْي.
- لا خَيْرَ في لذَّةٍ تُعْقِبُ نَدَمًا.
- لَنْ يَهْلِكَ ولن يفتقرَ من زَهِدَ.
- رُبَّ هَـزْلٍ قَدْ عادَ جدًّا.
- من أمِنَ الزَّمانَ خَانَهُ، ومن تعظَّمَ عَلَيْهِ هَانَهُ.

١- تَميمُ: هم قاعدة من أكبر قواعد العرب، كانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة وامتدت إلى العذيب (من أرض الكوفة)، ثم تفرقوا في الحواضر والبوادي.

- دَعُوا المُزَاحَ فَإنَّـهُ يورِثُ الضَّغائنَ.
- خَيْرُ القَوْلِ ما صدَّقهُ الفِعْلُ.
- واحتملوا لِمَنْ أدَلَّ عَلَيْكُمْ[1]، واقبلوا عُذْرَ من اعْتَذرَ إلَيْكُمْ.
- أطِعْ أخَاكَ وإنْ عَصَاكَ، وصِلْـهُ وإنْ جَفَاكَ.
- أنْصِفْ من نَفْسِكَ قَبْلَ أن يُنْتَصَفَ مِنْكَ.
- وإيَّاكَ ومُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ.
- وَاعْلَمْ أنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ لُؤْمٌ، وصُحْبةَ الجَاهِلِ شُؤْمٌ.
- ومن الكَرَمِ الوفاءُ بالذِّمَمِ.
- ما أقبح القَطِيْعَةَ بعد الصِّلَةِ، والجفاءَ بعد اللُّطْفِ، وأقْبَحَ العَدَاوَةَ بعد الودِّ.
- لا تَكُونَنَّ عَلَى الإساءةِ أقوى مِنْكَ عَلَى الإحسانِ، ولا إلى البُخْلِ أسْرَعَ إلى البَذْلِ.
- وَاعْلَمْ أنَّ لَكَ من دُنْياكَ ما أصْلحتَ بِهِ مثواكَ؛ فأنْفِقْ في حَقٍّ، ولا تَكُونَنَّ خازنًا لِغَيْرِكَ.
- وإذَا كَانَ الغَدْرُ في النَّاسِ موجودًا، فالثِّقَةُ بكلِّ أحَدٍ عَجْزٌ.
- اعْرِفِ الحقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لكَ.
- وَاعْلَمْ أنَّ قطيعةَ الجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ العَاقِلِ.

قالَ الرَّجلُ: فما رأيتُ كلامًا أبْلَغَ منه، فقمتُ وقَدْ حفظته[2].

١- أَدَلَّ عليه: وَثِقَ بمحبته فأَفْرَط عليه.

٢- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: لأبي الفرج، معافى بن زكريا النهرواني الجريري (٣٠٣- ٣٩٠ هـ)، تحقيق د.محمد مرسي الخولي، عالم الكتب – بيروت، ١٩٨١م: ٢/٢٤٧. قال القاضي (أبو معافى الجريري) بعد أن أوردَ هذه الوصايا: هذا لعمري من أشرفِ الكلام وأبلغه وأحسنه، وأبلغ الخطاب وأبينه، فرحم الله أبا بحر، كيف أشار بالرشد، وهدى إلى القصد، وما فصل من فصول خطبته إلا وقد وردت الآثار بما يؤيده، مع ما في العقول مما يدعو إليه ويؤكده. ومجالسنا هذه تتضمن كثيرًا مما ورد في معناه إن شاء الله، وأيد بعونه وتوفيقه.

وَصِيَّةُ عمرو بن عتبة لابنه

عَمْرُو بنُ عُتْبَةَ ابنِ أبي سُفْيَانَ (ابن أَخِي مُعَاوِيَةَ) كَانَ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى الحَجَّاجِ بنِ يوسفَ مَعَ عبدِ الرَّحْمنِ بن الأشعث، فقُتِلَ في تِلْكَ الحروب، التي كَانَت ما بَيْنَ سنتي (٨١ – ٨٣ هـ)[١].

عَنْ سفيانَ بن عَمْرِو بن عُتْبَةَ قال: لَمَّا بَلَغْتُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً قال لي أبي:

- أيْ بُنَيَّ، قَدْ انقطعتْ عَنكَ شَرائعُ الصِّبا فاخْتلطْ بالْخَيْرِ تكُنْ من أهْلِهِ، ولا تُزايلْهُ فتبينَ مِنْهُ كله.
- ولا يغرنَّك من اغترَّ باللّه عَزَّ وَجَلَّ فِيْكَ فَمَدَحَكَ بما تعلم خِلافَهُ من نَفْسِكَ.
- واعْلمْ أَنَّهُ يا بُنَيَّ لا يَقُولُ أحدٌ في أحَدٍ من الْخَيْرِ ما لا يَعْلَمُ إِذَا رَضِيَ إلا قالَ فِيهِ مِثْلَهُ من الشَّرِّ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ إِذَا سَخِطَ.
- فاستأنسْ بالوَحْدةِ من جُلساءِ السُّوءِ تَسْلَمْ من عَوَاقِبِهِمْ.
- ولا تَنْقُلْ حُسْنَ ظَنِّي بِكَ إلى غَيْرِهِ.

قالَ سُفْيَانُ: فما زالَ كلامُ أبي لي قِبْلَةً أنتقلُ معها ولا أنتقلُ عَنْهَا، وما شيءٌ أحمدُ مَغبَّةً من قَبُولٍ من ناصحٍ معروفٌ نُصْحُهُ[٢].

١- المعارف: لابن قتيبة (أبي محمد، عبد الله بن مسلم)، تحقيق ثروت عكاشة، نشر دار المعارف.

٢- الجليس الصالح الكافي: ٢٤٤/٢. وقد وردت هذه الوصية في مصادر عدة، منها: الأمالي الشجرية: ابن الشجري. والعقد: (مواعظ الآباء للأبناء). ونسبها ابن الجوزي في (صفة الصفوة) إلى سفيان بن عيينة.

وَصِيَّةُ أبي الأسود الدُّؤلي ابنه بالمال

أبو الأسودِ الدُّؤليُّ: اسمه ظالمُ بنُ عمرٍو، قاضي البصرةِ، قال الواقدي: أسلمَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ. قيل: قاتلَ أبو الأسود يوم الجمل مع علي بن أبي طالبٍ، وكان من وجوه الشِّيعةِ، ومن أكملهم عقلا ورأيًا [1].

أوصى أبو الأسود ابنَه فقال:

- يا بنيّ، إذا جلستَ في قومٍ فلا تتكلمْ بما هو فوقك فيمقتوكَ، ولا بما هو دونَك فيزدروكَ.
- وإذا وسَّعَ اللّهُ عليكَ فابسطْ يدَكَ.
- وإذا أمسكَ عليكَ فأمْسِكْ، ولا تُجاودِ اللّهَ؛ فإنَّ اللّهَ أجودُ منكَ [2].

وَصِيَّةُ امرأة من كلبٍ ابنَها بالمال

أوصَتْ امرأةٌ من كلبٍ ابنَها فقالت:

- يا بنيّ، إذا رأيتَ المالَ مقبلا فأنفقْ؛ فإنه يحتملُ النَّفَقةَ.
- وإذا رأيتَهُ مُدْبِرًا فأنفقْ؛ فإنَّ ذهابَهُ فيما تريدُ خَيْرٌ من ذهابِهِ فيما لا تريد [3].

١- سير أعلام النبلاء: للذهبي.

٢- نَثْرُ الدُّرّ: لمنصور بن الحُسين الآبِي، دار الكتب العلمية – لبنان.

٣- المرجع السابق: ٦/٢٥٢.

وَصِيَّةُ عبدِ الله بنِ الْحَسَنِ لابنه

أبو مُحَمَّدٍ، عبدُ الله بنُ الْحَسَنِ بنِ الْحَسَنِ بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم الملقب بالأرقط وبالمهدي وبالنفس الزكية، تابعيٌّ من أَهْلِ المدينة، ثِقَةٌ جليلُ القَدْرِ، قالَ الطبريُّ: كَانَ ذا عارضةٍ وَهَيْبَةٍ ولسانٍ وشَرَفٍ، وكَانَت لهُ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ عمر بن عبد العزيز، حبسه المنصور عدة سنوات من أجل ابنيه (محمد) و(إبراهيم)، ونقله إلى الكوفة، وتوفي سنة ١٤٥هـ [١].

قال الجاحظ: ومن خُطباءِ بني هاشم عبدُ الله بنُ الْحَسَنِ بنِ الْحَسَنِ، وهو القائل لابنه (إِبْرَاهِيمَ) أو (مُحَمَّد):

- أيْ بُنَيَّ، إني مُؤدٍّ إلَيْكَ حَقَّ الله في حسن تأديبك، فأدِّ إليَّ حَقَّ الله في حسن الاستماع.
- أيْ بُنَيَّ: كُفَّ عَنْ الأَذَى، وارفضِ البذا، اسْتعنْ عَلَى الكلام بطولِ الفكرِ في المواطن التي تدعوك فِيهَا نَفْسُكَ إلى القول، فإنّ للقولِ ساعات يَضُرُّ فِيهَا خطأه، ولا يَنفَعُ فِيهَا صوابُه.
- واحْذرْ مَشُوْرَةَ الجَاهِلِ وإن كَانَ ناصحًا، كما تَحْذرُ مَشُوْرَةَ العَاقِلِ إِذَا كَانَ غاشًّا؛ فإنَّهُ يوشك أن يورِّطاكَ بمشورتِهِمَا، فيسبقَ إليك مكرُ العاقل وتوريطُ الجاهل [٢].
- واعلمْ يا بنيّ، أنَّ رأيك إذا احتجْتَ إليه وجدْتَه نائمًا، ووجدتَ هواك يَقْظان، فإياك أن تستبدَّ برأيك؛ فإنه حينئذ هَواك؛ ولا تفعلْ فِعْلا إلاَ وأَنْتَ على يقين أنَّ عاقبَته لا تُرْديك، وأن نتيجتَه لا تَجْني عليك.
- إياك ومُعاداةَ الرجال؛ فإنك لن تعدَم مَكْر حليمٍ، أو مُعاداة لئيم [٣].

١- الأعلام: للزركلي.

٢- البيان والتبيين للجاحظ: ٢/١٧٤، طبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٨م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

٣- زهر الآداب وثمر الألباب للحُصري: ١/ ٣٣.

وَصِيَّةُ جعفر بن محمد رضي اللّه عنهما لابنه

جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ عليٍّ بنِ الْحُسَيْنِ بنِ عليٍّ بن أبي طالبٍ الهاشميِّ الْمَعْرُوفِ (بالصَّادق) (٨٠-١٤٨ هـ) وأمُّهُ أمُّ فَرْوَةَ بنتُ القاسمِ بنِ مُحَمَّدٍ ابن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، وأمُها أسماءُ بنتُ عبدِالرَّحْمنِ بن أبي بكر، ولذَلِكَ كَانَ يَقُولُ وَلَدَني أبو بكرٍ مَرَّتَيْنِ.

قَالَ حسنُ بنُ زيادٍ: سَمِعْت أبا حنيفةَ وسُئِلَ: من أفقهُ من رأيتَ؟ قَالَ«: ما رأيتُ أحدًا أَفْقَهَ من جعفرِ بنِ محمدٍ». قَالَ الذهبي: وكَانَ من جُلَّةِ عُلمَاءِ المدينةِ، وحدَّثَ عَنْهُ جماعةٌ من الأَئِمَّةِ مِنْهُم أبو حنيفةَ ومالكُ وغَيْرُهما.

عن بعضِ أصْحَابِ جعفر بن محمد قَالَ: رأيت جَعْفَرًا يوصي موسى (يعني ابنه) فقَالَ:

- يا بنيّ، من قَنِعَ بما قُسم لَهُ استغنى، ومن مَدَّ عَيْنَيْهِ إلى ما في يدِ غَيْرِه ماتَ فَقِيرًا.
- ومن لَمْ يرضَ بما قُسِمَ لَهُ اتَّهَمَ اللّه في قضائِهِ.
- ومن اسْتَصْغَرَ زَلّةَ غَيْرِه استعظمَ زلَّـةَ نَفْسِهِ.
- ومن كشفَ حجابَ غَيْرِه انكشفتْ عورتُهُ.
- ومن سلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتلَ بِهِ.
- ومن احتَفَرَ بئرًا لأَخِيْه أوقعَهُ اللّه فيه.
- ومن داخَلَ السُّفَهَاءَ حُقّرَ، ومن خالطَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ، ومن دَخَلَ مَداخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ.
- يا بنيّ، إيَّاكَ أن تُزْرِي بالرِّجَالِ فيُزْرَى بك.
- وإيَّاكَ والدُّخولَ فيما لا يعنيكَ فتذلَّ لذَلِكَ.

- يا بنيّ، قُلِ الحقَّ لَكَ وعَلَيْكَ تُسْتشارُ من بَيْنِ أقربائِكَ.
- كُنْ للقرآن تاليًا، وللسَّلام فاشيًا، وللمعروفِ آمرًا، وعن المُنْكرِ ناهيًا، ولمن قَطَعَك واصلاً، ولمن سكتَ عَنكَ مبتدئًا، ولمن سألكَ مُعْطيًا.
- وإيَّاكَ والنَّميمَةَ؛ فإنَّها تَزْرَعُ الشَّحناءَ في القُلُوْب.
- وإيَّاكَ والتعرُّضَ لعيوبِ النَّاسِ فَمَنْزِلَةُ المتعرِّضِ لعيوبِ النَّاسِ كَمَنْزِلَةِ الهَدَفِ.
- إذَا طلبتَ الجودَ فعليكَ بِمَعادِنِهِ، فإنَّ للجودِ مَعَادِنَ وللمعَادِنِ أصُولا، وللأصولِ فُرُوعًا، وللفُروعِ ثَمَرًا، ولا يطيبُ ثَمَرٌ إلا بفَرْعٍ، ولا فَرْعٌ إلا بأصلٍ، ولا أصلٌ إلا بِمَعْدِنٍ طيبٍ.
- زُرِ الأَخْيارَ، ولا تَزُرِ الفُجَّارَ، فإنَّهم صَخْرةٌ لا يتفجَّرُ ماؤُها، وشَجرةٌ لا يَخْضَرُّ وَرَقُها، وأرْضٌ لا يظْهَرُ عشْبُها.
- **ومن كلامه:** الصَّلاةُ قُرْبانُ كُلِّ تقيٍّ، وَالْحَجُّ جِهادُ كُلِّ ضَعيفٍ، وزَكاةُ البَدَنِ الصِّيامُ.
- والدَّاعي بلا عَمَلٍ كالرّامي بلا وَتَرٍ.
- واستنزلوا الرّزقَ بالصَّدَقَةِ، وحَصِّنوا أموالَكم بالزَّكَاةِ.
- وما عَالَ من اقتصَدَ، والتَّقدير نصفُ العيشِ، وقِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارينِ.
- ومن أَحْزَنَ والديهِ فقدْ عقَّهما.
- ومن ضربَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصيبَةٍ فَقَدْ حَبِطَ أَجْرُهُ.
- والصَّنيعةُ لا تَكُونُ صنيعةً إلا عِنْدَ ذي حَسَبٍ أو دِيْنٍ.
- واللهُ ينزِّلُ الصَّبْرَ عَلَى قَدْرِ المُصيبَةِ، وينزِّلُ الرِّزقَ عَلَى قَدْرِ المُؤْنَةِ.

- ومَنْ قدَّرَ معيشَتَهُ رَزَقَهُ اللّهُ، ومن بَذَّرَ معيشَتَهُ حَرَمَهُ اللّهُ[1].

قال عنوان البصري: قلت لجعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه: يا أبا عبد الله، أوصني، فقال:

- أوصيك بتسعة أشياء؛ فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله؛ ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم فاحفظها وإياك والتهاون بها. قال عنوان: ففرَّغتُ قلبي له.

قال: أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه، فإنه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، وإذا أكلت فكلْ حلالاً، وسمّ الله، واذكر حديث الرسول: ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطنه، فإن كان ولا بد، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.

- **فأما اللواتي في الحِلْم**: فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشرًا، فقل له: إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة. ومن شتمك فقل: إن كنت صادقًا فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذبًا فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنا فعده بالنصيحة والدعاء.
- **وأما اللواتي في العلم**: فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتًا وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئًا، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا، واهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك في الناس جسرًا.
- **قم عني يا أبا عبد الله**؛ فقد نصحت لك، ولا تفسد علي وردي، فإني امرؤ ضنين بنفسي، والسلام على من اتبع الهدى[2].

١- سير أعلام النبلاء: للذهبي.

٢- الكشكول: للبهاء العاملي: ٢/٥ - ٦.

وَصِيَّةُ محمد بن علي رضي الله عنهما لابنه

مُحَمَّدُ بنُ عليٍّ (الرضى) ابن موسى الكاظم، كَانَ رفيعَ القَدْرِ، ذكيًّا، طَلْقَ اللِّسَانِ، قويَّ البديهة، توفي سنة ٢٢٠ هـ، قال أبو عبدِ الله جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّد:

- قَالَ لي أبي: يا بُنَيَّ؛ انظرْ خَمْسةً لا تُحَادِثْهُم ولا تُصَاحِبْهُمْ ولا تُرَى مَعَهُمْ في طريقٍ. قلت: يا أبه، جُعِلتُ فِدَاكَ، من هَؤُلاءِ الخمسة؟
- قَالَ: إيَّاكَ ومُصَاحَبَةَ الفاسق؛ فَإِنَّهُ يبيعك بأكلةٍ أو أقلَّ مِنْهَا، قلت: يا أبتي، وما أقلُّ مِنْهَا؟ قَالَ: الطَّمَعُ فِيهَا، ثُمَّ لا ينالُها.
- قلت: يا أبه، ومن الثاني؟ قَالَ: إيَّاكَ ومُصَاحَبَةَ البخيل، فَإِنَّهُ يَخْذُلُك في مالِهِ أحْوَجَ ما تَكُونُ إليْهِ.
- قلت: يا أبه، ومن الثَّالِثُ؟ قَالَ: وإيَّاكَ ومُصَاحَبَةَ الكَذَّابِ؛ فَإِنَّهُ يقرّبُ منك البعيدَ ويباعدُ عَنكَ القريب.
- قلت: يا أبه، ومن الرَّابعُ؟ قَالَ: وإيَّاكَ ومُصَاحَبَةَ الأحْمَقِ؛ فإنَّهُ يُرِيدُ أن يَنفَعَك فيضرَّكَ.
- قلت: يا أبه ومن الخامسُ؟ قَالَ: وإيَّاكَ ومُصَاحَبَةَ القاطعِ لِرَحِمِهِ؛ لأني وجدتُهُ ملعونًا في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في ثلاثةِ مواضعَ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (مُحَمَّد: ٢٢- ٢٣)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥) وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ (البقرة: ٢٧)[١].

١- الجليس الصالح: ١٢٧/٢.

وَصِيَّةُ سفيانَ الثَّوْرِيِّ

سفيانُ الثَّوْرِيّ (٩٧-١٦١هـ) أجمعَ الناسُ على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأَئِمَّةِ المجتهدين.

ومن كلامِ سفيان الثَّوْرِيِّ فيما أَوْصَى بِهِ عليَّ بنَ الْحَسَنِ السَّلَمِيِّ:

- عَلَيْكَ بالصِّدقِ، وإِيَّاكَ والْكَذِبَ والخيانةَ والرِّياءَ والعُجْبَ، فإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالح يحيطُهُ اللّٰه بخَصْلَةٍ من هَذِهِ الخِصَالِ.
- ولا تأخذْ دِيْنَكَ إلا عمَّن هُوَ مُشْفِقٌ عَلَى دِيْنِهِ. وليكُنْ جليسُك من يُزَهِّدُكَ في الدُّنْيَا. وأَكْثِرْ ذكرَ المَوْتِ، وأكثرِ الاستغفارَ، واسأل اللّٰه السَّلامةَ فيما بقي من عُمُرِكَ.
- وَانْصَحْ كُلَّ مؤمنٍ إذَا سألكَ عَنْ أَمْرِ دِيْنِهِ. وإيَّاكَ أَنْ تخونَ مُؤْمِنًا، فَإِنَّ من خَانَ مُؤْمِنًا فَقَدْ خَانَ اللّٰه تَعَالَى ورسولَهُ.
- وإيَّاكَ والجدالَ والخصامَ، ودَعْ ما يَرِيْبُكَ إلى ما لا يَرِيْبُكَ تكُنْ سليمًا.
- ومُرْ بالْمَعْرُوفِ، وانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ تكُنْ حبيبَ اللّٰه.
- وأَحْسِنْ سريرتَكَ يُحْسِنِ اللّٰهُ عَلانِيَتَكَ، واقبلْ المعذرةَ مِمَّنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ.
- ولا تُبْغِضْ أَحَدًا من الْمُسْلِمِينَ، وصِلْ من قَطَعَكَ، واعفُ عمّن ظَلَمَكَ تكُنْ رفيقَ الأنبياء. وليكُنْ أَمْرُك مفوَّضًا إلى اللّٰه في السِّرِّ والعَلانيةِ.
- واخشَ اللّٰه خَشْيَةَ من قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مَيِّتٌ ومبعوثٌ وسائرٌ إلى الحشرِ والوقوفِ بَيْنَ يدي الجبَّارِ.
- واذْكُرْ مَصِيْرَكَ إلى إِحْدَى الدَّارَيْنِ: إِمَّا إلى جَنَّةٍ عَاليةٍ، وإِمَّا إلى نارٍ حاميةٍ[1].

١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نعيم الأصفهاني. وانظر: (مواعظ الإمام سفيان الثوري) لصالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

وَصِيَّةُ الإمام مالك رضي الله عنه لبعضِ ولاةِ المدينة

الإمـامُ مالكُ بنُ أنس رضي الله عنه: أبو عبدِ اللّه، إمـامُ دارِ الهجرةِ، وأحَدُ الأئِمَّـةِ الأرْبَعَةِ عِنْدَ أهْلِ السُّنَّةِ، ومناقِبُهُ كَثِيرَةٌ جدًّا، كَانَ إذَا أرَادَ أنْ يحدِّث تنظَّفَ وتطيَّب وسرَّحَ لِحْيَتَهُ، وَلَبِسَ أحْسَنَ ثيابِهِ (وكَانَ يَلْبَسُ حَسَنًا) ومن وَقْتِ خروجِ (مُحَمَّدِ بن عبد اللّه بن الْحَسَنِ) لَزِمَ مـالكُ بيتَهُ فلم يكُنْ يأتي أحدًا لا لعزاءٍ ولا لهناء، ولا يخرج لجمعة ولا لجماعة، ويَقُولُ: ما كلُّ ما يُعْلَمُ يُقَـالُ، ولَيْسَ كلُّ أحدٍ يَقْدِرُ عَلَى الاعتذار، وكَانَ نَقْشُ خاتَمِهِ (حَسْبِيَ اللّه وَنِعْمَ الْوَكِيلُ). أُثْنِيَ على والي المدينة عند مالك رضي الله عنه فغضب مالك، ثم التفت إليه وقال:

- إيَّاكَ يغرُّكُ هَؤُلاءِ بثنائِهِمْ عَلَيْكَ، فَإِنَّ من أَثْنَى عَلَيْكَ، وقَالَ فِيْكَ من الْخَيْرِ ما لَيْسَ فِيْكَ أوْشَكَ أن يَقُولَ فِيْكَ من الشَّرِّ ما لَيْسَ فِيْكَ.
- فاتَّقِ اللّهَ فِي التَّزْكِيَةِ مِنْكَ لِنَفْسِكَ، أوَ تَرْضَى بها مِنْ أحَدَ يَقُولُها لَكَ فِي وجهِكَ، فَإنَّك أنتَ أعْرَفُ بِنَفْسِكَ مِنْهُم.
- فَإِنَّهُ بَلَغَني أنَّ رَجُلا مُدِحَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: «قَطَعْتُم ظَهْرَهُ أو عُنُقَهُ، لو سَمِعَها ما أفْلَحَ»[1].
- وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «احْثوا التُّرابَ فِي وُجُوهِ المدَّاحِيْنَ»[2].

١- (قطعتم ظهره أو عنقه...) رواه البخاري بلفظ (أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل).

٢- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: للقاضي عياض بن موسى، تحقيق د. أحمد بكير، دار مكتبة الحياة: ١/ ٢١١.

وَصِيَّةُ يحيى بن يزيد للإمام مالك

وحَكَى الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنَ الإِحْيَاءِ أَنَّ يَحْيَى بْنَ يَزِيدَ النَّوْفَلِيّ كَتَبَ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللّٰه عَنْهُمَا: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَصَلَّى اللّٰه عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ:

- مِنْ يَحْيَى بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَلْبَسُ الدُّقَاقَ وَتَأْكُلُ الرُّقَاقَ، وَتَجْلِسُ عَلَى الْوَطِئِ، وَتَجْعَلُ عَلَى بَابِكَ حَاجِبًا، وَقَدْ جَلَسْتَ مَجْلِسَ الْعِلْمِ، وَقَدْ ضُرِبَتْ إِلَيْكَ الْمَطِيُّ، وَارْتَحَلَ إِلَيْكَ النَّاسُ وَاتَّخَذُوكَ إِمَامًا وَرَضُوا بِقَوْلِكَ، فَاتَّقِ اللّٰه تَعَالَى يَا مَالِكُ، وَعَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ، كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِالنَّصِيحَةِ مِنِّي كِتَابًا مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ غَيْرُ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالسَّلامُ[1].
- فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَصَلَّى اللّٰه عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ. مِنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَزِيدَ، سَلامُ اللّٰهِ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ فَوَقَعَ مِنِّي مَوْقِعَ النَّصِيحَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالأَدَبِ، أَمْتَعَكَ اللّٰه بِالتَّقْوَى وَجَزَاكَ بِالنَّصِيحَةِ خَيْرًا، وَأَسْأَلُ اللّٰه تَعَالَى التَّوْفِيقَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ لِي أَنِّي آكُلُ الرُّقَاقَ، وَأَلْبَسُ الدُّقَاقَ، وَأَحْتَجِبُ، وَأَجْلِسُ عَلَى الْوَطِئِ، فَنَحْنُ نَفْعَلُ ذَلِكَ وَنَسْتَغْفِرُ اللّٰه تَعَالَى، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢)، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ، وَلا تَدَعُنَا مِنْ كِتَابِكَ فَلَسْنَا نَدَعُكَ مِنْ كِتَابِنَا، وَالسَّلامُ. ا هـ.

١- الدّقيق: خلاف الغليظ، وكذلك الدُّقاقُ بالضم. والرُّقاقُ، بالضم: الخبز المنبسط الرَّقيقُ.

وَصِيَّةُ أبي زيدٍ القَيْرَوانيِّ

أبوزيدٍ القَيْرَوانيُّ، عبدُالرَّحْمنِ بنُ عمرَ بنِ أبي الغَمْرِ، مولى بني فهيم (١٦٠ – ٢٣٤ هـ) شَيْخٌ ثِقَةٌ، كَانَ فقيهًا مفتيًا، لَهُ كتبٌ مؤلفةٌ حَسَنَةٌ، روى عَنْهُ البخاريُّ وأخْرَجَ عنه في الصَّحِيْحِ، رأى مالكًا ولَم يأخُذْ عَنْهُ شيئًا.

كَتَبَ أبوزيدٍ القَيْرَوانيُّ إلى أبي سِنَانٍ الأَسَدِيِّ القَيْرَوانيِّ:

- عَلَيْكَ يا أَخِي بِنَفْسِكَ فلها فاعْمَلْ، وعلى حَظِّها فاحْرِصْ، وعلى دوام بقائها في النعيم فقمْ لَهَا بذَلِكَ، فكأن قَدْ حجبت عَنْ القيام بذَلِكَ بما ذكرت لك، فاغْتَنِمْ ذَلِكَ ما كَانَ لَكَ مبذولا.
- وَاعْلَمْ أَنَّكَ لن تَقْوَى عَلَى ذَلِكَ حتى تتركَ ما تُحِبُّ إلى ما تَكْرَهُ، فعِنْدَ ذَلِكَ تَقْوَى عَلَى ما تُرِيْدُ، ويهونُ عَلَيْكَ طلبُ ذَلِكَ، وتَقْدِرُ عَلَيْهِ إنْ شَاءَ اللّٰهُ، وأبعدُ ما تَكُونُ مِنْهُ حِيْنَ تعطي لِنَفْسِكَ مُنَاهَا وتَدْرَأ عَنْهَا ما تَكْرَهُ.
- وَاعْلَمْ أن ذَلِكَ باللّٰهِ ومِنْهُ، فعَلَيْكَ بالاستِكَانَةِ إِلَيْهِ في ذَلِكَ، فلعلَّك تُعْطَاهُ إنْ حَسُنَتْ فِيهِ نِيَّتُكَ[١].

١– ترتيب المدارك وتقريب المسالك : ٥٦٥/١.

وَصِيَّةُ أحمد بن عاصم الأنطاكي

أبو عليٍّ، أحمد بن عاصم الأنطاكي: أَحَدُ العُبَّادِ الزُّهادِ، كَانَ مِنْ طبقةِ الحارثِ المحاسبي، وَبِشْرٍ الحافيِّ، لَهُ كلامٌ حَسَنٌ في الزُّهْدِ ومُعَاملاتِ القُلُوبِ، وكَانَ أبو سُلَيْمَانَ الدَّاراني يسمِّيْهِ جاسوسَ القُلُوبِ لحدَّةِ فِراسَتِهِ، توفي سَنَةَ ٢٣٩ هـ.[١]

كَتَبَ أحمدُ بنُ عاصم الأنطاكي إلى صَاحِبٍ لَهُ يَعِظُهُ:

- إنَّا أصبحنا في دَهْرِ حَيْرَةٍ، تَضْرِبُ علينا أمواجُهُ، يغلبُ الهوى العالمَ منَّا والجاهلَ، فالعالمُ منا مَفْتونٌ بالدُّنْيَا يبيعُ ما يَدَّعيهِ مِنَ الْعِلْمِ، والجاهلُ مِنَّا عاشقٌ لها، مُسْتَمِدٌّ مِنْ فتنةِ عالِمِهِ.
- فالمُقِلُّ لا يَصْنَعُ، والمُكْثِرُ لا يَشْبَعُ، فكلٌ قَدْ شَغَلَ الشَّيْطَانُ قلبَهُ بخوفِ الفقْرِ، فأعاذَنا اللهُ وإيَّاكَ مِنْ قبولِ عِدَةِ إبليسَ، وتَركْنَا عِدَةَ ربِّ الْعَالَمِينَ.
- يا أَخِي، لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمنًا، يعظُكُ بعقْلِهِ ومَصَادِيْقِ قولِهِ، أو مُؤْمنًا تقيًّا، فَمَتَى صَحِبْتَ غَيْرَ هَؤُلاءِ أورثوكَ النَّقْصَ في دِيْنِكَ، وقبح السِّيْرَةِ في أُمُوْرِك.
- وإيَّاكَ والْحِرْصَ والرَّغْبَة، فَإِنَّهما يَسْلُبانِ القناعةَ والرِّضا.
- وإيَّاكَ والميلَ إلى هواك، فَإِنَّهُ عدوُّ الحقِّ.
- وإيَّاكَ أن تُظْهِرَ أَنَّكَ تخشى اللهَ وقَلْبُكَ فاجرٌ.
- وإيَّاكَ والضَّجَرَ، ما إنْ أظهرتَهُ أَخْزَاك، وإنْ أَضْمَرْتَهُ أَرْدَاكَ، والسَّلامُ[٢].

١- انظر (البداية والنهاية)، أحداث سنة ٢٣٩ هـ.

٢- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ ابن عساكر (علي بن الحسين ٤٤٩- ٥٧١ هـ).

وصية أبي الليث السمرقندي في (الكسب)

نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الليث، الفقيه، الملقب بإمام الهدى، قال فيه صاحب الجواهر المضيئة: الإمام الكبير، صاحب الأقوال المفيدة والتصانيف المشهورة، تفقه على أبي جعفر الهندواني وغيره، من كتبه (خزانة الفقه)، و(النوازل)، و(عيون المسائل)، و(التفسير)، و(تنبيه الغافلين). توفي سنة (٣٧٣ هـ).

قَالَ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ كَسْبُهُ طَيِّبًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ:

- أَوَّلُهَا: أَنْ لا يُؤَخِّرَ شَيْئًا مِنْ فَرَائِضِ اللهِ تَعَالَى لأَجْلِ الْكَسْبِ، وَلا يُدْخِلِ النَّقْصَ فِيهَا.
- وَالثَّانِي: أَنْ لا يُؤْذِيَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ لأَجْلِ الْكَسْبِ.
- وَالثَّالِثُ: أَنْ يَقْصِدَ بِكَسْبِهِ اسْتِعْفَافًا لِنَفْسِهِ وَلِعِيَالِهِ، وَلا يَقْصِدَ بِهِ الْجَمْعَ وَالْكَثْرَةَ.
- الرَّابِعُ: أَنْ لا يُجْهِدَ نَفْسَهُ فِي الْكَسْبِ جِدًّا.
- وَالْخَامِسُ: أَنْ لا يَرَى رِزْقَهُ مِنَ الْكَسْبِ، وَيَرَى الرِّزْقَ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَالْكَسْبَ سَبَبًا [1].

١- تنبيه الغافلين: للسمرقنديِّ، الليث نصر بن محمد الفقيه السمرقندي الحنفي، ص ٤٥٨، طبعة دار ابن كثير - بيروت.

وَصِيَّةُ الماوردي في إصلاح النفس ومداراة الناس

علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ) قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: أبو الْحَسَنِ، الْمَاورديُّ البصريُّ، شَيْخُ الشَّافعيةِ، صاحبُ التصانيفِ الكَثِيرَةِ في الأصولِ والفروعِ والتَّفْسِيرِ والأحكامِ السُّلطانِيَّةِ وأَدَبِ الدُّنْيَا والدِّيْنِ، لَم يَرَ أَصْحَابُهُ ذراعَهُ يَوْمًا مِن الدَّهرِ من شِدَّةِ تَحَرُّزِه.. قَالَ مُوْصِيًا:

- فَكُنْ أَيُّهَا الْعَاقِلُ مُقْبِلا عَلَى شَانِكَ، رَاضِيًا عَنْ زَمَانِك.
- سِلْمًا لأَهْلِ دَهْرِك، جَارِيًا عَلَى عَادَةِ عَصْرِك. مُنْقَادًا لِمَنْ قَدَّمَهُ النَّاسُ عَلَيْك، مُتَحَنِّنًا عَلَى مَنْ قَدَّمَك النَّاسُ عَلَيْهِ. وَلا تُبَايِنْهُمْ بِالْعُزْلَةِ عَنْهُمْ فَيَمْقُتُوك، وَلا تُجَاهِرْهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ لَهُمْ فَيُعَادُوك، فَإِنَّهُ لا عَيْشَ لِمَقُوتٍ وَلا رَاحَةَ لِمُعَادَى.
- وَاجْعَلْ نُصْحَ نَفْسِك غَنِيمَةَ عَقْلِك، وَلا تُدَاهِنْهَا بِإِخْفَاءِ عَيْبِك وَإِظْهَارِ عُذْرِك، فَيَصِرْ عَدُوُّك أَحْظَى مِنْك فِي زَجْرِ نَفْسِهِ بِإِنْكَارِك وَمُجَاهَرَتِك مِنْ نَفْسِك الَّتِي هِيَ أَخَصُّ بِك لإِغْرَائِك لَهَا بِأَعْذَارِك وَمُسَاءَتِك. فَحَسْبُك سُوءًا رَجُلٌ يَنْفَعُ عَدُوَّهُ وَيَضُرُّ نَفْسَهُ.
- وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَصْلِحْ نَفْسَك لِنَفْسِك يَكُنْ النَّاسُ تَبَعًا لَك.
- وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ أَرْغَمَ أَنْفَ أَعَادِيهِ، وَمَنْ أَعْمَلَ جِدَّهُ بَلَغَ كُنْهَ أَمَانِيه.
- وَقَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: مَنْ عَرَفَ مَعَابَهُ فَلا يَلُمْ مَنْ عَابَهُ.
- وَأَنْشَدَنِي أَبُو ثَابِتٍ النَّحْوِيُّ لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ:

وَمَصْرُوفَةٌ عَيْنَاهُ عَنْ عَيْبِ نَفْسِهِ ... وَلَوْ بَانَ عَيْبٌ مِنْ أَخِيهِ لأَبْصَرَا

وَلَوْ كَانَ ذَا الإِنْسَانُ يُنْصِفُ نَفْسَهُ ... لأَمْسَكَ عَنْ عَيْبِ الصَّدِيقِ وَقَصَّرَا

- فَهَذِّبْ أَيُّهَا الإِنْسَانُ نَفْسَك بِإِنكارِ عُيُوبِك، وَانْفَعْهَا كَنَفْعِك لِعَدُوِّك ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ لَمْ تَنْفَعْهُ الْمَوَاعِظُ[1].

١- أدب الدنيا والدين: للماوردي، (خاتمة) ص ٤٥٩، مكتبة العلوم والحكم - مصر.

وَصِيَّةُ أبي عثمان الصَّابوني

الصَّابونيُّ (٣٧٣-٤٤٩ هـ) أبـو عُثمَانَ، إسْمَاعِيلُ بنُ عبدِ الرَّحْمنِ، المَعْرُوفُ بشَيْخِ الإسلامِ، كَانَ إمامًا مفسِّرًا مُحَدِّثًا فقيهًا، واعظًا خطيبًا، أَوْحَدَ وَقْتِهِ في طريقتِهِ، وَعَظَ المُسْلِمِيْنَ في مَجَالِسِ التَّذكيْرِ ستِّيْنَ سَنَةً، وخَطَبَ عَلَى مِنْبَرِ نَيْسَابور نحوًا من عِشرِيْنَ سَنَةً[1].

قَالَ السُّبكيُّ: هَذِهِ وصيتُهُ وقد وجدتُ بِهَا بدمشق عِنْدَ دُخُوْلِهِ إِلَيْهَا حَاجًّا:

- هذا ما أَوْصَى بِهِ إِسْمَاعِيلُ بنُ عبدِ الرَّحْمنِ بن إِسْمَاعِيلُ أبو عثمانَ الصَّابوني الواعظُ غَيْرُ المُتَّعظِ، الموقظُ غَيْرُ المُتيقِّظِ، الآمرُ غَيْرُ المؤتَمِرِ، الزَّاجرُ غَيْرُ المُنْزَجِرِ، المُتَعَلِّمُ المعترفُ، المنذرُ المخوِّفُ، المُخلِّطُ المفرِّطُ، المُسْرِفُ، المُقْتَرِفُ للسَّيِّئَاتِ المُغترفُ، الواثقُ مَعَ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ رَبِّهِ، الرَّاجي لمغفرتِهِ، المحبُّ لرَسولِ اللهِ، الدَّاعي النَّاسَ إلى التَّمَسُّكِ بسنَّتِهِ وشَرِيْعَتِهِ ﷺ.

- أَوْصَى وهو يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، إلهًا واحدًا أحدًا، فردًا صَمَدًا، لَم يتَّخذْ صاحبةً وَلا ولدًا، ولَم يشركْ في حكمِهِ أَحَدًا، الأَوَّلُ الآخرُ، الظَّاهِرُ الباطنُ، الحيُّ القيُّومُ، الباقي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ، المُطَّلعُ عَلَى عِبَادِهِ، العالمُ بخفيَّاتِ الغيوبِ، الخبيرُ بضَمائرِ القُلُوْبِ، المُبْدِئُ المُعِيدُ، الغَفُورُ الوَدُودُ، ذُو العَرْشِ المَجِيدُ، الفعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]، هُوَ مَوْلانا فنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

- يَشْهَدُ بذَلِكَ كله مَعَ الشَّاهِدِينَ، مُقرًّا بلسانِهِ عَنْ صِحَّةِ اعتقادٍ، وصِدْقِ يَقِيْنٍ، ويتحمَّلُهَا عَنِ المُنْكِرِيْنَ الجاحدين، ويعدُّها ليومِ الدِّيْنِ ﴿يَوْمَ لَا

١- طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي، عبد الوهاب بن علي (٧٢٧-٧٧١ هـ) ترجمة رقم ٣٦٦، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، ص ٢٧١.

٢- الشورى: ١١.

يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

- ويَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عبدُهُ ورسولهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.
- ويَشْهَدُ أَنَّ الجنَّـةَ حَقٌّ، وجملةُ ما أعدَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا لأوليائه حَقٌّ، ويسألُ مولاه الكَرِيمِ جلَّ جلالُهُ أَنْ يَجْعَلَها مأواهُ ومثواهُ، فَضْلا مِنْهُ وكَرَمًا.
- ويَشْهَدُ أَنَّ النَّارَ وما أَعَدَّ اللهُ فِيهَا لأعدائِهِ حَقٌّ، ويسألُ اللهَ مولاهُ أَنْ يُجِيرَهُ مِنْهَا، ويُزَحْزِحَهُ عَنْهَا، ويَجْعَلَهُ من الفَائِزِينَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[٣].
- ويَشْهَدُ أَنَّ صَلاتَهُ وَنُسُكَهُ وَمَحْيَاهُ وَمَمَاتَهُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ من الْمُسْلِمِينَ، والْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[٤].
- وأنه رَضِيَ باللهِ ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبِمحمَّدٍ نبيًّا، وبالْقُرْآنِ إِمَامًا، عَلَى ذَلِكَ يَحْيَى، وعَلَيْهِ يَمُوتُ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

١- الشعراء: ٨٨ ، ٨٩.

٢- الدخان: ٤١ ، ٤٢.

٣- آل عمران: ١٨٥.

٤- يُسْتَحَبُّ للْمُوصي أَنْ يَبْدَأَهَا بِالْبَسْمَلَة، وَالثَّنَاء عَلَى الله تَعَالَى بِالْحَمْد وَنَحْوِه وَالصَّلاة عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ الشَّهَادَتَيْن كتَابَةً أَوْ نُطْقًا، وقد رُوِيَ عَنْ أَنَس رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: كَانُوا يَكْتُبُونَ فِي صُدُور وَصَايَاهُمْ: بِسْم اللهِ الرَّحْمَن الرَّحيم، هَذَا مَا أَوْصَى به فُلانٌ أَنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُور، وَأَوْصَى مَنْ تَرَكَ مِنْ أَهْله أَنْ يَتَّقُوا اللهَ وَيُصْلحُوا ذَاتَ بَيْنهمْ، وَيُطيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمنينَ، أَوْصَاهُمْ بِمَا أَوْصَى بِه إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) مصنف عبد الرزاق.

- ويَشْهَدُ أنَّ المَلائِكَةَ حَقٌّ، وأنَّ النَّبِيِّينَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللّه يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ.

- ويَشْهَدُ أنَّ اللّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى قدَّرَ الخَيْرَ وأمَرَ بِهِ، ورَضِيَهُ وأحبَّهُ، وأَرَادَ كونَهُ من فاعلِهِ، ووعدَ حُسْنَ الثَّوابِ عَلَى فِعْلِهِ، وقدَّرَ الشَّرَّ، وزَجَرَ عَنْهُ، ولَم يَرْضَهُ، ولَم يُحِبَّهُ، وأرادَ كونَهُ من مُرْتكبِهِ، غَيْرَ راضٍ بِهِ، وَلا محبٍّ له، تَعَالَى ربُّنا عَمَّا يَقُولُ الظالمونَ عُلوًّا كبيرًا، وتقدَّس أنْ يأمرَ بالمَعْصِيَةِ، أو يُحِبُّها، ويرضَاها، وَجَلَّ أن يقْدِرَ العَبْدَ عَلَى فِعْلِ شيءٍ لَمْ يَقْدِرْهُ عَلَيْهِ، أو يَحْدُثَ من العَبْدِ ما لا يُرِيدُهُ وَلا يشاؤُهُ.

- وَيَشْهَدُ أنَّ القُرْآنَ كتابُ اللّهِ وكلامُهُ، ووَحْيُهُ وتنـزيْلُهُ، غَيْرُ مَخْلوقٍ، وهو الَّذي فِي المصاحفِ مكتوبٌ، وبالألسنةِ مقروءٌ، وفِي الصُّدورِ محفوظٌ، وبـالآذانِ مسموعٌ، قَـالَ الله تـعَـالَـى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[1]، وقَالَ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾[2]، وقَـالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾[3]، وقَالَ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[4].

- وَيَشْهَدُ أنَّ الإيمَانَ تَصْدِيقٌ بالقَلْبِ بما أمَرَ اللّه أنْ يُصَدَّقَ بِهِ، وإقرارٌ باللِّسَانِ بما أمَرَ اللّه أنْ يُقَرَّ بِهِ، وعملٌ بالجوارحِ بما أمَرَ اللّه أن يُعْمَلَ بِهِ، وانْزِجَارٌ عَمَّا زَجَرَ عَنْهُ من كَسْبِ قَلْبٍ، وقولِ لسانٍ، وعملِ جوارحٍ وأركانٍ.

- ويَشْهَدُ أنَّ اللّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى مُسْتوٍ عَلَى عَرْشِهِ، استوى عَلَيْهِ كما بَيَّنَهُ فِي كتابِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

١- التوبة: ٦.

٢- العنكبوت: ٤٩.

٣- فاطر: ٢٩.

٤- يس: ٦٩.

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[١]، وقوله: ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[٢]، في آياتٍ أخر، والرسول ﷺ تسليمًا فيما نقل عَنْهُ، من غَيْرِ أنْ يُكَيِّفَ استواءَهُ عَلَيْهِ، أو يجعَلَهُ لفعلِهِ وفهمِهِ أو وَهْمِهِ سبيلا إلى إثباتِ كَيْفِيَّتِهِ، إذْ الكيْفِيَّةُ عَنْ صفاتِ ربِّنا مَنْفِيَّةٌ.

- قَالَ إمامُ المُسْلِمِيْنَ في عصْرِهِ أبو عبدِ اللهِ مالكُ بنُ أنسٍ رضي الله عنه في جَوابِ من سَأَلَهُ عَنْ كيفيَّةِ الاستواءِ: «الاستواءُ مَعْلومٌ، والكيْفُ مجهولٌ، والإيمَانُ بِهِ واجبٌ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعةٌ، وأظنُّكَ زِنْدِيْقًا، أخْرِجُوهُ من المسْجِدِ»[٣].
- ويَشْهَدُ أنَّ الله تَعَالَى موصوفٌ بصِفاتِ العُلَى، التي وصَفَ بِهَا نَفْسَهُ في كتابِهِ، وعلى لسانِ نبيِّهِ لا ينفي شيئًا مِنْهَا، وَلا يعتقدُ شَبَهًا لَهُ بصفاتِ خلقِهِ، بَلْ يَقُولُ: إنَّ صفاتِهِ لا تُشْبِهُ صِفاتِ المَرْبُوبِيْنَ، كما لاتُشْبِهُ ذاتُهُ ذواتَ المُحْدَثِيْنَ، تَعَالى اللهُ عَمَّا يَقُولُ المُعَطِّلَةُ والمُشَبِّهةُ عُلُوًّا كَبِيْرًا.
- ويسلكُ في الآياتِ التي وردتْ في ذكرِ صفاتِ البارىء جلَّ جلالُهُ، والأخبارِ التي صحّتْ عَنْ رسولِ الله ﷺ بابَها، كآيات مجيءِ الربِّ يَوْمَ القِيَامَةِ، وإتيانِ اللهِ في ظُلَلٍ من الغَمامِ، وخلقِ آدمَ بيَدِهِ، واستوائِهِ عَلَى عَرْشه، وكأخبارِ نزولِهِ كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا، والضَّحِك، والنَّجْوى، ووضْعِ الكنف عَلَى من يُنَاجيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وغَيْرِها، مَسْلَكَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وأَئِمَّةِ الدِّيْنِ من قبولِها، وروايتِها عَلَى وَجْهِهَا، بَعْدَ صِحَّةِ سَنَدِها، وإيرادِها عَلَى ظاهرِها، والتَّصديقِ بِها، والتَّسليم لها، واتِّقاءِ اعتقادِ التَّكييفِ والتَّشبيهِ فِيهَا، واجتنابِ ما يؤدّي إلى القَوْلِ بردِّها، وتركِ قبولِها أو تحريفِها بتأويلٍ يُسْتَنْكَرُ، ولَم ينـزِّلِ اللهُ بِهِ سُلطانًا، ولَم يَجْرِ بِهِ للصَّحابةِ والتَّابعينَ والسَّلَفِ الصَّالِحِينَ لسانٌ.

١- الأعراف: ٥٤.

٢- الفرقان: ٥٩.

٣- الزِّنْديقُ: القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب، والزَّنْدَقةُ: الضِّيقُ، وقيل: الزِّنْديقُ منه لأنه ضيّق على نفسه.

- ويَنْهَى فِي الْجُمْلَةِ عَنِ الخَوْضِ فِي الكلام، والتَّعمُّقِ فيه، وفي الاشتغالِ بما كَرِهَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللّٰه الاشتغالَ بِهِ، ونَهَوْا وزَجَرُوا عَنْهُ، فَإِنَّ الجدالَ فِيهِ، والتَّعَمُّقَ فِي دَقائِقِه، والتَّخَبُّطَ فِي ظُلُمَاتِه، كلُّ ذَلِكَ يُفْسِدُ القَلْبَ، ويُسْقِطُ مِنْهُ هَيْبَةَ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، ويُوْقِعُ الشُّبَهَ الكبيرةَ فِيهِ، ويَسْلُبُ البَرَكَةَ فِي الحالِ، ويَهْدي إلى الباطلِ والمُحالِ، والخصومةِ فِي الدِّيْنِ والجدالِ، وكَثْرَةِ القيلِ والقالِ، فِي الرَّبِّ ذي الجلالِ، الكبيرِ المتعالِ، سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظالمون علوًّا كبيرًا، والْحَمْدُ للّٰه عَلَى ما هدانا من دِيْنِهِ وسنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللّٰه وسلامُهُ عَلَيْهِ حمدًا كَثِيرًا.
- ويَشْهَدُ أنَّ الْقِيَامَةِ حَقٌّ، وكل ما وردَ بِهِ الكتابُ والأخبارُ الصِّحاحُ من أشراطِها، وأهوالِها، وما وَعَدَنَا بِهِ، وأُوعِدْنا بِهِ فِيهَا، فهو حَقٌّ نؤمنُ بِهِ، ونصدِّقُ اللّٰه سُبْحَانَهُ، ورسولَهُ أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ، كالحوضِ، والميزانِ، والصِّراطِ، وقراءةِ الكُتُبِ، والحسابِ، والسُّؤالِ، والعَرْضِ، والوقوفِ، والصَّدْرِ عَنِ المحشرِ إلى جَنَّةٍ أو إلى نارٍ، مَعَ الشَّفَاعَةِ الموعودة لأَهْلِ التَّوحيدِ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَبَيَّنٌ فِي الكتابِ، ومُدَوَّنٌ فِي الكُتُبِ الجامعةِ لصحاحِ الأخبارِ.
- ويَشْهَدُ بذَلِكَ كله فِي الشَّاهِدِينَ، ويستعين باللّٰه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الثَّباتِ عَلَى هَذِهِ الشَّهاداتِ، إلى المماتِ، حَتَّى يُتَوَفَّى عَلَيْهَا فِي جُملةِ الْمُسْلِمِيْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ الموقِنِيْنَ الموحِّدِيْنَ.
- ويَشْهَدُ أَنَّ اللّٰه تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَمُنُّ عَلَى أوليائه بوُجُوهٍ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ، ويرونه عيانًا فِي دار البقاء، لا يضارُّون فِي رؤيته، وَلا يمارون، وَلا يضامون، ويسأل اللّٰه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ وَجْهَهُ من تِلْكَ الوجوه، ويقيه كُلَّ بلاء وسوء ومكروه، ويبلغه كُلَّ ما يؤمِّلُهُ مِن فَضْلِهِ ويرجوه بمنِّه.
- ويَشْهَدُ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رسولِ اللّٰهِ أبوبَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رضي اللّٰه عنه،

ثُمَّ عُمَرُ الفاروقُ، ثُمَّ عثمانُ بنُ عفان، ثُمَّ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللّه عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، ويترحَّمُ عَلَى جَمِيْعِ الصَّحَابَةِ، ويتولاهُمْ ويَسْتَغْفِرُ لهم، وكذَلِكَ ذريته وأزواجه أمَّهاتِ المُؤْمِنِيْنَ، ويسأل اللّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى أن يَجْعَلَهُ مَعَهُمْ، ويرجو أن يفعله بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ صحَّ عِنْدَه من طرق شَتَّى أَنَّ رسولَ اللّه قَالَ: (المَرْءُ مَعَ من أحبَّ)[١].

- ويوصي إلى من يَخْلُفُهُ من ولدٍ وأخٍ وأهلٍ وقريبٍ وصَدِيقٌ وجَمِيْعِ من يقبلُ وَصِيَّتَهُ من المُسْلِمِيْنَ عامَّةً، أَن يَشْهَدُوا بجَمِيْعِ ما شَهِدَ بِه، وَأَنْ يتقوا اللّه حَقَّ تُقَاته، وألا يَمُوتُوا إلا وهم مُسْلِمُونَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[٢].

- ويُوصِيهِمْ بصَلاحَ ذاتِ البَيْنِ، وصِلَةِ الأَرْحَام، والإحسانِ إلى الجيْرانِ والأقاربِ والإخوانِ، ومَعْرِفَةِ حَقِّ الأكابرِ، والرَّحْمَةِ عَلَى الأَصَاغِرِ.

- ويَنْهَاهُمْ عَنِ التَّدابُرِ والتَّباغُضِ، والتَّقاطُعِ والتَّحاسُدِ، ويَأْمُرُهُم أن يَكُوْنُوا إخوانًا، عَلَى الخَيْرَاتِ أعوانًا، وَأَنْ يعتصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيْعًا وَلا يتفرَّقوا، ويتَّبِعوا الكتابَ والسُّنةَ، وما كَانَ عَلَيْهِ علماءُ الأمَّةِ، وأَئِمَّةِ المِلَّةِ، كمالكِ بنِ أنسٍ، والشَّافعيِّ، وسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وسُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ، وأحمدَ بنِ حنبل، وإسحاقَ بن إبْرَاهِيمَ، ويَحْيَى بن يَحْيَى، وغَيْرِهم من أَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ، وعلماءِ الدِّيْنِ، رَضِيَ اللّه عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وجمع بَيْنَنا وبينهم في ظل طوبى ومستراح العَابِدِيْنَ.

- أَوْصَى بهذا كُلِّه إِسْمَاعِيلُ بنُ عبدِالرَّحْمنِ الصَّابونيُّ إلى أولادِهِ وَأَهْلِهِ وأَصْحابِهِ ومُخْتلِفَةِ مجالِسِهِ.

- وأَوْصَى أَنَّهُ إِذَا نزلتْ بِهِ المَنِيَّةُ التي لا شكَّ أنها نازلةٌ، واللّهَ يسألُ خَيْرَ ذَلِكَ اليَوْمِ الَّذِي تنـزلُ المَنِيَّةُ بِهِ فِيهِ، وخَيْرَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ التي تنـزل

١- (المرء مع من أحب) أخرجه البخاري ومسلم.

٢- النحل: ١٢٨.

بِهِ فِيهِ، وخَيْرَ تِلْكَ الساعة، وخَيْرَ ما قَبْلَها، وخَيْرَ ما بَعْدَها، أَنْ يُلْبَسَ لباسًا طيبًّا حسنًا، طاهرًا نقيًّا، ويوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ العِمَامَةَ التي كَانَ يَشُدُّهَا فِي حالِ حَيَاتِهِ، وضْعًا عَلَى الهيئَةِ التي كَانَ يضعُهَا عَلَى رَأْسِهِ أيامَ حَيَاتِهِ، ويوضَعَ الرِّداءُ عَلَى عاتقَيْهِ، ويُضْجَعَ مُسْتلقيًا عَلَى قَفَاهُ، موجَّهًا إلى القِبْلَةِ، ويَجْلِسُ أولادُهُ عِنْدَ رأسِهِ، ويضَعُوا المَصَاحِفَ عَلَى حُجُورِهم، ويقرءوا القُرْآنَ جَهْرًا.

- وَحَرَّجَ عَلَيْهِم ألا يُمَكِّنوا امْرَأَةً لا قَرابةً بَيْنَه وبَيْنَها وَلا نَسَبَ وَلا سَبَبَ من طريقِ الزَّوجيَّةِ تَقْرُبُ من مَضْجَعِهِ تِلْكَ السَّاعةِ، أو تَدْخُلُ بيتًا يَكُوْنُ فِيهِ.
- وكذَلِكَ يُحَرِّجُ عَلَيْهِم أَنْ يأذَنوا لأحدٍ من الرِّجَالِ فِي الدُّخول عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الساعة، بَلْ يَأْمُرُونَ الأخَ والأحبابَ وغَيْرَهم أَنْ يَجْلِسُوا فِي المَدْرَسَةِ، وَلا يدخلوا الدَّارَ، وليساعدوا الأصْحَابَ فِي قراءةِ القُرْآنِ، وإمدادِهِ بالدُّعَاءِ، فلعلَّ اللّٰه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى أَنْ يهوِّنَ عَلَيْهِ سَكَرَاتِ المَوْتِ، ويُسَهِّلَ لَهُ اقتحامَ عَقَبَةِ المَوْتِ عَلَى الإسلامِ والسُّنَّةِ فِي سلامةٍ وعافيةٍ.
- وأَوْصَى إِذَا قَضَى نَحْبَهُ، وأجابَ رَبَّهُ، وفارقتْ روحُهُ جَسَدَهُ، أَنْ يُشَدَّ ذَقَنُهُ، وتُغْمَضَ عيناهُ، وتُمَدَّ أعضاؤُهُ، ويُسَجّى بثوب، وَلا يُكْشَفَ عَنْ وَجْهِهِ لِنَظَرٍ إِلَيْهِ إلا أَنْ يأتيَهُ غاسِلُهُ، فيَحْمِلَهُ إلى مُغْتَسَلِهِ، جَعَلَ اللّٰه ذَلِكَ الحِمْلَ مُبَارَكًا عَلَيْهِ، ونَظَرَ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِ، وغَفَرَ لَهُ ما قَدَّمَهُ من الأعمالِ السَّيِّئَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ.
- وأَوْصَى ألا يُنَاحَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَمْنَعَ أولياؤُهُ وأقرباؤُهُ وأحبَّاؤُهُ وجَمِيعُ النَّاسِ من الرِّجَالِ والنِّساءِ أَنْفُسَهُمْ عَن الشَّقِّ والحلْقِ والتَّخْريقِ للثِّيابِ والتَّمزيقِ، وألا يبكوا عَلَيْهِ إلا بكاءَ حُزْنِ قلبٍ، ودموعِ عَيْنٍ لا يَقْدِرُونَ عَلَى ردِّهِما ودَفْعِهِمَا، وأمَّا دعاءٌ بويلٍ ورَنُّ شيطانٍ، وخَمْشِ وُجُوهٍ، وحلْقِ

شَعْرٍ ونَتْفِه، وتَخْرِيْقِ ثوبٍ وتَمْزِيقِهِ وفَتْقِهِ فَلا، وهو بريءٌ مِمَّنْ فعلَ شيئًا من ذَلِكَ، كما بَرِىءَ النَّبِيُّ ﷺ[1].

- وأوْصَى أَنْ يُعَجَّلَ تَجْهِيْزُهُ وغَسْلُهُ وتكفينُهُ وحَمْلُهُ إلى حُفْرَتِه، وَلا يُحْبَسُ وَلا يُبَطَّأُ بِهِ، وَإنْ ماتَ ضَحْوَةَ النَّهارِ أو وَقْتَ الزَّوالِ أو بُكْرَةً فَإنَّهُ لا يؤخَّرُ تَجْهِيْزُهُ إلى الغَدِ، وَلا يُتْرَكُ مَيِّتًا بَيْنَ أَهْلِه باللَّيْلِ أَصْلاً، بَلْ يعجَّلُ أَمْرُهُ، فينقلَ إلى حُفْرَتِهِ نقلا، بَعْدَ أَنْ يُغَسَّلَ وِتْرًا، ويَجْعَلَ فِي آخِرِ غَسْلَةٍ من غَسَلاتِهِ كافورٌ [2].
- ويُكَفَّنُ فِي ثلاثةِ أثوابٍ بِيْضٍ، سَحُولِيَّةٍ، إنْ وُجِدَتْ، فإن لَم توجدْ سَحُولِيَّةٌ، كُفِّنَ فِي ثلاثةِ أثوابٍ بِيْضٍ لَيْسَ فِيهَا قميصٌ وَلا عِمَامَةٌ، ويُجَمَّرُ كَفَنُهُ وِتْرًا لا شَفْعًا قَبْلَ أَنْ يُلَفَّ عَلَيْهِ[3].
- ويُسْرَعُ بالسَّيْرِ بجنازتِه،كما أمَرَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ، ويُحْمَلُ للصَّلاةِ عَلَيْهِ إلى مَيْدَانِ الْحُسَيْنِ، ويُصَلِّيْ عَلَيْهِ وَلَدُهُ أبونصرٍ، إن كَانَ حاضِرًا، فإن عَجَزَ عَن القِيامِ بالصَّلاةِ عَلَيْهِ فأمْرُ الصَّلاةِ عَلَيْهِ إلى أَخِيْه أبي يعلى، ثُمَّ يُرَدُّ إلى المَدْرَسَةِ فيدفنَ فِيهَا، بَيْنَ يدي والِدِهِ الشَّهيدِ رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ، ويُلحدَ لَهُ لَحْدٌ، ويُنْصَبَ عَلَيْهِ اللَّبِنُ نصبًا[4].
- ولا يُشَقُّ لَهُ شِقٌّ، وَلا يتَّخَذُ لَهُ تابوتٌ أصلا، وَلا يوضعُ فِي التَّابوتِ للحَمْلِ إلى المُصَلَّى، وليوضعْ عَلَى الجنازةِ مَلْفوفًا فِي الكَفَنِ، مُسَجًّى بثوبٍ أبيضَ، لَيْسَ فِيهِ إبريسمٌ بحالٍ.

١- حديث (أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق) رواه مسلم والرَّنَّةُ: الصَّيْحَةُ الحَزِينةُ.

٢- الكافورُ: أَخْلاطٌ تجمع من الطيب.

٣- حديث: «كُفِّن رسول الله، ﷺ فِي ثلاثة أَثواب سَحُولِيَّة كُرْسُف، ليس فيها قميص ولا عمامة. السَّحُولِيَّة: يروى بفتح السين وضمها، فالفتح منسوب إلى السَّحُول وهو القَصَّار لأنه يَسْحَلُها أَي يَغْسِلُها أَو إلى سَحُول قرية باليمن، وأَما الضم فهو جمع سَحْل وهو الثوب الأَبيض النَّقِيُّ ولا يكون إِلا من قطن.

٤- اللَّحْد: الشَّقُّ الذي يكون فِي جانب القبر موضع الميت لأَنه قد أُميل عن وسَط إِلى جانبه، وقيل: الذي يُحْفر فِي عُرْضه؛ والضَّريحُ والضَّريحة: ما كان فِي وسطه.

- وَلا يُطيَّنُ قبْرُهُ، وَلا يجصَّصُ، ويُرَشُّ عَلَيْهِ الماءُ، ويوضعُ عَلَيْهِ الْحَصَا، ويُمْكَثُ عِنْدَ قَبْرِهِ مِقْدارَ ما يُنْحَرُ جَزُورٌ، ويُقَسَّمُ لَحْمُهُ حَتَّى يَعْلَمَ ما يُراجِعُ بِهِ رُسُلَ ربِّهِ جلَّ وعَلا، ويُسألُ اللّٰه تَعَالَى عَلَى رأسِ قَبْرِهِ لَهُ التَّثبيتَ الموعودَ لجملةِ الْمُؤْمنِيْنَ فِي قَوْلِه تَعَالَى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(سورة إبْرَاهِيمَ: ٢٧)[١].
- ويُسْتَغْفَرُ لَهُ ولوالديْهِ، ولجَميْعِ الْمُؤْمنِيْنَ والْمُؤْمنَاتِ والْمُسْلِمِيْنَ والْمُسْلِمَاتِ، وَلا يُنْسَى بَلْ يُذْكَرُ بالدُّعَاءِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قُبِرَ كَانَ كالغريقِ المبغوثِ ينتظرُ دعوةً صالحةً تَلْحقُه.
- ولا يُمَكَّنُ أحَدٌ من الجواري والنُّسْوَانِ أَنْ يكشِفْنَ رءوسَهُنَّ، وأَنْ يَنْدُبْنَهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، بَلْ يشتغِلُ الكلُّ بالدُّعَاءِ والاستغفارِ، لعلَّ اللّٰه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى يهوِّنُ عَلَيْهِ الأَمْرَ فِي ذَلِكَ الوقتِ، ويُيَسِّرُ خروجَ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ من قَبْرِهِ عَلَى الرِّضَا مِنْهُ، وينصرفانِ عَنْهُ وقدْ قَالا لَهُ: (نَمْ نَوْمَةَ العَرُوسِ فلا رَوْعةَ عَلَيْكَ)[٢]، ويفتحانِ فِي قَبْرِهِ بابًا من الجنَّـةِ، فَضْلا من اللّٰهِ ومنَّةً، فيفوزَ فوزًا، ويحوزَ ثوابًا كَرِيْمًا، ويلقى رَوْحًا وريحانًا وربًّا كَرِيْمًا رَحيمًا[٣].

١- إشارة لحديث ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، فَبَكَى طَويلا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ... وقال: فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي. رواه مسلم، والجَزُورُ: الناقة المَجْزُورَةُ.

٢- (نم نومة العروس...) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

٣- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ص ٢٨٥.

وَصِيَّةُ امرأة عربية لابنها وقد أَرَادَ السفر

قَالَ أبانُ بنُ تَغْلِبٍ، وكَانَ عابدًا من عُبَّادِ أَهْلِ البصرةِ: شَهِدْتُ أعرابيَّةً وهي توصي ولدًا يُرِيدُ السَّفَرَ، وهي تقولُ لَهُ[1]:

- أيْ بُنَيَّ: اجلسْ أَمْنَحْكَ وصيَّتي، وباللّه تَعَالَى توفيقُكَ، فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ أَجْدى عَلَيْكَ من كَثِيرِ عَقْلِكَ. قَالَ أبانُ: فوقفتُ مستمعًا لكلامِها، مُسْتَحْسِنًا لوَصِيَّتِهَا، فإِذَا هي تقولُ:
- أي بُنَيَّ: إيَّاكَ والنَّمِيمَةَ، فَإِنَّها تَزْرَعُ الضَّغينةَ، وتُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُحِبِّيْنَ.
- وإيَّاكَ والتعرُّضَ للعُيُوْبِ فَتُتَّخَذَ غَرَضًا[2]، وخَلِيْقٌ ألاَّ يَثْبُتَ الغَرَضُ عَلَى كَثْرَةِ السِّهامِ، وقلَّما اعتورتْ[3] السِّهامُ غَرَضًا إلا كَلَمَتْهُ[4] حتى يَهِيَ[5] ما اشتدَّ من قُوَّتِهِ.
- وإيَّاكَ والجودَ بدِيْنِكَ، والْبُخْلَ بمالِكَ.
- وإِذَا هَزَزْتَ فاهززْ كريمًا يَلِنْ لِهَزَّتِكَ، ولا تَهْزِزْ اللَّئِيْمَ، فإنَّهُ صَخْرةٌ لا يتفجَّرُ ماؤُها.
- وَمثِّلْ لِنَفْسِكَ مثالَ ما استحسنتَ من غَيْرِك فاعْمَلْ بِهِ، وما استقبحتَ من غَيْرِك فاجْتَنِبْهُ، فإنَّ الْمَرْءَ لا يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ.
- ومن كَانَتْ مودَّتُهُ بِشْرَهُ وخَالَفَ ذَلِكَ مِنْهُ فِعْلَهُ، كَانَ صَدِيقُهُ مِنْهُ عَلَى مِثْلِ الرِّيْحِ في تَصَرُّفِهَا.

١- أبان بن تغلب قاريء، لغوي، من غلاة الشيعة، من كتبه (غريب القرآن)، ولعله أول من صنف فيه، (الأعلام).

٢- غرضًا: هدفًا.

٣- اعتورت: تداولت.

٤- كلمته: جرحته.

٥- يهي: يضعف.

- ثُمَّ أَمْسَكَتْ، فدنوتُ مِنْها. فقلتُ: باللّهِ يا أعرابيَّة إلا زِدْتيه في الْوَصِيَّةِ. قَالَت: أَوَ قَدْ أَعْجَبَكَ كلامُ الأعرابِ يا عراقيُّ. قلتُ: نعم. قَالَت: والغَدْرُ أقبحُ ما تعاملَ بِهِ النَّاسُ بَيْنَهم، ومن جَمَعَ الْحِلْمَ والسَّخَاءَ فَقَدْ أجادَ الحُلَّةَ(١) رِيطتها(٢) وسِرْبَالَهَا(٣).

وصية أعرابي لابنه

أوصى أعرابي ابنه فقال:

- يا بني: اغتنمْ مسالَمَةَ من لا يَدَانِ لك بمحاربته.
- وليكن هربك من السلطان إلى الوحش في الفيافي وأطراف البلدان، حيث تأمن سعاية الساعي، وطمع الطامع منك.
- ولا تغرنك بشاشة امرئٍ حتى تعلم ما وراءها؛ فإن دفائن الناس في صدورهم، وخدعهم في وجوههم.
- ولتكن شكاتك الدهر إلى رب الدهر.
- واعلم أن اللّه إذا أراد بك خيرًا أو شرًّا أمضاه فيك على ما أحب العباد أو كرهوا.
- وأرحْ نفسك من التعب بقبول القيل والقال، فإن كلمة السوء حبة القلب، كما أن الحنطة حبة الأرض، إذا أصابها الماء نبتت، وكذلك الكلمة السوء إذا زرعت في صدرك نبتت منها الضغائن والبغضاء والعداوة(٤).

١- الحُلَّة: الثوب الجيد الجديد.

٢- ريطتها: الريطة، الملاءة كلها قطعة واحدة، والسربال: كلّ ما لُبِس.

٣- الجليس الصالح الكافي: ٢/ ٣٢٣. وانظرها في: الأمالي للقالي.

٤- بهجة المجالس وأنس المجالس: لابن عبد البر، ١/ ٢٢٨.

وَصِيَّةُ عَلْقَمَةَ بن لبيد بصحبة الرجال

قَالَ عَلْقَمَةُ بنُ لبيدٍ العُطارِديُّ لابنه مُوْصِيًا:

- يا بنيّ، إن نَزَعَتْكَ إلى صُحْبةِ الرِّجَالِ حاجةٌ، فاصْحبْ من إذَا صَحِبْتَهُ زَانَك، وإنْ خَدَمْتَهُ صَانَكَ، وإنْ عَرَكتَ بِهِ مَانَكَ[1].
- من إذَا قلتَ صَدَّقَ قَوْلَكَ، وإنْ صُلتَ سَدَّدَ صَولَك، يُزَاوِلُ عَنكَ من رَامَ ونالَكَ[2].
- من إذَا مَدَدْتَ يَدَكَ يَصِلُ مَدَّهَا. ومن إذَا بَدَرَتْ مِنْكَ ثُلْمَةٌ سَدَّها. وإنْ رَأى مِنْكَ حَسَنَةً عدَّها.
- من إنْ سألْتَهُ أعْطاكَ، وإنْ سَكَتَّ عَنْهُ ابتداكَ.
- من إذَا نَزَلَتْ بِكَ إحدى ملمَّاتِ الزَّمَانِ آسَاكَ. من لا تأتيكَ مِنْهُ البوائقُ، ولا تختلفُ عَلَيْكَ مِنْهُ الطَّرائقُ، ولا يَخْذُلُكَ عِنْدَ الحَقَائِقِ[3].
- من إذَا حاوَلْتَ حَوِيلاً أمَرَكَ[4].
- وإنْ تَنَازَعْتُمَا مُنْفِسًا آثَرَكَ (المُنْفِسُ: المالُ الذي له قدر وخَطَر)[5].

١- نازَعَتْني نفسي إلى هَواها نِزاعًا: غالَبَتْني. عَرَكتَ به: قاتلت. مانَكَ: أعطاك المؤنة؛ أي القوت.

٢- الصَّولةُ: السطوة في الحرب ونحوها؛ يقال: هو ذو صولة: أي مقدام.

٣- البائقةُ: الداهيةُ.

٤- حاولت حويلا أمرك: أعانك وأيدك فيما تحاوله؛ أو أَمرَكَ: بمعنى كثَّرك، وأيَّدك، وأمدَّك، ورفدك بمعونته. الحَوْل الحَوِيل: الحِذْقُ وجَوْدَةُ النظر والقدرةُ على دِقَّة التصرُّف.

٥- الجليس الصالح: ٢/٢٨٣.

وَصِيَّةُ الخطاب بن المُعَلَّى المخزومي لابنه

قَالَ أبو حاتم البُسْتيُّ، أخبرني مُحَمَّدُ بن المنذر بن سعيد، حدثنا أبو حاتم: مُحَمَّدُ بنُ إدريس الحنظلي، حدثني عبدُ الرَّحْمنِ بنُ أبي عَطيَّةَ الحُمْصيِّ، عَنْ الخَطَّابِ بن المُعلَّى المخزوميِّ القُرَشيِّ أَنَّهُ وَعَظَ ابنَه فقَالَ[1]:

- يا بنيّ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللّهِ وطاعته، وتَجَنُّبِ مَحارِمِه، باتِّباعِ سُنَّتِه ومعالِمِه، حَتَّى تَصِحَّ عيوبُكَ، وتَقَرَّ عينُكَ، فَإنَّها لا تَخْفَى عَلَى اللّه خَافِيَةٌ.
- وإنِّي قَدْ وَسَمْتُ لكَ وسْمًا، ووضعتُ لَكَ رَسْمًا، إنْ أنتَ حفظتَه وَوَعَيْتَهُ، وعَملتَ بِه، مَلأتَ أعْيُنَ المُلُوكِ، وانقادَ لَكَ بِهِ الصُّعْلوكُ، ولَم تَزَلْ مُرْتَجَى مُشَرَّفًا، يُحْتاجُ إلَيْكَ، ويُرْغَبُ إلى ما في يَدِيْكَ.
- فأَطِعْ أباكَ، واقْتَصِرْ عَلَى وَصِيَّةِ أبِيْكَ، وفرِّغْ لذَلِكَ ذِهْنَكَ، وأشْغِلْ بِهِ قَلْبَكَ وَلُبَّكَ.
- وإيَّاكَ وهَذَرَ الكلام، وكَثْرَةَ الضَّحِكِ والمُزاحِ، ومُهَازَلَةَ الإخْوانِ، فَإنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ البَهَاءَ، ويُوقِعُ الشَّحْناءَ[2].
- وعَلَيْكَ بالرَّزانةِ والتَّوَقُّرِ، مِنْ غَيْرِ كِبْرٍ يُوْصَفُ مِنْكَ، ولا خُيَلاءَ تُحْكى عَنكَ.
- والْقَ صَدِيقَكَ وعدوَّكَ بوجْهِ الرِّضَا، وَكَفِّ الأذَى، مِنْ غَيْرِ ذِلَّةٍ لَهُمْ ولا هَيْبَةٍ مِنْهُم.
- وكُنْ في جَمِيْعِ أُمُوْرِكَ في أوْسَطِها؛ فَإنَّ خَيْرَ الأُمُوْرِ أوْسَاطُها.
- فأقْلِلِ الكلامَ، وأفْشِ السَّلامَ، وامْشِ مُتَمَكِّنًا قَصْدًا، ولا تَخَطَّ برجْلِكَ، ولا تَسْحَبْ ذَيْلَكَ، ولا تَلْوِ عُنُقَكَ، ولا رِدَاءَكَ، ولا تَنْظُرْ في عِطْفِكَ،

١- لم أجد ترجمة للخطاب بن المعلى المخزومي صاحب هذه الوصية، ووجدت ترجمة لـ (حِطان بن المعلى) في الأعلام للزركلي، حيث ذكره دون ذكر سنة ولادته أو وفاته، وقال: هو شاعر إسلامي، اشتهر بقصيدة منها: وإنما أولادنا حولنا... أكبادنا تمشي على الأرض.

٢- رجل هَذِرٌ وهَذُرٌ وهُذَرَةٌ وهُذُرَّةٌ: ينثرُ الكلام.

ولا تُكْثِرِ الالتفاتَ، ولا تَقِفْ عَلَى الجماعاتِ، ولا تتَّخِذِ السُّوقَ مَجْلِسًا، ولا الحوانيتَ مُتَحَدَّثًا.

- ولا تُكْثِرِ المِرَاءَ، ولا تُنَازِعِ السُّفَهَاءَ.
- وإنْ تكلَّمْتَ فاخْتَصِرْ، وإنْ مَزَحْتَ فاقْتَصِرْ، وإذا جَلَسْتَ فتربَّعْ.
- وتحفَّظْ من تَشْبِيكِ أصابِعِكَ وتفقيعِها، والعَبَثِ بلِحْيَتِكَ وخاتَمِكَ، وذُؤابَةِ سَيْفِكَ[1]، وتَخْلِيلِ أَسْنَانِك، وإدْخالِ يَدِكَ في أَنْفِكَ، وَكَثْرَةِ طَرْدِ الذُّبابِ عَنْ وجْهِكَ، وكَثْرَةِ التَّثاؤبِ والتَّمَطِّي[2]، وأشباهِ ذَلِكَ، مِمَّا يَسْتَخِفُّه النَّاسُ مِنْكَ، ويَغْتَمِزُونَ بِهِ فِيْكَ.
- وليكُنْ مَجْلِسُك هَادِيًا، وحَدِيْثُكَ مَقْسُومًا.
- وأَصْغِ إلى الكلامِ الْحَسَنِ مِمَّنْ حدَّثَكَ، بغَيْرِ إظهارِ عَجَبٍ مِنْكَ، ولا مَسْأَلَةِ إعادةٍ.
- وغُضَّ عَنْ الفُكاهَاتِ من المضَاحِكِ والحِكَايَاتِ.
- ولا تَحَدَّثْ عَنْ إعْجَابِكِ بوَلَدِكَ، ولا جارِيَتِكَ، ولا عَنْ فَرَسِك، ولا عَنْ سَيْفِكَ.
- وإيَّاكَ عَنْ أحاديثِ الرُّؤيا، فَإنَّك إن أظهرتَ عَجَبًا بشيءٍ مِنْهَا طَمِعَ فِيهَا السُّفَهَاءُ، فولَّدوا لَكَ الأحلامَ واغتَمَزوا في عَقْلِكَ.
- ولا تصَنَّعْ تَصنُّعَ المَرَأةِ، ولا تَبَذَّلْ تَبَذُّلَ العَبْدِ، ولا تَهْلُبْ لِحْيَتَكَ ولا تُبَطِّنْها[3].
- وَتَوَقَّ كَثْرَةَ الحَفِّ، ونَتْفَ الشَّيْبِ، وكَثْرَةَ الكُحْلِ، والإسْرَافَ في الدُّهْنِ، وليكُنْ كُحْلُكَ غِبًّا.
- ولا تُلِحَّ في الحاجاتِ، ولا تخشعْ في الطَّلباتِ.

١- الذُؤابة: من كل شيء أعلاه.

٢- التمطي: التمطط، أي التمدد، وهو التثاؤب، من أمارات الكسل.

٣- الهلب: النيل من الشيء. وتبطين اللحية: ألا يؤخذ مما تحت الذقن والحنك (القاموس).

- ولا تُعْلِمْ أهلَكَ وَوَلَدَكَ -فَضْلا عَنْ غَيْرِهم- عَدَدِ مالِكَ، فَإِنَّهم إِنْ رَأَوْهُ قليلا هِنْتَ عَلَيْهِم، وإِن كَانَ كَثِيرًا لَمْ تَبْلُغْ بِهِ رِضَاهُم.
- وأَخِفْهُمْ فِي غَيْرِ عُنْفٍ، ولِنْ لَهُمْ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ، ولا تُهازِلْ أَمَتَكَ وعَبْدَكَ.
- وإِذَا خَاصَمْتَ فتوقَّرْ، وتحفَّظْ من جَهْلِكَ، وتَجَنَّبْ عَنْ عَجَلَتِكَ وَتَفَكَّرْ فِي حُجَّتِكَ.
- وأرِ الحاكمَ شيئًا من حِلْمِكَ، ولا تُكْثِرِ الإشارَةَ بِيَدِكَ، ولا تَحَفَّزْ عَلَى رُكبَتَيْكَ، وتَوَقَّ حُمْرَةَ الوَجْهِ، وعَرَقَ الْجَبِيْنِ.
- وإن سُفِهَ عَلَيْكَ فاحْلمْ؛ وإِذَا هَدَأَ غَضَبُكَ فتكلَّمْ.
- وأكرِمْ عِرْضَكَ، وأَلْقِ الفُضُولَ عَنكَ.
- وإن قرَّبَكَ سُلطانٌ فكُنْ مِنْهُ عَلَى حَدِّ السِّنانِ[1]، وإن استرسلَ إِلَيْكَ فلا تأمَنْ من انقلابِهِ عَلَيْكَ، وارْفُقْ بِهِ رِفْقَكَ بالصَّبِيِّ، وكلِّمْهُ بما يَشْتَهِي، ولا يَحْمِلنَّكَ ما تَرَى من إلطافِهِ إِيَّاكَ وخاصَّتِهِ بِكَ أن تدخل بَيْنَه وبَيْنَ أَحَدٍ من وَلَدِهِ وَأَهْلِهِ وحَشَمِهِ وإن كَانَ لذَلِكَ مِنْكَ كَانَ مستمعًا، وللقَولِ مِنْكَ مُطيعًا، فَإِنَّ سَقْطَةَ الدَّاخلِ بَيْنَ المَلِكِ وأَهْلِهِ صَرْعةٌ لا تُنْهَض، وزَلَّةٌ لا تُقَالُ.
- وإِذَا وَعَدْتَ فحقِّقْ، وإِذَا حدَّثْتَ فَاصْدُقْ.
- ولا تجهرْ بمنطقك كمُنازِعِ الأَصَمِّ.
- ولا تُخافتْ بِهِ كتَخافُتِ الأَخْرسِ.
- وتَخيَّرْ مَحَاسِنَ القَوْلِ بالْحَدِيثِ المقبولِ.
- وإِذَا حدَّثْتَ بسَمَاعٍ فانسبْهُ إلى أَهْلِهِ.
- وإيَّاكَ والأَحاديثَ العابرةَ الْمُشَنِّعَةَ، التي تُنْكِرُها القُلُوْبُ، وتَقِفُّ لَهَا الجلودُ[2].

١- السِّنانُ: سِنانُ الرُّمْح، أي حديدته؛ لصَقالتها ومَلاستها.

٢- قفَّ الجلد: اقشعر.

- وإيَّاكَ ومضعَّفَ الكلامِ، مِثْلَ نَعَمْ نَعَمْ، ولا لا، وعَجَل عَجَل، وما أشْبَهَ ذَلِكَ.
- وإذَا توضَّأتَ من الطَّعَام فأجِدْ عَرْكَ كفَّيْكَ، وليكُنْ وضْعُكَ الحُرُضَ من الأشنانِ في فِيْكَ، كفعلك بالسِّواكِ[1].
- ولا تَنَخَّعْ في الطَّسْتِ وليكُنْ طرحُكَ الماءَ من فِيْكَ مُتَرَسِّلا ولا تَمُجَّ فَتَنْضَحَ عَلَى أقْرَبِ جُلسائِكَ.
- ولا تَعَضَّ نِصْفَ اللُّقْمَةِ، ثُمَّ تُعِدْ ما بقيَ مِنْهَا مُنصبِغًا، فَإنَّ ذَلِكَ مكروهٌ[2].
- وَلا تُكْثِرِ الاستسقاءَ عَلَى مائدة المَلِكِ، وَلا تَعْبَثْ بالْمُشَاشِ[3].
- ولا تَعِبْ شيئًا مِمَّا يقرَّب إلَيْكَ عَلَى مائدةٍ بقِلَّةِ خَلٍّ أو تابلٍ أو عَسَلٍ، فَإنَّ السَّحابة قَدْ صَيَّرَت لِنَفْسِهَا مَهَابةً[4].
- ولا تُمسِكْ إمساكَ المثبورِ، وَلا تبذِّرْ تبذيرَ السَّفيهِ المغرورِ[5].
- واعْرِفْ في مالِكَ واجبَ الحقوقِ، وحُرْمَةَ الصَّدِيْقِ، واسْتَغْنِ عَنْ النَّاسِ يحتاجوا إلَيْكَ.
- وَاعْلَمْ أن الجَشَعَ يدعو إلى الطَبَعِ، والرَّغْبَةُ (كما قَدْ قيل) تَدُقُّ الرَّقَبَةَ[6].
- وَرُبَّ أكلةٍ تمنعُ أكلاتٍ.
- والتعفُّفُ مالٌ جسيمٌ، وخُلُقٌ كَرِيْمٌ، ومَعْرِفَةُ الرَّجُلِ قَدْرَهُ تُشَرِّفُ ذِكْرَه.

١- الحرض: غاسول يزيل الأوساخ.

٢- صَبَغَ اللقمةَ يَصْبُغُها صَبْغًا: دَهَنها وغمَسها، وكلُّ ما غُمِسَ، فقد صُبِغَ.

٣- أي: لا تحاول استقصاء ما عليه من اللحم، أو استخراج ما في العظم من المخ.

٤- ارتفعت السحابة وعلت عن أن تسمع كلام الناس فيها.

٥- المثبور: المحبوس والممنوع.

٦- الطَّبْعُ: الخَليقةُ والسَّجيّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان. وبالتحريك: الدَّنَسُ.

- ومن تعدَّى القَدَرَ هَوَى فِي بعيدِ القَعْرِ[١].
- والصِّدْقُ زينٌ والْكَذِبُ شَيْنٌ، ولَصِدْقٌ يُسْرِعُ عَطَبَ صَاحِبِهِ أَحْسَنُ عاقبةً من كَذِبٍ يَسْلَمُ عَلَيْهِ قائِلُهُ.
- ومُعَادَاةُ الحليمِ خَيْرٌ من مُصَادَقَةِ الأَحْمَقِ.
- ولُزُومُ الكَرِيْمِ عَلَى الهَوَانِ خَيْرٌ من صُحْبَةِ اللَّئِيْمِ عَلَى الإِحْسَانِ.
- ولَقُرْبُ مَلِكٍ جَوَادٍ خَيْرٌ من مُجَاوَرَةِ بَحْرٍ طَرَّادٍ.
- وزوجةُ السُّوءِ الدَّاءُ العُضَالُ. ونِكاحُ العَجوزِ يَذْهَبُ بماءِ الوَجْهِ. وَطاعَةُ النِّساءِ تُزْرِي بالعُقَلاءِ.
- تَشَبَّهْ بأَهْلِ العَقْلِ تكُنْ مِنْهُم، وتصنَّعْ للشَّرَفِ تُدْرِكْهُ.
- وَاعْلَمْ أن كُلَّ امرئٍ حَيْثُ وَضَعَ نَفْسَهُ.
- وإنَّمَا يُنْسَبُ الصَّانعُ إلى صناعتِهِ، والْمَرْءُ يُعْرَفُ بقرينِهِ.
- وإيَّاكَ وإخوانَ السُّوءِ، فَإنَّهم يخونونَ مَنْ رافَقَهُمْ، ويُحزِنونَ مَنْ صَادَقَهُم، وقُرْبُهُم أعْدَى من الجَرَبِ، ورَفْضُهُمْ من استكمالِ الأدَبِ.
- واستخفارُ الْمُسْتَجِيْرِ لُؤْمٌ، والعَجَلةُ شُؤْمٌ، وسُوْءُ التَّدْبِيْرِ وَهَنٌ[٢].
- والإخْوانُ اثنانِ: فمُحَافِظٌ عَلَيْكَ عِنْدَ البَلاءِ، وصَدِيقٌ لَكَ فِي الرَّخاءِ، فَاحْفَظْ صَدِيقَ البَلاءِ، وتَجَنَّبْ صَدِيقَ العافيةِ، فَإنَّهم أعْدَى الأَعْداءِ.
- ومن اتَّبَعَ الهوى مَالَ بِهِ إلى الرَّدَى.
- ولا يُعْجِبَنَّكَ الجَهْمُ من الرِّجَالِ، وَلا تَحْقِرْ ضئيلا كالخِلالِ[٣].
- فَإنَّما الْمَرْءُ بأصْغَرَيْهِ، قلبِهِ ولسانِهِ، وَلا ينتفعُ بأكْثَرَ من أصْغَرَيْهِ.
- وتَوَقَّ الفسادَ، وإن كُنْتَ فِي بلادِ الأعادي.

١- أي: من جاوز قدره اغترارًا وقع في الهلكة.

٢- استخفار المستجير: الغدر بذمة اللاجئ إليك.

٣- الجهم: العبوس الكالح الوجه، كبرًا على الناس. الخلال: العود تخلل به الأسنان.

- ولا تَفْرِشْ عِرْضَكَ لمن هُوَ دُوْنَكَ، وَلا تجعلْ مالَكَ أكرمَ عَلَيْكَ من عِرْضِكَ.
- ولا تُكْثِرْ من الكلامِ فَتَثْقُلَ عَلَى الأَقْوامِ.
- وامْنَحِ البِشْرَ جليسَكَ، والقبولَ من لاقاكَ.
- وإيَّاكَ وكَثْرَةَ التَّبْرِيقِ والتَّزْلِيقِ، فَإنَّ ظاهرَ ذَلِكَ يُنْسَبُ إلى التَّأنيثِ[1].
- وإيَّاكَ والتَّصَنُّعَ لمغازلةِ النِّسَاءِ، وكُنْ مُتقرِّبًا مُتعزِّزًا مُنتهزًا فِي فُرْصَتِكَ، رفيقًا فِي حاجتِكَ، مُتَثَبِّتًا فِي جملتك.
- والْبَسْ لِكُلِّ دَهْرٍ ثيابَهُ، ومع كُلِّ قوم شَكْلَهُمْ.
- واحذرْ ما يُلزِمُكَ اللائمةَ فِي آخِرَتِكَ.
- ولا تعجلْ فِي أَمْرٍ حَتَّى تَنْظُرَ فِي عاقبتِهِ، وَلا تَرِدْ حَتَّى تَرَى وَجْهَ المصدرِ.
- وعَلَيْكَ بالنُّورةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، وإيَّاكَ وحِلاقَ الإبط بالنُّورةِ[2].
- وليكُنْ السِّواكُ من طبيعتِكَ، وإذَا اسْتَكْتَ فَعَرْضًا.
- وعَلَيْكَ بالعِمارةِ، فَإنَّها أنفعُ التِّجارةِ.
- وعلاجُ الزَّرعِ خَيْرٌ من اقتناءِ الضَّرْعِ.
- ومنازَعَتُكَ اللَّئِيْمَ تُطْمِعُهُ فِيْكَ.
- ومن أكرمَ عِرْضَهُ أكْرَمَهُ النَّاسُ.
- وذَمُّ الجَاهِلِ إيَّاكَ أفضلُ من ثنائِهِ عَلَيْكَ.
- ومَعْرِفَةُ الحقِّ من أخلاقِ الصِّدْقِ.
- والرَّفيقُ الصَّالِحُ ابنُ عمٍّ.
- ومن أيْسَرَ أُكْبِرَ، ومن افْتَقَرَ احتُقِرَ.

١- التبريق: التزين. والتزليق: صبغ البدن بالأدهان ونحوها، حتى يصير كالمزلقة ملاسة ونعومة ملمس.

٢- النُورة: بضم النون، حجر الكلس، ومادة (أخلاط) كالجير تزيل الشعر.

- قصِّرْ فِي المقَالَةِ مَخافةَ الإجابةِ والسَّآمَةِ.
- والسَّاعي إلَيْكَ غالبٌ عَلَيْكَ.
- وطُوْلُ السَّفَرِ مَلالةٌ، وكَثْرَةُ المُنَى ضَلالةٌ.
- ولَيْسَ للغائبِ صَديقٌ، وَلا عَلَى المَيِّتِ شفيقٌ.
- وأَدَبُ الشَّيْخِ عناءٌ، وتأديبُ الغُلامِ شَقاءٌ.
- والفاحشُ أميْرٌ، والوَقاحُ وزيرٌ[١].
- والدِّيْنُ أزْيَنُ الأُمُوْرِ، والشَّمَاتَةُ سَفَاهَةٌ، والسَّكْرانُ شَيْطانٌ، وكلامُهُ هَذَيانٌ، والشِّعْرُ من السِّحْرِ، والتَّهَدُّدُ هُجْرٌ، والشُّحُّ شَقَاءٌ، والشَّجَاعَةُ بَقَاءٌ، والهديَّةُ من الأخْلاقِ السَّرِيَّةِ، وهي تورثُ المَحبَّةَ[٢].
- ومن ابتدأ المَعْرُوفَ صارَ دَيْنًا، ومن المَعْرُوفِ ابتداءٌ من غَيْرِ مَسْألَةٍ، وصَاحِبُ الرِّياءِ يَرْجِعُ إلى السَّخَاءِ، ولَرِيَاء بخَيْرٍ خَيْرٌ من مُعَالَنَةٍ بِشَرٍّ.
- والعِرْقُ نزَّاع، والعادةُ طبيعةٌ لازمةٌ، إن خَيْرًا فخَيْرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ.
- ومن حَلَّ عَقْدًا احتملَ حِقْدًا.
- ومُراجعةُ السُّلْطَانِ خُرْقٌ بالإنسانِ.
- والفِرارُ عَارٌ، والتَّقدُّمُ مخاطرةٌ، وأعجلُ المنفعةِ يَسَارٌ فِي دَعَةٍ.
- وكَثْرَةُ العِلَلِ من البُخْلِ، وشرُّ الرِّجَالِ كَثِيرُ الاعتلالِ[٣].
- وحُسْنُ اللِّقَاءِ يَذْهَبُ بالشَّحناءِ، ولِيْنُ الكلام من أخلاقِ الكِرام.
- يا بنيّ، إنَّ زوجةَ الرَّجُلِ سَكَنُهُ، وَلا عيش لَهُ مَعَ خلافِها؛ فإذَا هَمَمْتَ بنكاح امْرَأَةٍ فَسَلْ عَنْ أَهْلِها، فَإنَّ العُروقَ الطَّيِّبَةَ تُنْبِتُ الثِّمارَ الحُلْوَةَ، وَاعْلَمْ أنَّ النِّسَاءَ أشدُّ اختلافًا من أصابعِ الكفِّ، فَتَوَقَّ مِنْهُنَّ كلَّ ذاتِ بَذَاء، مَجْبولةٍ عَلَى الأذَى[٤].

١- الوقاح، بوزن (سحاب): الذي لا يستحي ولا يخاف.

٢- التَّهَدُّدُ والتهْديدُ والتَّهْدادُ: من الوعيد والتخويف. والهُجْرُ: الهَذيان.

٣- يعني فِي القول.

٤- ذات البذاء: السليطة اللسان. وامرأةٌ بَذيَّةٌ: بيِّنَةُ البَذاءة (البَذَاءَةُ: النُّطْقُ بِهُجْرٍ).

- فمِنْهُنَّ المُعْجَبَةُ بِنَفْسِهَا، المُزْرِيَةُ ببعْلِها[١]، إن أكرَمَها رَأَيْتَهَا (لفَضْلها عَلَيْهِ) لا تشكرُ عَلَى جميلٍ، وَلا تَرْضَى مِنْهُ بقليلٍ، لسانُها عَلَيْهِ سَيْفٌ صَقيلٌ، قَدْ كشفتْ القِحَّةُ سِتْرَ الحياءِ عَنْ وَجْهِهَا، فلا تستحي من إعوارِها، وَلا تستحي من جارِها، كلبةٌ هرَّارةٌ، مهارِشَةٌ عَقَّارَةٌ[٢].
- فوجْهُ زوجِها مَكلومٌ، وعِرْضُهُ مَشْتومٌ، وَلا تُرْعي عَلَيْهِ لدينٍ وَلا دُنيا[٣]، وَلا تحفظه لصُحْبةٍ، وَلا لكَثْرَةِ بنينٍ.
- حجابُهُ مهتوكٌ وسترُهُ منشورٌ وخَيْرُهُ مَدْفونٌ، يصبحُ كئيبًا ويُمسي عاتبًا، شرابُهُ مُرٌّ وطَعَامُهُ غَيْظٌ، وَوَلدُهُ ضَياعٌ، وبيتُهُ مستهلَكٌ، وثوبُهُ وَسِخٌ، ورأسُهُ شَعِثٌ، إنْ ضَحِكَ فواهِنٌ، وإنْ تكلَّمَ فَمُتَكارِهٌ، نَهارُهُ ليلٌ وليلُهُ نَهارٌ، تلدغُهُ مِثْلَ الحَيَّةِ العقَّارةِ، وتَلْبَسُهُ مِثْلَ العقْربِ الجرَّارةِ.
- ومِنْهُنَّ شَفْشَليقٌ شَعْشَعٌ سَلْفَعٌ، ذاتُ سُمٍّ مُنْقَعٍ، وإبراقٍ واختلاقٍ[٤] تَهُبُّ مَعَ الرِّياحِ وتَطِيْرُ مَعَ كُلِّ ذي جَناحٍ، إن قَالَ لا قَالَت نَعَمْ، وإن قَالَ نَعَمْ قَالَت لا، مُوَلِّدَةٌ لِمَخَازِيْهِ، مُحْتَقِرَةٌ لِمَا فِي يديه، تضربُ لَهُ الأمثالَ، وتقصِّرُ بِهِ دُوْنَ الرِّجَالِ، وتنقلُهُ من حالٍ إلى حالٍ، حَتَّى قَلَى بيتَهُ[٥]، ومَلَّ ولدَهُ وغَثَّ عَيْشُهُ[٦]، وهانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وحَتَّى أنكرَهُ إخوانُهُ ورَحِمَهُ جِيْرانُهُ.
- ومِنْهُنَّ الورْهاءُ الحَمْقَاءُ، ذاتُ الدَّلِّ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، الماضِغةُ للسَانِها،

١- المزرية ببعلها: العائبة لزوجها.

٢- إعوارها: القبيح من كلامها. الهرير: صوت يخرج من صدر الكلب دون نباح. المهارشة: التي تهيج للشر. العقَّارة: التي تعقر غيرها؛ أي تجرحه كما يعقر الكلب الناس أي يعضهم، قال ابن سيده: وقد غَلَبَ الكلبُ على هذا النوعِ النَّابحِ، وربما وُصِفَ به يقالُ: امرأَةٌ كَلْبَةٌ.

٣- أَرْعى عليه: أَبْقى.

٤- الشَّفْشليق: المسترخية. الشَّعْشَعُ: الظِّلُّ الذي لَم يُظِلّك كلُّه. السَّلفَعُ: الصخابة، السيئة الخلق. السمُّ المُنقّع: المذاب المهيَّأ. الإبراق: التهديد.

٥- قَلاهُ: أبغضَه وكرهه غاية الكراهة.

٦- غثَّ عيشه: صار غثًا هزيلا لا خير فيه.

الآخذةُ في غَيْرِ شأنها، قَدْ قَنِعَتْ بحبِّهِ، ورَضِيَتْ بكَسْبِهِ، تأكلُ كالحمارِ الرَّاتعِ، تنتشرُ الشَّمسِ ولَمَّا يُسْمَعُ لَهَا صوتٌ، ولم يُكْنَسْ لَهَا بَيْتُ، طعامُها بائتٌ، وإناؤها وضِرٌ، وعجينُها حامضٌ، وماؤها فاترٌ، ومتاعُها مزروعٌ، وماعونُها ممنوعٌ، وخادمُها مضروبٌ، وجارُها محروبٌ[1].

- ومِنْهُنَّ العَطوفُ الوَدودُ، المباركةُ الوَلودُ، المأمونةُ عَلَى عَيْبِها، المحبوبةُ في جيرانِها، المحمودةُ في سرِّها وإعلانِها، الكَرِيْمَةُ التَّبعُّلِ[2]، الكَثِيرَةُ التفضُّلِ، الخافضةُ صوتًا، النظيفةُ بيتًا، خادمُها مُسَمَّنٌ، وابنُها مُزَيَّنٌ، وخَيْرُها دَائمٌ وزَوْجُها ناعمٌ، مَرْمُوقةٌ، مَألوفةٌ، وبالْخَيْرَاتِ وَالعَفافِ مَوْصُوفةٌ.
- جَعَلَكَ اللّهُ يا بُنَيَّ مِمَّنْ يقتدي بالهدى ويأتم بالتقى، ويجتنَّبُ السُّخْطَ ويُحِبُّ الرِّضَا.
- واللّه خليفتي عَلَيْكَ، والمتولِّي لأمرِكَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيم، وصَلَّى اللّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الهدى، وعلى آله وسلم تسليمًا كَثِيرًا[3].

١- وَرْهَاءُ: حَمْقاءُ، قليلةُ الحياءِ، وفي الحديث «لا تسترضعوا الورهاء»، رواه الطبراني في الصغير. الوَضِر: الذي فيه وسخ الدسم واللبن ونحوه. مزروع: مطروح.

٢- التبعل: رعاية البعل والتودد له.

٣- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: لأبي حاتم البستي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ، مكتبة السنة المحمدية، تحقيق محمد حامد الفقي.

وَصِيَّةُ عبد المَلِكِ بن صالح العباسي لابنه

عبدُ الملك بنُ صالحِ بنِ عليٍّ بن عبدِ الله بن عبَّاسٍ (ت: ١٩٦ هـ) أمِيْرٌ من بني العَبَّاسِ، ولاهُ الهادي إمرةَ الموصلِ وعزَلَهُ الرَّشيدُ، وولاه مصرَ مدَّةً قصيرةً، فلم يذهبْ إِلَيْهَا، وولاهُ دمشقَ فأقامَ فِيهَا أقلَّ من سنةٍ. كَانَ من أفَصَحِ النَّاسِ وأخْطبِهم، لَهُ مَهَابةٌ وجَلالةٌ، قال ابن خلكان: وكانت منبج إقطاعًا له وكان مقيمًا بها[1].

أوْصَى عبدُ الملك بنُ صالحٍ ابنًا لَهُ فقَالَ:

- أيْ بُنَيَّ: احلم؛ فإنّ مَن حَلُمَ سَادَ، ومن تفهَّم ازْدادَ.
- والْقَ أَهْلَ الْخَيْرِ؛ فإنّ لقاءَهم عِمَارةٌ للقُلوبِ.
- ولا تجمَحْ بِكَ مَطِيّة اللَّجاجِ.
- ومَنَّكَ مَن أعتبك[2].
- والصَّاحبُ مُناسِبٌ (أي بمنزلة النسيب).
- والصَّبْرُ عَلَى المَكروهِ يَعْصِمُ القَلْبَ.
- المُزَاحُ يُورِثُ الضَّغائنَ.
- وحُسْنُ التَّدْبِيْرِ مَعَ الكَفاف خَيْرٌ من الكَثِيرِ مَعَ الإسْرَافِ.
- والاقتصادُ يثمِّرُ القَليْلِ، والإسْرَافُ يُتَبِّرُ الكَثِيرَ (يُتَبِّرُ: يُهْلكُ).
- وَنعِمَ الحظُّ القناعةُ.
- وشرُّ ما صحِبَ المَرْءَ الحَسَدُ.

١- وفيات الأعيان: لابن خلكان.

٢- مَنَّكَ مَن أعتبك: أي أحسن إليك من فعل ما يسرك، مَنَّ عليه: أَحسن وأَنعم، وأَعْتَبَه: أَعْطاه العُتْبَى ورَجع إِلى مَسَرَّته.
ومَنَّكَ مَن أعتبك: أي قطعَكَ من وجدَ عليك؛ مَنَّهُ: قطعه. والعَتْبُ: المَوْجِدَةُ.

- وما كلُّ عَورةٍ تُصابُ.
- وربَّما أقْصَرَ العَمِيُّ رُشْدَه، وأخْطأ البصيرُ قَصْدَه[1].
- واليأسُ خَيْرٌ من الطَّلبِ إلى النَّاسِ.
- والعِفّةُ مَعَ الحِرفةِ خَيْرٌ من الغِنَى مَعَ الفُجُورِ.
- ارفقْ في الطَّلبِ، وأجْمَلْ في المكسبِ؛ فَإنَّهُ ربَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إلى حَرَبٍ[2].
- لَيْسَ كلُّ طالبٍ بمُنْجِح، وَلا كلُّ مُلحٍّ بِمُحتَاجٍ[3].
- والمغبونُ من غُبِنَ نصيبَه من اللّه.
- عاتِبْ مَن رجوتَ عُتباهُ، وفاكِهْ مَن أمِنْتَ بَلوَاهُ.
- لا تكُنْ مِضْحاكًا من غَيْرِ عَجَبٍ، وَلا مشّاءً إلى غَيْرِ أرَبٍ.
- ومَن نأى عَنْ الحقِّ ضاقَ مَذهبُهُ، ومن اقتصرَ عَلَى حالِهِ كَانَ أنعمَ لبالِهِ.
- لا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلمُ مَن ظَلَمَكَ؛ فَإنَّهُ إنَّما سَعَى في مَضرّتِهِ ونَفْعِكَ.
- وعوِّدْ نَفْسَكَ السَّماحَ، وتخيَّرْ لَهَا مِن كُلِّ خلُقٍ أحْسنَهُ، فإنّ الْخَيْرَ عادةٌ، والشّرَّ لجاجةٌ، والصُّدودَ آيةُ المقتِ، والتعلُّلَ آيةُ الْبُخْلِ.
- ومن الفِقْهِ كِتمان السِّرِّ.
- ولِقاحُ الْمَعْرِفَةِ دراسةُ الْعِلْم، وطولُ التّجاربِ زيادةٌ في العَقْلِ، والقناعةُ راحةُ الأبدان، والشَّرَف التَّقوى.
- البلاغةُ معرفةُ رتْقِ الكلامِ وَفَتْقِهِ، بالعَقْلِ تُستخرَجُ الْحِكْمَةِ، وبالحِلْمِ يُستخرجُ غَوْرُ العقولِ.

١- العَمْيَاءُ والعَمَايَة والعُميَّة والعَميَّة، كلُّه: الغَوايةُ واللَّجاجة في الباطل.

٢- الحَرَب بالتحريك: أَن يُسْلَبَ الرجل ماله.

٣- أَنْجَحْتُ حاجَته: إِذا قضيتها له.

- ومن شمَّرَ في الأُمُوْرِ ركبَ البُحورَ.
- وشرُّ القَوْلِ ما نقضَ بعضُه بعضًا.
- من سَعَى بالنَّمِيْمَةِ حَذِرَهُ البعيدُ، ومقَتَهُ القريبُ.
- مَن أطالَ النّظرَ بإرادةٍ تامّةٍ أدركَ الغايةَ، ومن توانى في نَفْسِهِ ضاعَ، مَن أسرفَ في الأُمُوْرِ انتشَرت عَلَيْهِ، ومن اقتصَدَ اجتمعت لَهُ، واللَّجاجة تورِثُ الضَّياعَ للأُمُوْرِ.
- غِبُّ الأدَبِ أحْمَدُ من ابتدائه، مبادرةُ الفهم تورِثُ النِّسيانَ، سوءُ الاستماع يُعقِب العِيّ.
- لا تحدِّثْ مَن لا يُقْبِلُ بوَجْهِهِ عَلَيْكَ، وَلا تنصِتْ لمن لا ينمِي بحديثِهِ إلَيْكَ.
- البَلادةُ في الرَّجلِ هُجْنَةٌ.
- قَلَّ مالِكٌ إلاّ اسْتَأثَرَ، وقلَّ عاجِزٌ إلاّ تأخَّرَ.
- الإحجامُ عَنْ الأُمُوْرِ يُورِثُ العَجْزَ، والإقدامُ عَلَيْهَا يُورِثُ اجتلابَ الحظّ.
- سُوءُ الطُّعْمَةِ يُفْسدُ العِرْضَ، ويُخْلِقُ الوَجْهَ، ويَمحَقُ الدِّيْنَ.
- الهَيْبَةُ قَرِيْنُ الحرمانِ، والجَسَارةُ قَرِيْنُ الظّفَرِ.
- ومَنُّكَ مَن أنصفَكَ، وأخوكَ مَن عاتبكَ، وشريكُك مَن أوْفَى لك، وصَفِيُّك مَن آثرَكَ[1].
- أعدى الاعتِداءِ العُقوقُ.
- اتِّباعُ الشَّهْوَةِ يُورِثُ النّدامة، وفَوتُ الفُرصَةِ يُورِثُ الحَسْرَةَ.
- جَمِيْعُ أركانِ الأدَبِ التأتِّي للرِّفقِ.
- أكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دنِيَّة وإن ساقتْكَ إلى الرَّغائِبِ؛ فَإنَّكَ لن تجدَ بما تَبذُل من دِيْنِكَ ونَفْسِكَ عوضًا.

١- مَنُّكَ مَن أنصفك: أي أحسن إليك من أنصفك.

- لا تُسَاعِدِ النِّسَاءَ فيَمْلَلْنَكَ، واسْتَبْقِ من نَفْسِكَ بقيَّةً؛ فَإِنَّهُنَّ إن يَرَيْنَكَ ذا اقتدارٍ خَيْرٌ من أنْ يطّلِعْنَ مِنْكَ عَلَى انكسارٍ.
- لا تُملِّكِ المَرأَةَ الشَّفَاعَةَ لِغَيْرِها، فيميلَ من شَفَعَتْ لَهُ عَلَيْكَ مَعَها.
- أيْ بُنَيَّ: إني قَدْ اخترتُ لَكَ الْوَصِيَّةَ، ومَحَّضْتُكَ النَّصِيْحَةَ، وأدَّيتُ الحقَّ إلى الله في تأديْبِكَ، فلا تُغفِلَنَّ الأخذَ بأحسنِها، والْعَمَلَ بها، والله موفّقُكَ[1].

١- البيان والتبيين: للجاحظ (٩٣/٤)، طبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٨، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

وَصِيَّةُ الْحَسَنِ بن أحمد العطار

كان كثير الحفظ للعلوم، كثير المجاهدة في تحصيلها. وكان الحافظ أبو القاسم إسماعيل بن محمد ابن الفضل الجوزي رحمه الله يملي يومًا في الجامع بأصفهان وعنده جماعة من المحدثين، إذ دخل الشيخ الحافظ أبو العلاء رحمه الله من باب الجامع، فلما نظر الحافظ أبو القاسم إليه أمسك عن الإملاء، ونظر إلى أصحابه وقال: أيها القوم، إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، وهذا الرجل المقبل من جملتهم، قوموا نسلم عليه، فقاموا واستقبلوه، وسلموا عليه واعتنقوه.

قَالَ ياقوتُ الْحَمَوِيُّ: حدَّثني من شَهِدَ قبضَ روحِ الشَّيخِ فقَالَ: كُنَّا قعودًا في ذَلِكَ الوَقْتِ، وكُنَّا نُحبُّ أن نلقِّنَهُ كلمةَ الشَّهادةِ رعايةً للسُّنَّةِ، ومع هَذا كُنَّا نَخْشَى من هيبتِهِ، ونَحْذرُ سُوءَ الأَدَبِ، فبقينا مُتحيِّرينَ حَتَّى قلنا لرَجُلٍ من أصْحَابِ الشَّيْخِ: اقرأ أَنتَ سورةَ يس، فرفع الرَّجلُ صوتَه يقرأ السُّورةَ، وكُنَّا ننظر إِلَيْهِ ونراقب حاله، فدهش القارئ وأخطأ في القراءة، ففتح الشَّيْخُ عينه وردَّ عَلَيْهِ، فسررنا لذَلِكَ وحمدنا الله عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ جئ إِلَيْهِ بقدح فِيهِ شيء من الدَّوَاءِ، ووضعَ القدحَ عَلَى شفته، فولَّى وَجْهَهُ وَرَدَّ القدح بفيه، وفتحَ عينَهُ وقَالَ: لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رسولُ الله، رافعًا بِهَا صوتَهُ، وفاضتْ نَفْسُهُ.

نص الوصية:

- بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم، هَذا ما أَوْصَى بِهِ الْحَسَنُ بنُ أحمدَ بنِ الْحَسَنِ بنِ أحمدَ بنِ مُحَمَّدٍ العطارِ طوعًا، في صِحَّةِ عقلِهِ وبدنِهِ، وجوازِ أَمْرِهِ.

- أَوْصَى وهو يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً ولا وَلَدًا، وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ،

ويَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

- ويَشْهَدُ أنَّ الجنَّةَ حَقٌّ، والنَّارَ حَقٌّ، والبعثَ حَقٌّ، وَأنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأنَّ اللّه يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ. وأنَّه جلَّ وعزَّ جامعُ الأوَّلِينَ والآخِرِيْنَ لميقات يَوْمٍ معلومٍ فِي صَعيدٍ واحدٍ، يَسْمَعُهم الدَّاعي، وينفذُهُمُ البصرُ.
- ويَشْهَدُ أنَّ صلاتَهُ ونُسُكَهُ ومَحْياهُ ومَماتَه للّه ربِّ الْعَالَمِينَ لا شريكَ له، وبذَلِكَ أمِرَ وهو من الْمُسْلِمِيْنَ.
- وأنه رَضِيَ باللّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمُحَمَّدٍ ﷺ نبيًّا، وبالقرآنِ إمامًا، وبالْمُؤْمِنِيْنَ إخوانًا.
- وأنه يدينُ للّه عَزَّ وَجَلَّ بمذهبِ أصْحَابِ الْحَدِيثِ، ويتضرَّعُ إلى اللّه عَزَّ وَجَلَّ، ويتوسَّلُ إِلَيْهِ بجَمِيْعِ كتبِهِ الْمُنَزَّلَةِ، وأسمائِهِ الْحُسْنَى، وكلماتِهِ التَّامَّاتِ، وجميع ملائكتِهِ الْمُقَرَّبِينَ، وأنبيائِهِ الْمُرْسَلِيْنَ، أن يحيِيَهُ عَلَى ذَلِكَ حيًّا، ويميتَهُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا توفَّاهُ، وَأنْ يَبْعَثَهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّيْنِ.
- وأوْصَى نَفْسَهُ وخاصَّتَهُ وقرابتَهُ، ومن سَمِعَ وَصِيَّتَهُ بتَقْوَى اللّهِ، وَأنْ يَعْبُدُوْهُ فِي العَابِدِيْنَ، ويَحْمَدُوهُ فِي الحامِدِيْنَ، ويذكُروهُ فِي الذَّاكِرِيْنَ، وَلا يَمُوتُنَّ إلا وهم مُسْلِمُونَ.
- وأوْصَى إلى الشَّيْخِ أبي مسعودٍ إِسْمَاعِيلِ بنِ أبي القاسم الخازنِ فِي جَمِيْعِ تَرِكَتِهِ، وما يُخَلِّفُهُ بَعْدَهَ، وفِي قَضَاءِ دُيُونِهِ، واقتضاءِ دُيُونِهِ وإنفاذِ وَصَايَاهُ، وذَكَرَهُ فِي ذَلِكَ بتَقْوَى اللّهِ وإيثارِ طاعتِهِ، وحذَّرهُ أن يبدِّلَ شيئًا من ذَلِكَ أو يغيِّره، وقد قَالَ اللّه تَعالَى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ (البقرة: ١٨١)[١].

١- قال ياقوتُ: هذه وَصِيَّتُهُ نقلتها من خطِّهِ (معجم الأدباء:٨/٨٤).

الْوَصِيَّةُ المسكاوية

ابن مسكويه (ت: ٤٢١ هـ) أبو علي، أحمد بن محمد بن يعقوب، مؤرخ، أصله من الريِّ وسكن أصفهان. قال الثعالبي: في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر، وكان في ريعان شبابه متصلاً بابن العميد مختصًا به، ثم تنقلت به أحوال جليلة في خدمة بني بويه والاختصاص ببهاء الدولة وعظم شأنه وارتفع مقداره عن خدمة الصاحب ولم يرَ نفسه دونه. ولم يَخْلُ من نوائب الدهر، وله قصيدة في عميد الملك شكا فيها سوء الهرم وبلوغه إلى أرذل العمر، وكان ابن العميد اتخذه خازنًا لكتبه[1].

وهَذِهِ وصيَّةُ أحمدَ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ يَعْقُوبَ أبي عليٍّ، الملقَّبِ (مَسْكَوَيْه) قَالَ:

- هذا ما عَاهدَ عَلَيْهِ أحمدُ بن مُحَمَّد، وهو يَوْمَئذ آمِنٌ في سِرْبِهِ مُعَافًى في جِسْمِهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، لا تَدْعُهُ إلى هَذِهِ المُعَاهدةِ ضَرورةُ نَفْسٍ وَلا بَدَنٍ، وَلا يُرِيْدُ بِها مُرَاءاةَ مَخْلُوقٍ، وَلا استجلابَ مَنْفَعَةٍ، وَلا دَفْعَ مَضَرَّةٍ مِنْهُم.
- عاهَدَه عَلَى أنْ يُجاهِدَ نَفْسَهُ، ويَتَفَقَّدَ أمْرَهُ، فَيَعِفَّ ويشْجُعَ ويُحْكِمَ.
- وعَلامَةُ عفَّتِهِ: أنْ يَقْتَصِدَ في مآرِبِ بَدَنِهِ، حَتَّى لا يَحْمِلَهُ الشَّرَهُ عَلَى ما يَضُرُّ جِسْمَهُ، أو يَهْتِكُ مُرُوءتَهُ[2].
- وعَلامَةُ شجاعتِهِ: أن يُحارِبَ دَوَاعِيَ نَفْسِهِ الذَّمِيْمَةِ، حَتَّى لا تَقْهَرَهُ شَهْوَةٌ قَبِيْحَةٌ، وَلا غَضَبٌ في غَيْرِ مَوْضِعِه.
- وعَلامَةُ حِكْمَتِهِ: أنْ يَسْتَبْصِرَ في اعتقاداتِه، حَتَّى لايفُوتَهُ بقَدْرِ طاقتِهِ شيءٌ من العُلُوْمِ والمَعَارِفِ الصَّالِحَةِ، ليُصْلِحَ أوّلا نَفْسَهُ ويُهَذِّبَها ويَحْصُلَ لَهُ من هَذِهِ المُجَاهَدَةِ ثَمَرَاتُها، التي هي العَدالةُ، وعلى أنْ يَتَمسَّكَ بِهَذِهِ التَّذْكِرَةِ، ويجتهدَ في القيامِ بِهَا، والْعَمَلِ بِمُوجِبِهَا، وهي خَمْسَةَ عَشْرَةَ بابًا.

١- الوافي بالوفيات: الصفدي.

٢- الشَّرَهُ: أَسْوَأُ الحِرْصِ، وهو غلبة الحِرْصِ.

- إيثارُ الحقِّ عَلَى الباطلِ في الاعتقاداتِ.
- والصِّدْقِ عَلَى الكَذِبِ في الأقوالِ.
- والخَيْرِ عَلَى الشَّرِّ في الأفعالِ.
- وكَثْرَةُ الجهادِ الدَّائمِ لأجلِ الحَرْبِ الدَّائمِ بَيْنَ المَرْءِ ونَفْسِه، والتَّمَسُّكِ بالشَّريعةِ، ولزُوْمُ وظَائفِهَا، وحِفْظُ المواعيدِ حَتَّى يُنْجِزَهَا، وأوَّلُ ذَلكَ ما بَيْنَه وبَيْنَ اللهِ جَلَّ وعَزَّ.
- وقلَّةُ الثِّقَةِ بالنَّاسِ بتَرْكِ الاسْتِرْسَالِ[1].
- ومَحَبَّةُ الجميلِ؛ لأنَّهُ جَميلٌ لا لِغَيْرِ ذَلكَ.
- والصَّمتُ في أوقاتِ حَرَكاتِ النَّفْسِ للكلامِ، حَتَّى يستشارَ فِيهِ العَقْلُ.
- وحِفْظُ الحالِ التي تَحْصُلُ في شيءٍ حَتَّى تَصِيْرَ مَلَكَةً، وَلا تَفْسُدَ بالاسْتِرْسَالِ[2].
- والإقدامُ عَلَى كُلِّ ما كَانَ صَوابًا.
- والإشفاقُ عَلَى الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ العُمْرُ ليُسْتَعْمَلَ في المُهِمِّ دُوْنَ غَيْرِهِ.
- وتَرْكُ الخوفِ من المَوْتِ والفَقْرِ لعَمَلِ ما يَنْبَغِي.
- وتَرْكُ التَّواني، وتركُ الاكتراثِ لأقوالِ أَهْلِ الشَّرِّ والحَسَدِ؛ لئلا يَشْتَغِلَ بمقاتلتِهِمْ وتَرْكُ الانفعالِ لهم.
- وحُسْنُ احتمالِ الغِنَى والفَقْرِ، والكرامةِ والهوانِ بجهةٍ وجهةٍ.
- وذكرُ المَرَضِ وَقْتَ الصِّحَّةِ، والهمِّ وقتَ السُّرُوْرِ، والرِّضا عِنْدَ الغَضَبِ، لِيَقِلَّ الطَّغْيُ والبَغْيُ.
- وقُوَّةُ الأمَلِ، وحُسْنُ الرَّجاءِ، والثِّقَةُ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وصَرْفُ جَمِيْعِ البالِ إِلَيْهِ[3].

١- الاسترسالُ: الاستئناس والطمأْنينة إلى الإنسان والثِّقةُ به فيما يُحَدِّثه، وأَصله السكون والثبات.

٢- مَلَكَ الشيءَ: احتواه وقدر على الاستبداد به.

٣- معجم الأدباء: ٥/٥.

وَصِيَّةٌ للمعتني بإصلاح أخلاقه

قال ابن أبي الربيع: ومِمَّا يَجِبُ عَلَى المعتني بإصلاحِ أخلاقِهِ، والمُحِبِّ لكمَالِ ذاتِهِ، مُرَاعَاةُ هَذِهِ الأُمُوْرِ:

- أنْ يغتنمَ الْحَيَاةَ التي بِهَا فارقَ الأمواتَ والجمادَ، فيصرفَ زمانَهَ فِي المُهِمِّ دُوْنَ غَيْرِه.
- وَأنْ يَكُوْنَ مُتَفَقِّدًا لجَمِيْعِ أحْوَالِهِ وأخلاقِهِ، متيقِّظًا لسائرِ أحْوَالِهِ، مُنْتَقِصًا لِمَذْمُومِ العاداتِ.
- وأن يحترزَ من دُخُوْلِ النَّقْصِ عَلَيْهِ، وليجتهدْ فِي بلوغِهِ غايةَ الكمالِ.
- وأن يَكُوْنَ أبدًا عاشقًا لصورةِ الكمالِ، مُسْتَلِذًّا مَحَاسِنَ الأخْلاقِ ومحمودَها.
- وأن يَعْتَنِيَ بتهذيبِ نَفْسِهِ، فلا يستكثرُ ما يقتنيهِ من الفَضَائِلِ والعُلُوْمِ النَّافعَةِ.
- وأن يَكُوْنَ مُسْتَصْغِرًا للرُّتبة العُليا، طالبًا غايتَها بِجُهْدِهِ، جاعلا غَرَضَهُ الإحاطةَ بها.
- وأن لا يقفَ عِنْدَ غايةٍ من الْعِلْمِ إلا ويُومِئُ بطَرْفِهِ إلى ما فَوْقَها، ليزدادَ بصيرةً.
- وأن يأخذَ نَفْسَهُ بأوامرِ اللهِ ورسولِهِ وأولي الأمْرِ من بعدِهِ، ليؤدِّبَها بآدابِهم.
- وأن يسدِّدَ طَرَفًا من عِلْمِ اللِّسَانِ، ويَعْتَنِيَ بالبلاغةِ والفَصَاحَةِ وَالْكِتَابَةِ والدَّرْسِ.
- وأن يَجْعَلَ لشهواتِهِ قانونًا راتبًا، يَقْصِدُ فِيهِ الاعتدالَ، ويَتَجَنَّبُ الإسْرَافَ.

- وأن يقْمَعَ أبدًا سَوْرَةَ القُوَّتَيْنِ (الغَضَبِيَّةِ والشَّهْوانِيَّةِ) ويستعملُ قُوَّةَ العَقْلِ عَلَيْهَا[1].
- وأن يَتَجَنَّبَ مُخاطبةَ النِّسَاءِ والصِّبْيَانِ والْعَامَّةِ والسُّفَهَاءِ، ويُلازِمَ الصَّمْتَ عَمَّا لا يَنْبَغِي.
- وَأنْ يجتنَّبَ أيضًا مُحاكاةَ الغَيْرِ بالكلامِ واستعمالِ السَّفَهِ بالألفاظِ القَبِيْحَةِ، ويتركَ الحلفَ.
- وَأنْ يَكُوْنَ سَهْلَ اللِّقَاءِ والبِشْرِ والتَّسْليمِ سابقًا بِهِ بعيدًا من الأَشْرارِ مستعملَ القَصْدِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ[2].

فَإنَّ الإنسان إذا راعى هَذِهِ الأحوالَ وسَلَكَ سبيلَها صارَ مُحَبَّبًا إلى النَّاسِ مقبولَ القولِ مُعَظّمًا عِنْدَهم مُوَقّرًا عِنْدَ الرُّؤساءِ والأدباءِ، قويَّ النَّفْسِ عَلَى الفِعْلِ الجميلِ، قادرًا عَلَى اطّراح الفِعْلِ المرذولِ، وغلبَ عَلَيْهِ الصَّلاحُ، ولَحِقَ رُتْبَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فصارتْ الفَضَائِلُ لديْهِ دَيْدَناً، وأصبحَ مُكْرَمًا عِنْدَ اللّه تَعَالَى.

١- السَّوْرَةُ: شِدَّةُ وحِدَّةُ وهياجُ الشَّهوة.

٢- سلوك المالك في تدبير الممالك: لابن أبي الربيع (أحمد بن محمد) تحقيق د. ناجي التكريتي، دار الشئون الثقافية بغداد، ١٩٨٧.

وصية ابن المقفع بحقوق الصحُّبةِ وآدابها

- قال ابن المقفع موصياً: انظر مَنْ صاحبتَ من الناسِ: من ذي فضلٍ عليكَ بسلطانٍ أو منزلةٍ، أو من دونَ ذلك من الأكفاء والخُلطاء والإخوانِ، فوطِّن نفسكَ في صُحبتهِ على أن تقبل منهُ العفوَ ، وتسخو نفسكَ عما اعتاص عليكَ مما قبلهُ، غير مُعاتبٍ ولا مستبطئ ولا مستزيدٍ؛ فإن المُعاتبةَ مقطعةٌ للودّ، وإن الاستزادة من الجشعِ، وإن الرضا بالعفوِ والمُسامحةِ في الخلقِ مقربٌ لكَ كل ما تشوَّقُ إليهِ نفسكَ مع بقاء المودةِ والمروءةِ.
- واعلم أنكَ ستبلى من أقوامٍ بسفهٍ، وأن سفهَ السفيهِ سيُطلعُ لهُ منكَ حقدًا، فإن عارضتهُ أو كافأْتهُ بالسفهِ فكأنكَ قد رضيتَ ما أتى بهِ، فأحببتَ أن تحتذي على مثالهِ؛ فإن كانَ ذلك عندكَ مذمومًا فحققْ ذمَّكَ إياهُ بتركِ معارضتهِ، فأما أن تذمهُ وتمتثلهُ فليس في ذلك لك سدادٌ.
- لا تصاحبن أحدًا، وإن استأنستَ بهِ أخًا ذا قرابةٍ أو أخًا ذا مودةٍ، ولا والدًا ولا ولدًا إلا بمروءةٍ، فإنّ كثيرًا من أهلِ المروءةِ قد يحملهمُ الاسترسالُ والتبذلُ على أن يصحبوا كثيرًا من الخلطاء بالإدلالِ والتهاونِ والتبذلِ.
- ومن فقدَ من صاحبهِ صحبةَ المروءةِ ووقارها وجلالها أحدثَ ذلكَ لهُ في قلبهِ رقةَ شأنٍ وسخفَ منزلةٍ.
- ولا تلتمس غلبةَ صاحبكَ والظفر عليه عند كل كلمةٍ ورأي، ولا تجترئن على تقريعهِ بظفركَ إذا استبانَ، وحُجتكَ عليه إذا وَضُحت.
- فإن أقوامًا قد يحملهم حبُّ الغلبةِ وسفهُ الرأي في ذلكَ على أن يتعقبوا الكلمةَ بعدما تنسى، فيلتمسوا فيها الحجةَ، ثم يستطيلوا بها على الأصحابِ؛ وذلكَ ضعفٌ في العقلِ ولؤمٌ في الأخلاقِ[1].

١- الأدب الكبير والأدب الصغير لأبي محمد، عبد الله بن المقفع (ت: ١٤٢هـ).

وصية «الزمخشري» مقامة الارعواء

- قال الزمخشري موصيا نفسه :
- يا أبا القاسم، شَهوتُكَ يقظَى فأنِمها، وشبابكَ فرصةٌ فاغتنْمها.
- قبل أن تقولَ: قد شابَ القذالُ، وسكتَ العُذّالُ[١].
- أكففْ قليلا منْ غربِ شطارتكَ، وانتهِ عنْ بعضِ شرارتكَ[٢].
- حينَ عيدانُ نشاطَكَ تخفق، وألسنةُ عذّالكَ تنطقْ، وعيونُ الغواني، إليكَ رواني، وعوُدكَ ريّانٌ، وظِلكَ فينان، وخطية قدّكَ عسّالة، وفي عمر قوَّتكَ بسالة[٣].
- ثمَّ إياكَ أن تنـزلَ على طاعةِ هواكَ في الاستنامةِ إلى الشيطانِ وخطراتهِ، والرُّكونِ إلى اتباعِ خطواتهِ؛ فإنَّ منْ تسويلاتهِ لك، وتخييلاته إليك، أنْ لاتَ حين ارعواءٍ، وأينَ عنكَ زمانُ الانتهاء[٤].
- على رسْلِكَ حتى ينحنيَ غصنُ القامة، ويبرُقَ ضلعُ الهامة، وترى التنومةَ ثغامة[٥].
- فأمّا وَمَيْعَةُ الشبيبةِ معكَ، فإن صاحَ بكَ واعظٌ فلا أسمعكَ.
- هذهِ حبائلهُ ومصايدهُ، وحيلهُ ومكايدهُ.
- والعجبُ من نفسكَ أنها تستلذ الوقوعُ فيها، وإنْ لم ترْجُ الخلاصَ منها[٦].

١- القَذالُ: مؤخر الرأس فوق فأس القفا.

٢- الغَرْبُ: الحدّة.

٣- العسّالة: خلية النحل.

٤- الإرْعواء: الإقلاع عن الجهل.

٥- التَّنُّومَةُ هي من نبات الأرض فيه سوادٌ، وفيه ثَمَرٌ يأكله النعام وجمعها تَنُّومٌ. ثَغامة وهي شجرة بيضاء الزهر والثمر كأن جماعتها هامة شيخ.

٦- شرح مقامات الزمخشري، تحقيق د. يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني. الزَّمخشريّ (ت ٥٣٨ هـ) أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، المعتزلي، جار الله، لقب بذلك لأنه جاور بمكة زمنًا، الإمام الكبير في التفسير، والحديث، والنحو، واللغة، وعلم البيان، ويقصد بأبي القاسم نفسه، حيث إنه أنشأ هذه المقامات. كما ذكر في المقدمة بسبب رؤيا رآها في بعض إغفاءاته، رأى فيها من يقول له: يا أبا القاسم إن الدنيا أجل مكتوب وأمل مكذوب، فكتب هذه المقامات، يذكّر ويوصي ويعظ نفسه.



الفصل الثالث

وصايا خاصة بالتربية والتعليم وطلب العلم الشرعي

تعريف العلم

العِلْمُ لُغَةً: نقيضُ الجهلِ، ورجُلٌ عالِمٌ وعَلِيمٌ من قومٍ عُلماءَ.

قال الرّاغب: وعلّمته وأعلمته في الأصل واحد، إلا أنّ الإعلام اختصّ بما كان بإخبار صحيح، والتّعليم اختصّ بما يكون بتكرير وتكثير حتّى يحدث منه أثر في نفس المتعلّم[1].

وقال الفيروز أباديّ: العلم ضربان: الأوّل: إدراك ذات الشّيء. والثّاني: الحكم على الشّيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه، فالأوّل يتعدّى إلى مفعول واحد، والآخر يتعدّى إلى مفعولين، والعلم من وجه آخر ضربان: نظريّ وعمليّ، ومن وجه ثالث: عقليّ وسمعيّ[2].

وقال الجرجانيّ: «العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[3].

واختلفَ العلماءُ المعاصرونَ في تعريفِ العلم؛ فقيل: «هُوَ اجتماعُ طائفةٍ كبيرةٍ من الوقائعِ المتشابهةِ؛ بحيث تنشأ عَنْ اجتماعِها وَحدةٌ عامَّة عَلَى هيئة مبدأ أو قانونٍ يمكننا عَلَى وجهِ اليقينِ من التَّنَبُّؤِ بحدوثِ وقائعَ مشابهةٍ للوقائعِ المذكورةِ في ظروف معينة».

وقيل: «هُوَ المعرفةُ المنظَّمةُ المبوَّبَةُ المجرَّدةُ عَنْ هوى النَّفسِ، وشرطُهُ أن يكونَ محكومًا بمبادئَ ثلاثةٍ؛ هي: التَّصنيفُ، والتَّبويبُ، والتَّقنينُ».

والفرق بين العلم والمعرفة: أن المعرفة: تقال للإدراك المسبوق بالعدم، والعلم: يقال لحصول صورة الشّيء عند العقل، وللاعتقاد الجازم المطابق الثّابت، ولإدراك الكلّيّ، ولإدراك المركّب[4].

١- المفردات: للراغب.

٢- بصائر ذوي التمييز: للفيروزأبادي.

٣- التعريفات: للجرجاني (علي بن محمد).

٤- الكليات: للكفوي.

الوصايا العشر لطلبة العلم

ذكر القنوجي في (أبجد العلوم) آداب المتعلم فقال:

أمَّا المُتعلِّمُ: فآدابُهُ ووظائفُهُ كَثِيرةٌ، ولَكِنْ يَنْظِمُ تفاريقَهَا عَشْرُ جُمَلٍ:

- الأولى: تقديمُ طَهارةِ النَّفْسِ عَنْ رَذَائِلِ الأَخْلاقِ ومَذْمُوم الأوصافِ؛ إذْ العِلْمُ عِبادةُ القَلْبِ، وصَلاحُ السِّرِّ، وقُرْبَةُ الباطنِ إلى اللّٰه تَعَالَى، فلا تَصِحُّ هَذِهِ العِبَادَةُ إلا بعدَ طهارةِ القَلْبِ عَنْ خبائثِ الأَخْلاقِ وأنْجَاسِ الأَوْصَافِ.
- الثَّانية: أنْ يقلِّلَ علائِقَهُ من الاشتغالِ بالدُّنيا، ويَبْعُدَ عَنْ الأهلِ والوطنِ، فإنَّ العلائقَ شاغِلةٌ وصَارِفةٌ، وما جَعَلَ اللّٰه لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ، ومهما توزَّعتْ الفكرةُ قَصَّرَتْ عَنْ دَرْكِ الحَقَائِقِ، ولذَلكَ قيل: العِلْمُ لا يُعْطِيكَ بعضَهُ حَتَّى تُعْطِيَهُ كُلَّكَ، فإذَا أعطيتَه كُلَّكَ فأنتَ من إعطائِهِ إيَّاكَ بعضَه عَلَى خَطَرٍ.
- الثَّالثةُ: أنْ لا يتكبَّرَ عَلَى العِلْمِ، وَلا يتأمَّرَ عَلَى المُعَلِّمِ، بَلْ يُلقِي إِلَيْهِ زمامَ أمرِهِ بالكليَّةِ في كُلِّ تفصيلٍ، ويُذْعِنَ لنصيحته إذعانَ المريضِ الجَاهِلِ للطبيبِ المشفقِ الحاذقِ، ويَنْبَغِي أنْ يتواضعَ لِمُعلِّمِهِ، ويَطْلُبَ الثَّوابَ والشَّرفَ بخدمتِهِ.
- الرَّابعةُ: أنْ يحترزَ الخائضُ في العِلْمِ في مبدأ الأمْرِ عَنْ الإصغاءِ إلى اختلافِ النَّاسِ، سواءٌ كَانَ ما خاضَ فِيهِ من علوم الدُّنْيَا أو من علوم الآخِرَةِ، فإنَّ ذَلِكَ يُدهشُ عقلَهُ، ويُحيِّرُ ذِهْنَهُ، ويفتِّرُ رأيَهُ، ويُؤَيِّسُهُ من الإدراكِ والاطِّلاعِ، بَلْ يَنْبَغِي أنْ يُتْقِنَ أولا الطَّرِيقَةَ الحَمِيدَةَ الواحدةَ المَرْضيَّةَ عِنْدَ أستاذِهِ، ثُمَّ بعد ذَلِكَ يصغي إلى المذاهبِ والشُّبَهِ..
- الخامسة: أنْ لا يدعَ طالبُ العِلْمِ فنًّا من العُلُوم المحمودةِ، وَلا نوعًا من أنواعِها إلا وينظرُ فيه، نظرًا يطَّلعُ بِهِ عَلَى مقصدِهِ وغايتِهِ، ثُمَّ إنْ ساعَدَهُ العُمُرُ طلبَ التَّبحُّرَ فيه، وإلا اشتغلَ بالأهمِّ مِنْهُ واستوفاه،

وتطرَّفَ من البقيةِ، فإنَّ العُلُوْمَ متعاونةٌ، وبعضُها مرتبطٌ ببعضٍ، ويَسْتَفِيْدُ مِنْهُ فِي الحال الانفكاكَ عَنْ عداوةِ ذَلِكَ العِلْمِ بسبب جهله، فإنَّ النَّاسَ أعداءُ ما جهلوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1]...

- السَّادسةُ: أنْ لا يأخذَ فِي فنٍّ من فنون العِلْمِ دَفْعَةً، بَلْ يُراعي التَّرتيبَ، ويبتدئُ بالأهمِّ، فإنَّ العُمْرَ إذا كَانَ لا يتَّسِعُ لجَمِيْعِ العُلُوْمِ غالبًا، فالحزْمُ أنْ يأخذَ من كُلِّ شيءٍ أحْسَنَهُ...
- السَّابعة: أنْ لا يخوضَ فِي فنٍّ حَتَّى يستوفِيَ الفنَّ الَّذي قبلَهُ، فإنَّ العُلُوْمَ مرتَّبةٌ ترتيبًا ضروريًا، وبعضُها طُرُقٌ إلى بعضٍ، والموفَّقُ من راعى ذَلِكَ الترتيبَ والتَّدريجَ، وليكنْ قَصْدُهُ فِي كُلِّ علمٍ يتحرَّاهُ التَّرقِّي إلى ما هُوَ فوقَه، ويَنْبَغِي أنْ يَعْرِفُ الشَّيءِ فِي نفْسِهِ فلا كلُّ عِلْمٍ يستقلُّ بالإحاطةِ بِهِ كلُّ شخصٍ، ولذَلِكَ قَالَ سيدنا علي رضي الله عنه: «لا تَعْرِفْ الحَقَّ بالرِّجَالِ، اعْرِفْ الحقَّ تعرفْ أهلَهُ».
- الثَّامنةُ: أنْ يَعْرِفُ السَّبَبَ الَّذي بِهِ يُدركُ شَرَفَ العُلُوْمِ، وأنَّ ذَلِكَ يرادُ بِهِ شيئان؛ أحدُهُما: شَرَفُ الثَّمَرَةِ. والثَّاني: وَثاقةُ الدَّلِيلِ وقوَّتُهُ، وذَلِكَ كعِلْمِ الدِّيْنِ وعِلْمِ الطبِّ.
- التَّاسعة: أنْ يَكُوْنَ قصدُ المُتَعَلِّمِ تَخْلِيَةُ باطنِهِ وتَحْلِيتُهُ بالفضيلةِ، والقربُ من اللهِ سُبْحَانَهُ، والتَّرقِّي إلى جِوارِ الملأ الأَعْلَى من المَلائِكَةِ والمُقَرَّبِينَ، وَلا يَقْصِدُ بِهِ الرِّياسةَ والمَالَ والجاهَ ومُجاراةَ السُّفَهَاءِ، ومباهاةَ الأقرانِ... ومع هَذا فلا يَنْبَغِي أن ينظرَ بعَيْنِ الحقارةِ إلى سائرِ العُلُوْمِ، كالنَّحْوِ واللُّغَةِ المُتعلِّقيْنِ بالكتابِ والسُّنَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ.
- العاشرة: أنْ يَعْلَمَ نسبةَ العُلُوْمِ إلى المَقْصِدِ، كما يُؤْثِرُ القريبَ الرَّفيعَ عَلَى البعيدِ الوضيعِ، والمُهِمَّ عَلَى غَيْرِهِ[2].

١- سورة الأحقاف: الآية: ١١.

٢- أبجد العلوم للقنوجي: ص ٧٥، طبعة دار ابن حزم ، نقلها عن الإحياء.

وصايا للمُعَلِّم

قال القنوجي في (أبجد العلوم): وأمَّا وظائفُ المُعَلِّمِ:

- فالأولى: الشَّفَقَةُ عَلَى المُتَعَلِّمِينَ، وَأنْ يُجْرِيَهُمْ مَجْرَى بَنِيِّهِ، ولذَلِكَ صارَ حقُّ المُعَلِّم أعظمَ من حقِّ الوَالِدَيْنِ، ولولا المُعَلِّمُ لانساقَ ما حَصَلَ من جهةِ الأبِ إلى الهلاكِ الدَّائم، وإنَّمَا المُعَلِّمُ هُوَ المفيدُ للحياةِ الأخرويةِ الدَّائمةِ كما أنَّ الوالدَ سببُ الوجودِ الحاضرِ الفاني.
- الثَّانيةُ: أنْ يقتديَ بصَاحِبِ الشَّرْعِ؛ فلا يَطْلُبُ عَلَى إفادة العِلْم أجرًا، وَلا يَقْصِدُ بِهِ جزاءً وَلا شُكرًا، بَلْ يعلِّمُ لوجْهِ الله تَعَالَى وطلبًا للتَّقَرُّبِ إلَيْه، وَلا يَرَى لنَفْسِهِ مِنَّةً عَلَيْهم؛ وَإنْ كَانَتْ المِنَّةُ لازمةً لهم، بَلْ يَرَى الفَضْلَ لهم، وثوابُهُ في التَّعْلِيْم أكثرُ من ثوابِ المُتَعَلِّم عِنْدَ الله تَعَالَى، ولولا التعلم ما ثبت هَذا الثواب فلا يَطْلُبُ الأجر إلا من الله تَعَالَى.
- الثالثة: أنْ لا يَدَعَ من نُصْحِ المُتَعَلِّم شيئًا، وذَلِكَ بأنْ يَمنعَهُ من التَّصَدِّي لرُتْبَةٍ قَبْلَ استحقاقِها، والتَّشَاغُلِ بعلم خفيٍّ قَبْلَ الفَراغِ من الجليِّ، ثُمَّ ينبِّهُهُ عَلَى أن يَطْلُبَ العُلُوْمَ للقُربِ إلى الله دُوْنَ الرِّئاسةِ وَالمُبَاهَاةِ والمنافسةِ، ويقدِّمُ تقبيحَ ذَلِكَ في نَفْسِهِ بأقصى ما يمكنُ، فلَيْسَ ما يُصْلِحُهُ العالمُ الفاجرُ بأكثرَ مِمَّا يُفْسِدُهُ، فإنْ عَلِمَ من باطنِهِ أنَّهُ لا يَطْلُبُ العلمَ إلا للدُّنيا نظرَ إلى العِلْم الَّذي يَطْلُبُهُ، فإن كَانَ هُوَ عِلْمَ الخلافِ في الفِقْهِ والجدلِ في الكلام والفتاوى في الخصوماتِ والأحكام؛ فيمنعه من ذَلِكَ، فإنَّ هَذِهِ العُلُوْمَ لَيْسَت من علوم الآخِرَةِ، وَلا من العُلُوْم التي قِيلَ فِيهَا: (تعلَّمْنا العِلْمَ لغيْرِ الله فأبى العِلْمُ إلا أن يَكُوْنَ لله)، وَإنَّمَا ذَلِكَ علمُ التَّفْسِيرِ وعلمُ الحديثِ، وما كَانَ الأولونَ يشتغلونَ بِهِ من علمِ الآخِرَةِ ومَعْرِفَةِ أخلاقِ النَّفْسِ وكيفية تهذيبها.
- الرَّابعة: وهي من دقائقِ صناعةِ التَّعْلِيْم، أن يَزْجُرَ المُتَعَلِّمَ عَنْ سوءِ الأخْلاقِ، بطريقِ التَّعريضِ ما أمكنَ وَلا يصرِّحُ، وبطريقِ الرَّحْمَةِ لا

بطريقِ التَّوبيخِ، فإنَّ التَّصريحَ يَهْتِكُ حجابَ الهَيْبَـةِ، ويُـورِثُ الجرأةَ عَلَى الهجومِ بالخلافِ، ويهيِّجُ الحرصَ عَلَى الإصرارِ.

- الخامسة: أنَّ المتكفِّلَ ببعضِ العُلُوْمِ يَنْبَغِي ألا يقبِّحَ فِي نفسِ الْمُتَعَلِّمِ العُلُوْمَ التي وراءَهُ، كمُعَلِّمِ اللُّغَةِ إذْ عادته تقبيحُ علم الفِقْهِ، ومُعلمُ الفِقْهِ عادتُهُ تقبيحُ علم الْحَدِيثِ والتَّفْسِيرِ، ذَلِكَ نقلٌ محضٌ، وسَماعٌ بَحْتٌ، وهو شأنُ العَجائزِ، وَلا نَظَرَ للعقلِ فيه، ومُعلِّمُ الكلامِ ينفِّرُ عَنْ الفِقْهِ ويَقُولُ: ذَلِكَ فروعٌ، وهو كلامٌ فِي حيضِ النِّسْوَانِ، فأينَ ذَلِكَ من الكلام فِي صِفَةِ الرَّحْمنِ، فهَذِهِ أخلاقٌ مَذْمُومَةٌ للمعلمين، يَنْبَغِي أن تُجتنبَ.
- السَّادسة: أن يقتصر بالْمُتَعَلِّم عَلَى قَدْرِ فهمِهِ، وَلا يلقي إِلَيْهِ مالا يَبْلُغُهُ عَقْلُهُ فينفِّرَهُ أو يَخْبِطَ عَلَيْهِ عقلَهُ، كما قيل: (كلِّموا النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عقولهم) وأشارَ عليٌّ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى صَدْرِهِ (إنَّ ههنا لعُلومًا جَمَّةً لو وجدتُ لَهَا حَمَلةً).
- السَّابعةُ: أن الْمُتَعَلِّمَ القاصرَ يَنْبَغِي أن يلقيَ إِلَيْهِ الجليَّ اللائقَ بِهِ، وَلا يذكرُ لَهُ أنَّ وراءَ هَذا تدقيقًا وهو يدَّخِرُهُ عَنْهُ، فإنَّ ذَلِكَ يفتِّرُ رغبتَهُ فِي الجليِّ، ويُشَوِّشُ عَلَيْهِ قلبَهُ، ويوهِمُ إِلَيْهِ الْبُخْلَ بِهِ عَنْهُ، إذ يظنُّ كُلُّ أحَدٍ أَنَّهُ أَهْلٌ لِكُلِّ علم دقيقٍ، فما من أحَدٍ إلا وهو راضٍ عَنْ اللّٰه سُبْحَانَهُ فِي كمالِ عقلِهِ، وأشدُّهم حماقةً وأضعفُهم عقلا هُوَ أفرَحُهم بكمالِ عقلِهِ.
- الثامنة: أن يَكُوْنَ الْمُعَلِّمُ عاملا بعلمِهِ، فلا يكذِّبُ قولُهُ فعلَهُ، فإنَّ الْعِلْمَ يُدْرَكُ بالبصائرِ، والْعَمَلُ يُدْرَكُ بالأبصارِ، وأَرْبَابُ الأبصارِ أكثرُ، فإذا خالفَ الْعَمَلُ الْعِلْمَ مُنِعَ الرُّشْدَ[1].

١- أبجد العلوم: صديق حسن القنوجي، ص ٧٧ ، طبعة دار ابن حزم، بيروت ٢٠٠٢م.

وصية للمدرّس

المُدَرِّسُ: هو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية؛ من التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والتصريف، ونحو ذلك، وهو مأخوذ من درست الكتابَ دراسةً: إذا كررته للحفظ.

والمعيدُ: هو ثاني رتبة المدرس ، وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنوه.

قال القلقشندي في وصية المدرِّس:

- وَلْيَطْلُعْ في مِحرابِهِ كالبَدرِ وحَولَهُ هالةُ تلكَ الحلَقَةِ، وقد وَقَتْ أهدابُ ذلك السَّوادِ منه أعظمَ اسودادًا من الحَدَقَةِ.
- وليَرْقَ سَجَّادَتَهُ التي هي لِبْدَةُ جَوادِهِ إذا استَنَّ الجدالِ في المِضْمارِ، وليُخْفِ أضواءَ أولئكَ العلماءِ الذين هم كالنُّجومِ كما تتضاءلُ الكواكبُ في مطالِعِ الأقمارِ.
- وليُبْرِزْ لهم من وراءِ المِحْرابِ كمينَهُ، وليُفِضْ على جداوِلِهم الجافَّةِ مَعِيْنَهُ.
- وليَقْذِفْ لهم من جَنَباتِ ما بينَ جنبيْهِ دُرَرَ ذلك البحرِ العَجَّاجِ، ولْيُرِهِمْ من غُرَرِ جِياده ما يُعْلَمُ به أنَّ سوابقَهُ لا يَهُولُها قَطْعُ الفِجاجِ.
- وليُظْهِرْ لهم من مكنونِ علمِهِ ما كانَ يُخفيْهِ الوقارُ، وليَهَبْ من ممنونِ فضْلِهِ ما يَهَبُ منه عن ظهرِ غِنَىً أهلَ الافتقار.
- وليقرِّرْ تلكَ البُحوثِ ويبيِّنْ ما يردُ عليها، وما يُرَدُّ به من مَنْعَها وتطرَّقَ بالنَّقْضِ إليها؛ حتى لا تنفَصِلَ الجماعةُ إلا بعدَ ظهورِ التَّرجيحِ، والإجماعِ على كلمةٍ واحدةٍ على الصَّحيحِ.

- وليُقْبِلْ في الدُّروسِ طَلْقَ الوجْهِ على جماعتِهِ، وليستَمِلْهُم إليه بِجُهدِ استطاعتِهِ.
- وليُربِّهم كما يُرَبِّي الوالدُ الولدَ، وليستحسِنْ ما تَجيءُ به أفكارُهم، وإلا فكم رَجُلٌ بالْجَبْهِ لبنتِ فكْرٍ وَأد.
- هذا إلى أخذِهم بالاشتغالِ، وقَدْحِ أذهانِهم للاشتعالِ.
- وليُنَشِّيءِ الطلبةَ حتى يُنَمِّي منهم الغُروس، ويؤهِّلَ منهم من كانَ لا يُظَنُّ منه أَنَّهُ يتعلَّمُ لأن يُعلِّمَ ويُلقِي الدُّروس[1].

١- صبح الأعشى للقلقشندي (٢٤٧/١١)، دار الكتب المصرية.

وَصِيَّةُ معاوية بن أبي سفيان بالشّعْر

الشِّعْرُ مَعْدِنُ العَرَبِ، وسِفْرُ حكمتِها، وديوانُ أخبارِها، ومستودَعُ أيَّامِها، والسُّورُ المَضروبُ عَلَى مآثرِها، والخَنْدَقُ المحجوزُ على مفاخرِها، والشّاهدُ العَدْلُ يَوْمَ النِّفارِ، والحُجَّةُ القاطعةُ عِنْدَ الخصام، ومنْ لَمْ يقم عِنْدَهم على شَرَفِهِ، وما يدَّعيه لسَلَفِهِ، من المناقبِ الكَرِيْمَةَ، والفِعَالِ الحَميدَةِ بيتٌ فِيهِ شَذَّتْ مَسَاعِيْهِ وَإِنْ كَانَتْ مشهورةً، ودَرَسَتْ عَلَى مرورِ الأيام وَإِنْ كَانَتْ جِسامًا، ومن قيّدها بقوافي الشِّعْرِ، وأوثقها بأوزانِهِ، وأشهرَهَا بالبَيْتِ النَّادرِ والمثَلِ السَّائرِ والمَعْنَى اللطيفِ أخلدَها عَلَى الدَّهْرِ، وأخلصَها من الجَحْدِ، ودَفَعَ عَنْهَا كيد العدو، وغضّ عَنْهَا عين الحسود[1].

قال ابن خلدون: اعلم أن الشِّعْرَ لا يَخْتصُّ باللسانِ العربيِّ فقط، بل هو موجودٌ في كلِّ لغةٍ.

لَمَّا وجدَ مُعَاوِيَةُ أنَّ عبدَ الرَّحْمنِ بن الحكم ابن أبي العاص يَقُولُ الشِّعْرَ أَوْصَاهُ بِقَوْلِه[2]:

- أراكَ تُعْجَبُ بالشِّعْرِ، فإنْ فعلتَ فإيَّاكَ والتَّشبيبَ بالنِّساءِ، فإنَّكَ تُغري بِهِ الشَّريفةَ، وتَرْمي بِهِ العفيفةَ، وتُقرُّ عَلَى نَفْسِكَ بالفضيحةِ.
- وإيَّاكَ والهجاء، فَإِنَّك تُحنِق بِهِ كَرِيْمًا، وتستثير بِهِ لَئِيْمًا.
- وإيَّاكَ والمَدْحَ، فَإِنَّهُ كَسْبُ الوِقاح، وطُعْمَةُ السُّؤَّال.
- وَلَكِنْ افخرْ بمفاخِرِ قَوْمِكِ، وقلْ من الأمثالِ ما تُزَيِّنُ بِهِ نَفْسَكَ وشِعْرَكَ وتؤدِّبُ بِهِ غَيْرَكَ[3].

١- عيون الأخبار: لابن قتيبة (كتاب العلم والبيان).

٢- عبد الرحمن بن الحكم ابن أبي العاص (أخو مروان بن الحكم الخليفة) وهو شاعر أموي محسن، لما ادعى معاوية زيادًا قال له أبياتًا منها: أتغضبُ أن يقالَ أبوك عَفٌّ وتَرضى أن يقال أبوك زاني (الأعلام: ٣/٣٠٥).

٣- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ ابن عساكر (علي بن الحسين ٤٤٩- ٥٧١ هـ)، طبعة دار الفكر (ترجمة عبد الرحمن بن الحكم).

وَصِيَّةُ شريح القاضي لمُؤَدِّبِ وَلَدِهِ

ذكر أبو نعيم في «الحلية» والجاحظ في «الحيوان» أنه كَانَ لِشُرَيْح -وهو من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام- ابْنٌ يُكثِرُ البطالةَ، يَدَعُ الْكُتَّابَ، وَيُهَارِشُ الْكِلابَ، فنظر إليه شريح يوماً وهو يهارش بكلب له، فكتب رقعة إلى معلِّمِهِ وفيها هذه الأبيات:

تَرَكَ الصَّلاةَ لأَكْلُبٍ يَسْعَى بِهَا ... طَلَبَ الْهِرَاشَ مَعَ الْغُوَاةِ الرُّجَّسِ

فإذا خَلوتَ فعَضَّه بَمــــلاَمَةٍ ... أو عِظْهُ موعِظةَ الأديب الأكيسِ

وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِــــدِرَّةٍ ... فَإِذَا ضَرَبْتَ بِهَا ثَلاثًا فَاحْــبِسِ

وليأتينَّك غادياً بصحيفــــةٍ ... يَغْدُو بها كصحــيفـة المتلـمِّسِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَنَـفْسُـهُ ... مَعَ مَا تُجَرِّعُني أَعَـزُّ الأَنْــفُسِ

فضربه المعلم عشراً عشراً. فقال له شريح: لم ثنّيت عليه الضرب؟ فقال: العشر الأولى للبطالة، والثانية للبلادة، حيث لا يدري ما يحمل.

وَصِيَّةُ عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مُؤَدِّبِ وَلَدِهِ

عُتْبَةُ بنُ أبي سُفْيَانَ، أمير مصر، وليها من قبل أخيه معاوية، وتوفي بها سنة ٤٤هـ. كانَ عاقلا فصيحًا مَهِيْبًا من الخطباءِ المعدودينَ؛ قَالَ الأَصْمعيُّ: الخطباءُ من بني أميَّةَ: عُتْبَةُ بنُ أبي سُفْيَانَ، وعبدُ المَلِكِ بنُ مَروانَ.

قَالَ عُتْبَةُ لعبد الصَّمَدِ مُؤَدِّبِ وَلَدِهِ:.

- يا عبدَ الصَّمَد، ليكُنْ أوَّلَ ما تبدأُ بِهِ من إصلاحِ بَنِيَّ إصلاحُ نَفْسِكَ، فَإِنَّ أعينَهم معقودةٌ بعينيك؛ فالحَسَنُ عِنْدَهم ما استحسنتَ، والقَبِيْحُ ما استقبحتَ.
- وعلِّمْهُمْ كتابَ اللهِ، وَلا تَسْتَكْرِهُّهُم عَلَيْهِ فَيَمَلُّوهُ.
- ولا تتركهمْ مِنْهُ فيهجروه، ورَوِّهِمْ من الشِّعْرِ أعفَّهُ، ومن الحَدِيثِ أشرَفَهُ.
- ولا تُخْرِجْهُمْ من عِلْمٍ إلى عِلْمٍ حَتَّى يُحكِموهُ؛ فَإِنَّ ازْدِحامَ الكلامِ في السَّمْعِ مَضَلَّة للفَهْمِ.
- وتَهَدَّدْهُم بي، وأدِّبهم دُوْني.
- وكُنْ لَهُمْ كالطَّبِيبِ الرَّفيقِ، لا يضعُ الدَّوَاءَ إلا بعدَ مَعْرِفَةِ الدَّاءِ.
- ورَوِّهمْ من سِيَرِ المُلُوكِ.
- وجَنِّبْهمْ مُحادثَةَ النِّساءِ.
- ولا تَتَكِلَنَّ عَلَى عُذْرٍ مِنِّي، فَإِنِّي اتَّكلتُ عَلَى كفايةٍ مِنْكَ.
- واستزِدْني بزيادتكِ إيَّاهُم أزدْك إنْ شَاءَ اللهُ[1].

١- آداب المعلمين: لمحمد بن سحنون. ونصيحة الملوك للماوردي.

وصية عبدِالْمَلِكِ بنِ مَروانَ للشَّعبيِّ مؤدب ولده

عبدُ المَلِكِ بنُ مَـروانَ (٢٦ – ٨٦ هـ) أبـو الوليدِ، من أعاظم الخلفاءِ ودُهاتِهِمْ، كانَ قويَّ الهيبةِ، نشأ في المدينةِ فقيهًا واسعَ العلمِ، متعبِّدًا ناسكًا، انتقلتْ إليه الخلافةُ بموتِ أبيه، فضبطَ أمورَها.

والشّعبيُّ: عامر بن شراحيل (ت: ١٠٣ هـ) أبو عمرو، من التابعين،اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم، وكان ضئيلا نحيفًا، سئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. قال الشّعبيُّ: ما ذاكرتُ أحدًا إلا وجدتُ لي الفضلَ عليه إلا عبدَ المَلِكِ، فما ذاكرتُهُ حديثًا ولا شعرًا إلا زادَني فيه.

كَتَبَ عبدُ الملكِ إلى الحجَّاجِ أن ابعثْ إليَّ بأجمعِ رجلٍ عندكَ، فبعثَ إليه بالشَّعبيّ؛ فلمَّا قدِمَ الشَّعبيّ عليه قال له عبدُ الملكِ:

- عَلِّمْ بَنِيَّ سِتَّ خصالٍ، ثُمّ شأْنُكَ بَعْدَ تأديْبُهم.
- عَلِّمْهُم صِدْقَ الحديثِ كما تُعَلِّمُهُم القرآنَ.
- وعَلِّمْهُم الشِّعْرَ ينْجُدوا ويَمْجُدُوا (يعني أنهم يكونوا أسخياءَ وفرسانًا).
- وجُزَّ شُعُورَهُمْ تَشْتَدُّ رِقابُهم.
- وأطعمْهُمُ اللَّحْمَ تصحُّ قلوبُهم.
- وجنبْهُم الْحَشَمَ فإنَّهُ مَفْسَدَةٌ لهم.
- وجالسْ بهم عِلْيَةَ الرِّجالِ يناقضونَهم الكلامَ، فإنه خيارُ النَّاسِ[١].
- وزاد في الأغاني: إذا روَّيْتَهم شِعْرًا فلا تُروِّهمْ إلا مثلَ قولِ العُجَيْرِ السَّلوليِّ[٢]:

١- يقال: فلان مِنْ عِلْية الناس: أَي من أَشرافهم وجِلَّتهم لا من سِفْلَتهم.

٢- العُجَيْرُ بن عبد الله السَّلوليِّ: من شعراء الدولة الأموية، كان جوادًا كريمًا.

يَبِينُ الجارُ حِينَ يَبِينُ عَنِّي
ولَم تأنَسْ إليَّ كلابُ جاري

وتَظْعَنُ جارتي من جَنْبِ بيتي
ولَم تُسْتَرْ بسِتْرٍ من جداري

وتأمَنُ أن أطالعَ حِينَ آتِي
عليها وهي واضعةُ الخمارِ

كذلك هَدْيُ أبائي قديمًا
توارَثَهُ النِّجارُ عنِ النِّجارِ[1]

فَهَدْيِيَ هَدْيُهُمْ وهم افتلوني
كما افتُلِيَ العتيقُ من المِهارِ[2]

١- النِّجارُ: الأَصْلُ والحَسَبُ. والفَلُوُّ والفُلُوُّ والفِلْوُ: المُهر إذا فطم.

٢- وردت الوصية مع اختلاف في ألفاظها في بهجة المجالس لابن عبد البَرِّ. وربيع الأبرار: للزمخشري. والتذكرة الحمدونية. ولباب الآداب: لأسامة بن منقذ. والأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني. وعيون الأخبار: لابن قتيبة.

وَصِيَّةُ هشام بن عبدالمَلِكِ لسليمان الكلبي مُؤَدِّبِ وَلَدِهِ

هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم (٧١- ١٢٥هـ)، وصف بأنه كان ذكيًا حازمًا حسن السياسة، يقظًا في أمره، حليمًا، بخيلا، يباشر الأعمال بنفسه، من كلامه: ما بقي عليّ من لذّات الدنيا إلا أخ أرفع مؤنة التحفظ بيني وبينه.

أرسل هشام بن عبدالمَلِكِ لسليمان إلى سليمان الكلبي، وكان رجلاً جامعًا للأدب فاضلاً، ذا رأي، فقَالَ[١]:

- يا سُلَيْمَانُ، قَدْ بَلَغَني عَنكَ، وإِذَا بَلَغَني عَنْ أحَدٍ من رَعِيَّتي مِثْلَ الَّذِي بَلَغَني عَنكَ أسرعتُ إِلَيْهِ بما يُحِبُّ، واستعنتُ بِهِ عَلَى أَمْرِي.
- وإِنَّ مُحَمَّدًا ابنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ بالمكانِ الَّذي بَلَغَكَ، وهو جِلْدَةُ ما بَيْنَ عَيْنَيَّ، وإني أرجو أن يَبْلُغَ اللّه بِهِ أفضلَ ما بَلَغَ بأحَدٍ من أَهْلِ بَيْتِه.
- وقد وَّلاكَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ تأديبَهُ وتَعْليمَهُ ومَالَهُ، والنَّظَرَ فيما يُصْلِحُ اللّه بِهِ أمْرَهُ، فعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللّهِ وأداءِ الأَمَانَةِ فيه.
- فَإِنَّكَ تُقْصَدُ فِيهِ بخصالٍ لو لم تكُنْ إلا واحدةً كُنْت قَمِنًا ألا تضيِّعَها فَكَيْفَ إِذَا اجتَمَعَتْ[٢].
- أَمَّا أولُهَا: فَإِنَّكَ مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهِ، وحَقٌّ لَهُ أداءُ الأَمَانَةِ فيه.
- وأَمَّا الثَّانيةُ: فأنا إمامٌ ترجوني وتَخَافُنِي.
- وأَمَّا الثَّالثةُ: فَكُلَّمَا ارْتَقى الغُلامُ في الأُمُوْرِ دَرَجةً ارتفعتَ مَعَهُ، ففي هَذا ما يُرَغِّبُكَ فيما أُوصِيْكَ بِهِ.
- فادْخُلْ عَلَيْهِ في خَاصَّةِ أَهْلِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ وذوي الأسنانِ، فَإِنَّك مِنْهُم بَيْنَ خصلتين؛ إمَّا أن يَسْمَعَ مِنْهُم كلامًا حسنًا فَيَعِيَهُ ويحفظُهُ فيَكُوْنَ

١- البداية والنهاية: ابن كثير، والأعلام: للزركلي.

٢- هو قَمَنٌ بكذا وقَمَنٌ منه وقَمِنٌ وقمينٌ: أي خَليقٌ وجَديرٌ.

لَكَ صَوْنَهُ وذِكْرُهُ، وإمَّـا أن يراهم النَّاسُ يخرجونَ من عِنْدِه فيَرَوْنَ أَنَّكُم عَلَى مِثْلِ ما هُمْ عَلَيْهِ.

- ولا تُدخل عَلَيْهِ الفُسّاق، وَلا شَرَبَةَ الخمر، فَإنَّك مِنْهُم بَيْنَ خصلتين؛ إمَّـا أن يَسْمَعَ مِنْهُم كلامًا قبيحًا فَيَعِيَهُ وَيَحْفَظَهُ ويأخُذَ بِهِ، فتُرِيْدُ تحويلَهُ عَنْ ذَلِكَ فلا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وإمَّـا أن يراهم النَّاسُ يخرجون من عِنْدَكم، فيرون أَنَّكُم عَلَى مِثْلِ ما هم عَلَيْهِ.
- وانظر إذَا سَمِعْت مِنْهُ الكَلِمَةَ العَوْرَاءَ، فلا تؤنبه بِهَا فَتُمَحِّكَهُ، ولَكِنْ احْفَظْهَا عَلَيْهِ، فإذَا قامَ من مَجْلِسِهِ فانْقُلْهُ إلى ما هُوَ أحسنُ مِنْهُ[1].
- وإذَا سَمِعْتَ مِنْهُ الكَلِمَةَ المُعْجِبةَ، فَفَطِنَ القومُ لَهَا فَإنَّهُم عسى ألا يَكُوْنُوا فهموها وفهمتَهَا باهتمامِكَ بِهَا حَتَّى يَقُومُوا وقد سَمِعُوا مِنْهُ كلامًا حسنًا، ويَرْوُونَهُ عَنْهُ ويرفعونَهُ به[2].
- وإذَا حَضَرَ النَّاسُ أبوابَكم فَعَجِّلوا إذْنَهُمْ، ثُمَّ ليَحْسُنَ بِشْرُكُمْ بِهم، وأطيبوا للنَّاسِ طعامَهُم.
- فإذَا فَرَغُوا من الغَداء والعشاءِ، فمن أحبَّ أقام للحديثِ من قِبَلِ نَفْسِهِ، ومن أحبَّ انصرفَ إلى أَهْلِهِ، فإنَّ للنَّاسَ حوائجَ عِنْدَ زيارتِكُمْ.
- وإذَا أعطيتم أهلَ القُرْآنِ الكَرِيْم، وحَمَلَةَ العِلْم، وأهلَ الفَضْلِ، فَإنَّكم تؤجَرونَ عَلَى إعطائِهِمْ، إلاَّ أنْ يَكُوْنَ سببُ النَّجْدةِ أو وسيلة، فَإنَّكم ملوك، والنَّاسُ سُوَقٌ، وإنَّمَا تسودونَ النَّاسَ ويطأون عَلَى أعقابكم ببارع الفَضْلِ ولين الجناح، وقَالَ الشَّاعِرُ:

فـأَنَّـكَ لا تَـرَى طَـرْدًا لِحُـرٍّ كإلصاقٍ بِـهِ بعضَ الْهَـوَانِ
ولـم تُجْـلَبْ مـودّةُ ذي وفـاءٍ بمِثْلِ البَذْلِ أو لُطفِ اللِّسَانِ

١- العَوْراء: الكلمة القبيحة أَو الفَعْلة القَبيحة، المَحْكُ: المُشارَّة والمنازعة في الكلام.

٢- شيء مُعْجِبٌ: إذا كان حَسَنًا معدًا.

- وخُذْه بعِلْمِ نسبِهِ في العَرَبِ، حَتَّى لا يخفى عَلَيْهِ مِنْهُ قليل وَلا كَثِيرٍ.
- وعلِّمْهُ مَنَازِلَ القَمَرِ، وَأَنْواعَ الخطب، ومواضعَ الكلام، ومَعْرِفَةِ الجواب.
- وَإِنْ هُوَ احتبسَ عَنْ تأديبِهِ ومُرُوَّاتِهِ فَادْخُلْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ مَعَ أَهْلِهِ في لِحَافِهِ، حَتَّى تَجُرَّ برجْلِهِ إلى ما يَنفَعُهُ اللّٰه بِهِ.
- وإيَّاكَ أن تكتم عَلَيْهِ فيؤدي ذَلِكَ إلى غَيْرِك، فأنزل لَكَ عَمَّا يسرك إلى ما يضرك.
- ولا يخرجن إلا مُعْتَمًّا[1].
- ولا يركبنَّ مَحْذوفًا، وَلا مَهْلوبًا، وَلا يعقدن لَهُ ذنب دابة إلا من لَثَقٍ[2].
- ولا يركبن سرجًا صغيرًا، فتبدو مِنْهُ أليتاه،كفعل الفساق. وَلا يسيرنَّ ملتفتًا وَلا طامحًا[3].
- فخذه بِهَذِهِ الخِصَالِ، وزِدْهُ من عِنْدِكَ ما اسْتَطَعْتَ، فَإِنِّي سأقيس عقله اليَوْمَ وبعد اليَوْم، فإن رأيته قَدْ ازداد خَيْرًا إلى ما كَانَ عَلَيْهِ رُؤِيَ فضلُ أمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَتْ الأخرى فلا تَلُمْ إلا نَفْسَكَ.
- وقَدْ أَجْرَيْتُ عَلَيْكَ ألفَ دِرْهَمٍ في كُلِّ شَهْرٍ، سِوَى كُسْوَتِكَ وجائِزَتِكَ[4].

١- العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك لأَنهم أَكثر ما يكونون في البوادي مكشوفي الرؤوس أَو بالقلانس، والعمائمُ فيهم قليلةٌ، والأَكاليلُ تيجان ملوك العجم، والعرب تقول للرجل إذا سُوِّد: قد عُمِّمَ، وكانوا إذا سَوَّدُوا رجلا عَمَّمُوه عِمامةً حمراء. قال الثعالبي: جاء في الخبر: إن العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوها وضع الله عزهم. وكان يقال: اختصت العرب من بين الأمم بأربع: العمائم تيجانها، والدروع حيطانها، والسيوف سيجانها، والشعر ديوانها. ثمار القلوب (١/ ١٥٩).

٢- المحذوف: الفرس مقطوع الذنب. والمهلوبُ: الفرس مستأصل شعر الذنب. واللَّثَقُ : البَلَلُ.

٣- السَّرْجُ: رحل الدابة، معروف، والجمع سُروج.

٤- المعمرون والوصايا: لأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٠ هـ).

وَصِيَّةُ هارون الرشيد للأحْمَرِ النَّحوي مؤدب وَلَدِهِ

هارون الرشيد، أبو جعفر، خامس خلفاء بني العباس وأشهرهم، وكان حازمًا كريمًا متواضعًا عالمًا بالأدب وأخبار العرب والفقه والشعر، محبّا للعلم وأهله، يعظم حرمات الإسلام.

والأحمر النحوي: علي بن المبارك الكوفي، شيخ العربية، قيل: كان شابًا من رجالة باب الخلافة، وكان يتوقد ذكاء فرأى الكسائي يدخل ويخرج، فلزمه إلى أن برع، فندبه لتعليم أولاد الرشيد نيابة عن نفسه[١].

أَوْصَى الرَّشيدُ مُؤَدِّبَ وَلَدِهِ (الأَحْمَرَ النَّحْويَّ) عِنْدَما كَلَّفَهُ بتأديبِ وَلَدِهِ مُحَمَّدِ الأَمِيْنِ فقَالَ:

- يا أَحْمَرُ، إنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةَ نَفْسِهِ، ثَمَرَةَ قلبِهِ، فَصَيَّرَ يَدَكَ عَلَيْهِ مبسوطة، وطاعتك عَلَيْهِ واجبة، فكُنْ لَهُ حَيْثُ وضعك أَمِيْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ.
- أقرئه الْقُرْآنَ، وعرِّفْهُ الآثارَ، ورَوِّهِ الأَشْعارَ، وعَلِّمْهُ السُّنَنَ، وبَصِّرْهُ مَواقعَ الكلامِ وبَدْأَهُ، وامْنَعْهُ الضَّحِكَ إلا في أوقاتِهِ، وخُذْهُ بتعظيم مشايخ بَنِي هاشمٍ إِذَا دَخلوا عَلَيْهِ، وارفعْ مجالسَ القُوَّادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ.
- ولا تَمُرَنَّ بِكَ ساعةٌ إلا وَأَنْتَ مُغْتَنِمٌ فِيهَا فائدةً تفيدُهُ إيَّاهَا، من غَيْرِ أن تَخْرَقَ بِهِ، فتُميتَ ذِهْنَهُ، وَلا تُمْعِنْ في مُسَامَحَتِهِ فَيَسْتَحْلِيَ الفَرَاغَ وَيأْلَفَهُ[٢].
- وقَوِّمْهُ ما اسْتَطَعْتَ بالقُرْبِ والْمُلايَنَةِ، فَإِنْ أَبَاهُمَا فعَلَيْكَ بالشِّدَّةِ والغِلْظَةِ[٣].

١- سير أعلام النبلاء.

٢- خَرِقَ بالشَّيء يَخْرَقُ: جهله ولم يُحسن عمله.

٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر: لعلي بن الحسين المسعودي، المتوفى سنة ٣٦٤ هـ.

وصية ابن شداد ابنَه محمدًا بشعرٍ

عبد الله بن شداد ابن الهاد الليثي، وأمه هي سلمى أخت أسماء بنت عميس، وكانت سلمى تحت حمزة رضي الله عنه، فلما استشهد تزوجها شداد رضي الله عنه، فولدت له عبد الله في زمن النبي ﷺ. قال ابن سعد: كان ثقة، قليل الحديث، شيعيًّا، قال محمد بن عمر: كان يأتي الكوفة كثيرًا، فنزلها، وخرج مع ابن الأشعث، فقتل ليلة دجيل سنة اثنتين وثمانين.

عن ابن الكلبي عن أبيه قال: لما حَضَرَتْ عبدَ الله بنَ شداد الوفاةُ دعا ابنًا له يقال له محمد فقالَ:

- يا بنيّ، إني أَرَى داعيَ الموتِ لا يُقْلِعُ، وأرى من مَضَى لا يَرْجِعُ، ومن بقيَ فإليه يَنْزِعُ.
- وإني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله، وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشّكور يزداد، والتقوى خير زاد.
- وكن كما قالَ الحطيئةُ[1]:

ولستُ أرى السَّعادةَ جمعَ مالٍ	ولكنَّ التَّقيَّ هو السَّعيدُ
وتقوى اللّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخرًا	وعندِ اللّهِ للأتقى مزيدُ
وما لابدَّ أن يأتي قريبٌ	ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ

- ثم قال: أي بنيّ، لا تزهدنّ في معروف، فإن الدهر ذو صروف؛ والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب؛ فكم من راغب قد كان مرغوبًا إليه، وطالب أصبح مطلوبًا ما لديه؛ واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان.

١- الحطيئة: واسمه جرول بن أوس، وهو من فحول الشعراء، وكان ذا شرٍّ وسفه، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام.

- وكن أي بنيّ كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعدّ من الرحمن فضلا ونعمةً عليك إذا ما جاء للعرف طالب

وإن امرًا لا يُرتجى الخير عنده يكن هينًا ثِقْلا على من يصاحب

فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالبًا فإنك لا تدري متى أنت راغب

رأيت التوا هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائب

- أي بني، كن جوادًا بالمال في موضع الحق، بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق؛ فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، وإن أحمد بخل الحرّ الضن بمكتوم السر.

- وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكنون التلاد وإنني بسرك عمن سالني لضنين

إذا جاوز الاثنين سرٌّ فإنه بِنثٍّ وتكثيرِ الحديث قمينُ

وعندي له إذا يومًا ما ائتمنتني مكانٌ بسوداء الفؤاد مكين

- أي بني، وإن غلبت يومًا على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال والدنيّ عيال؛ وكن ما تكون في الظاهر حالا أقل ما تكون في الباطن مالا؛ فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنقاد نعمته. وكن كما قال ابن خذّاق العبدي:

وجدت أبي قد أورثه أبوه خلالاً قد تعدُ من المعالي

فأكرم ما تكون علىَّ نفسي إذا ما قلَّ في الأزمات مالي

فتحسن سيرتي وأصون عرضي ويجمل عند أهل الرأي حالي

وإن نلت الغنى لم أغل فيه ولم أخصص بجفوتيَ الموالي

- أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد؛ فإنك إن أمضيتها حيالها، رجع العيب على من قالها؛ وكان يقال: الأرنب العاقل، هو الفطن المتغافل.
- وكن كما قال حاتم الطائي:

وما من شيمتي شتم ابن عمي وما أنا مخلفٌ من يرتجيني

وكلمة حاسدٍ في غير جرم سمعت فقلت مُرّي فانفذيني

فعابوها عليّ ولم تسؤني ولم يعرق لها يومًا جبيني

وذو اللّونين يلقاني طليقًا وليس إذا تغيّب يأتليني

سمعت بعينه فصفحت عنه محافظةً على حسبي وديني

- أي بنيّ، لا تؤاخِ أمرءًا حتى تعاشره، وتتفقّد موارده ومصادره؛ فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة؛ فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة. وكن كما قال المقنع الكندي:

ابلُ الرجالَ إذا أردت إخاءهم وتوسّمنّ فِعَالهم وتفقّدِ

فإذا ظفرت بذي اللّبانة والتّقى فبه اليدين قرير عينٍ فاشددِ

وإذا رأيت ولا محالة زلةً فعلى أخيك بفضل حلمك فارددِ

- أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط؛ فإنه قد كان

يقال: أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما. وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذريّ:

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا
فـإنـك راءٍ مـا حـييت وسـامـع

وأحـبـب إذا أحـببـت حـبًّـا مـقـاربًـا
فـإنـك لا تـــدري مـتـى أنـــت نـازع

وأبغض إذا أبغضت بغضًا مقاربًا
فـإنـك لا تـــدري مـتـى أنـــت راجـع

- وعليك بصحبة الأخيار وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار.[1]

١- الآمالي: للقالي (٢/٢٠٢).

هذه الرسالة أصْل هَذِهِ الآدَابِ الَّذِي ترجع إِلَيْهِ وينبوعها الَّذِي تَفَجَّرَتْ منه

وَصِيَّةُ عبد الْحَمِيدِ الكاتب

عبد الحميد بن يحيى بن سعد، من قيسارية، من أَئِمَّةِ الكتاب، يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسلون.

الْكِتَابَةُ فضلُها لا يُنكر، فلولاها ما جُمِعَتْ العُلُوْمَ، وَلا قُيِّدَتِ الأحكامُ، وَلا ضُبِطَتْ أخبارُ الأَوَّلِينَ، وَلا عُلِمَتْ الكُتُبُ المُنَزَّلةُ، وَلا استقامَ للنَّاسِ دِينٌ وَلا دُنيا. والبيانُ بيانانِ: بيانُ اللِّسَانِ، وبيانُ البَنَانِ، ومن فَضْلِ بيانِ البَنَانِ أنَّ ما تُثْبِتُهُ الأقلامُ باقٍ عَلَى الدَّوامِ، أمَّا بيانُ اللِّسَانِ فتضيّعُهُ السَّاعاتُ والأيامُ.

وما أحسنَ قولَ الشَّاعِرِ:

وَمـا مِـنْ كَاتِـبٍ إلاّ سَيَفْنَـى ... وَيُبقي الدّهْرُ مَا كَتَبَـتْ يَدَاهُ

فَلاَ تَكْتُبْ بِخَطِّكَ غَيْرَ شيءٍ ... يسُرُّكَ يَوْمَ عَرْضِـكَ أَنْ تَرَاهُ

وما أحكمَ قولَ الشَّاعِرِ:

إذا افْتَخَرَ الأَبْطَالُ يومًا بَسْيفِهِمْ ... وَعَدّوهُ مِمَّا يُكْسِبُ المجدَ والْكَرَمْ

كَفَى قَلَم الكُتَّابِ مجدًا ورِفْعَةً ... مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللهَ أَقْسَمَ بَالقَلَمْ

قَالَ القَلْقَشَنْديُّ في حديثِهِ عَنْ (آدابِ عِشْرَةِ من يُمَتُّ إِلَيْهِ بِحُرْمَةٍ) كالجارِ والقاصِدِ، والآمِلِ، والمُدِلِّ بحقِّ المفاوضةِ، والمطاعمةِ، والمحاضرةِ، والسَّلامِ، والمَعْرِفَةِ في الصِّبا، والصَّداقةِ بَيْنَ الآباءِ، وغَيْرِ ذَلِكَ من الحُرَمِ التي لا يَطْرَحُهَا أَهْلُ المروءاتِ. ثُمَّ إنَّ أَصْلَ هَذِهِ الآدَابِ الَّذِي ترجع إِلَيْهِ، وينبوعها الَّذِي تَفَجَّرَتْ مِنْهُ رسالةُ عبدِ الْحَمِيدِ بن يَحْيَى الكاتب، التي

كَتَبَهَا إلى الكتاب يُوصِيهِم فِيهَا وهي:

- أمَّا بعدُ: حَفِظَكُمْ اللّه «يا أَهْـلَ صِنَاعَةِ الأدَبِ» وحَاطَكم ووفَّقَكم وأرْشدَكم، فإنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ جعلَ النَّاسَ بَعْدَ الأنبياءِ والْمُرْسَلِيْنَ صَلَوَاتُ اللّهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ، ومن بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمُكَرَّمِيْن أصنافًا، وَإنْ كَانُوا فِي الحقيقةِ سواءً، وصرَّفَهمْ فِي صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ، وضُروبِ المحاولاتِ إلى أسْبَابِ معايشهم وأبوابِ أرزاقِهِمْ.

- فجَعَلَكُمْ «يَا مَعْشَرَ الكُتَّابِ» فِي أشرفِ الجِهَاتِ، أَهْلَ الأدَبِ والْمُرُوَءَةِ والْعِلْمِ والرِّوايةِ، بكم تنتظمُ للخلافةِ مَحَاسِنُها، وتستقيمُ أُمُوْرُها، وبنصائحكم يُصْلِحُ اللّه للخَلقِ سُلطانَهم، وَتَعْمُرُ بلادُهُم، لا يَسْتَغْنِي المَلِكُ عَنْكُم، وَلا يوجَدُ كافٍ إلا مِنْكُمْ، فمَوْقِعُكُمْ من الْمُلُوكِ موقِعُ أسماعِهم التي بِهَا يَسْمعونَ، وأبصارِهم التي بِهَا يُبْصِرُونَ، وألسنتِهم التي بِهَا يَنطِقُون، وأيديهم التي بِهَا يبطِشُون، فأمتعَكُم اللّه بما خصَّكم من فَضْلِ صناعتِكم، وَلا نَزَعَ مِنْكُمْ ما أضْفاهُ من النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ، ولَيْسَ أحدٌ أحْوَجَ إلى اجتماعِ خلالِ الْخَيْرِ المحمودةِ، وخِصَالِ الفَضْلِ الْمَذْكُوْرَةِ المعدودةِ مِنْكُمْ.

- «أيُّها الكُتَّابُ» إذَا كُنْتُمْ عَلَى ما يأتي فِي هَذا الكتابِ من صفتِكم، فإنَّ الكاتبَ يحتاجُ من نَفْسِهِ، ويحتاج مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذي يثق بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُوْرِهِ أن يَكُوْنَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ، فهيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، ومِقْدامًا فِي مَوْضِعِ الإقدام، ومُحْجِمًا فِي مَوْضِعِ الإحْجَام، مُؤْثِرًا للعَفافِ والعَدْلِ والإنصافِ، كَتُومًا للأسرارِ، وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ، عالِمًا بما يأتي من النَّوازلِ، ويَضَعُ الأُمُوْرَ مواضِعَها، والطَّوارقَ أماكنَها، قَدْ نظرَ فِي كُلِّ فَنٍّ من فُنُونِ العُلُوْمِ فأحْكَمَهُ، فإنْ لَمْ يُحْكِمْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمِقْدارِ ما يكتفي بِهِ، يَعْرِفُ بغريزةِ عَقْلِهِ وحُسْنِ أدَبِهِ وفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ ما يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُوْدِهِ، وعاقبةَ ما يصدرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُوْرِهِ، فيُعِدُّ لكلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ وعَتَادَهُ، ويهيِّءُ لكلِّ وجْهٍ هيئَتَهُ وعادَتَهُ.

- فَتَنَافَسُوا «يَا مَعْشَرَ الكُتَّابِ» فِي صُنُوفِ الآدَابِ، وتفقَّهوا فِي الدِّيْنِ، وابدأوا بعِلْمِ كتابِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ، والفرائضِ، ثُمَّ العَرَبيةِ، فَإِنَّها ثَقافُ ألسنتكم، ثُمَّ أجيدوا الخَطَّ، فإِنَّـه حِلْيَةُ كتبكم، وارْوُوا الأشعارَ، واعْرِفُوا غريبَها ومعانيها، وأيَّامَ العَرَبِ والعَجَمِ وأحاديثَها وسِيَرَها، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِيْنٌ لَكُمْ عَلَى ما تسمو إِلَيْهِ هممكم. وَلا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الحساب، فَإِنَّـهُ قِوامُ كُتَّابِ الخَرَاجِ، وارْغَبُوا بأنفسِكُمْ عَنْ المطامعِ، سَنِيِّهَا ودَنِيِّهَا، وسَفْسَافِ الأُمُـوْرِ ومَحَاقِرِهَا، فَإِنَّها مُذِلَّةٌ للرِّقابِ، مُفْسِدةٌ للكُتَّابِ، ونزِّهوا صِناعتَكُمْ عَنِ الدَّناءاتِ، وارْبَؤُا بأنفسِكُمْ عَنْ السِّعَايَةِ والنَّمِيْمَةِ وما فِيهِ أَهْلُ الجهالاتِ، وإِيَّاكُمْ والْكِبْرَ والصَّلَفَ والعَظَمَةَ، فَإِنَّها عَداوةٌ مُجْتَلَبَةٌ من غَيْرِ إِحْنَةٍ، وتحابُّوا فِي اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صناعتكم، وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بالذي هُوَ أَلْيَقُ بأَهْلِ الفَضْلِ والعَدْلِ والنُّبْلِ من سَلَفِكُمْ، وَإِنْ نَبَا الزَّمَانُ برَجُلٍ مِنْكُمْ فاعْطِفُوا عَلَيْهِ وواسُوْهُ، حَتَّى يرجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ، وَيثُوْبَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، وَإِنْ أَقْعَدَ أحدَكم الْكِبَرُ عَنْ مَكْسَبِهِ ولقاءِ إخوانِهِ، فزُوْرُوهُ وعظِّموهُ وشاوِرُوْهُ، واستظهروا بفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ، وقِدَمِ مَعْرِفَتِهِ، وليكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى من اصْطَنَعَهُ واستظهرَ بِهِ لِيَوْمِ حاجتِهِ إِلَيْهِ أَحْفَظَ مِنْهُ عَلَى وَلَـدِهِ وأَخِيْـهِ، فَـإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فلا يُضِيفُها إلاَّ إلى صَاحِبِهِ، وَإِنْ عَرَضَتْ مَذَمَّةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُوْنَهُ، وَلْيَحْذَرِ السَّقْطَةَ والزَّلَّةَ والمَلَلَ عِنْدَ تَغَيُّرِ الحالِ.

- فَإِنَّ العَيْبَ فِيْكُمْ «يَا مَعْشَرَ الكُتَّابِ» أَسْرَعُ مِنْهُ إلى الفِرَاءِ، وهو لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ لها، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ الرَّجُلُ يَبْذُلُ لَهُ من نَفْسِهِ ما يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ من حَقِّهِ، فواجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ من وَفائِهِ وشُكْرِهِ واحْتِمَالِهِ وصَبْرِهِ ونَصِيْحَتِهِ وكِتْمَانِ سِرِّهِ، وتدبِيْرِ أمرِه، ما هُوَ جَزَاءٌ لحَقِّهِ، ويصَدِّقُ ذَلِكَ بفعالِهِ عِنْدَ الحاجةِ إِلَيْهِ، والاضطرارِ إلى ما لَدَيْهِ، فاستشعروا ذَلِكُم وفَّقَكَم اللّهُ من أَنْفُسِكُمْ فِي حالَةِ الرَّخاءِ وَالشِّدَّةِ والحِرْمانِ والمُواساةِ والإِحْسَانِ والسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فنِعْمَتِ

الشِّيْمَةُ هَذِهِ لِمَنْ وُسِمَ بِهَا من أَهْلِ هَذِهِ الصِّناعَةِ الشَّريفةِ.

- فإِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ، أو صُيِّرَ إِلَيْهِ من أَمْرِ خَلْقِ اللهِ وعِيَالِهِ أَمْرٌ، فَلْيُرَاقِبِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وليُؤْثِرْ طاعَتَهُ، وليكُنْ عَلَى الضَّعيفِ رَفيقًا، وللمَظلومِ مُنْصِفًا، فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللهِ، وأحبُّهم إِلَيْهِ أَرْفَقُهُمْ بعِيَالِهِ.
- ثُمَّ ليكُنْ بالعَدْلِ حاكمًا، وللأشرافِ مُكْرمًا، وللفَيءِ مُوَفِّرًا، وللبلادِ عامرًا، وللرَّعيَّةِ مُتَألِّفًا، وعن إيذائِهِمْ مُتَخَلِّفًا، وليكُنْ مَجْلِسُهُ متواضِعًا حَلِيمًا، وفي سِجِلاتِ خَرَاجِهِ واستقصاءِ حقوقِهِ رَفيقًا.
- وإِذَا صَحِبَ أحدُكم رَجُلاً فليَخْتَبِرْ خَلائقَهُ، فإِذَا عَرَفَ حَسَنَها وقبيحَها أعانَهُ عَلَى ما يُوافِقُهُ من الحَسَنِ، واحْتَالَ لصَرْفِهِ عَمَّا يَهْواهُ من القَبِيْحِ ألطفَ حِيْلَةٍ، وأجْمَلَ وسيلةٍ، وقد عَلِمْتُمْ أَنَّ سائسَ البهيمةِ إِذَا كَانَ بَصِيْرًا بسياستِها الْتَمَسَ مَعْرِفَةَ أخلاقِها، فإن كَانَتْ رَمُوحًا لَمْ يهيِّجْهَا إِذَا رَكِبَهَا، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا اتَّقَاها من قِبَلِ يَدَيْها، وَإِنْ خافَ مِنْهَا شُرُوْدًا توقَّاها من ناحيةِ رأسِها، وَإِنْ كانتْ حَرُوْنًا قَمَعَ بِرِفْقٍ هَوَاها في طريقِها، فإِنْ استمرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيْرًا، فَيَسْلَسَ لَهُ قِيَادُها، وفي هَذا الوَصْفِ من السِّيَاسَةِ دلائلُ لمن سَاسَ النَّاسَ وعامَلَهُمْ وخَدَمَهُم ودَاخَلهم[1].
- والكاتبُ بفَضْلِ أدَبِهِ، وشَرِيْفِ صَنْعتِهِ، ولَطِيْفِ حِيْلَتِهِ ومُعَاملتِهِ، لمن يُحَاوِرُهُ من النَّاسِ ويناظِرُ ويفهمُ عَنْهُ، أو يخافُ سَطْوَتَهُ أولى بالرِّفْقِ بصَاحِبِهِ ومُدَارَاتِهِ وتقويمِ أَوَدِهِ من سائسِ البهيمةِ التي لا تُحيْرُ جَوابًا، وَلا تَعْرِفُ صَوابًا، وَلا تَفْهَمُ خِطابًا، إلا بِقَدْرِ ما يصيِّرُها إِلَيْهِ صاحبُها الرَّاكبُ عَلَيْهَا[2].
- ألا فأمْعِنُوا «رَحِمَكُم اللهُ» في النَّظَرِ، وأعْمِلُوا فِيهِ ما أَمْكَنَكُمْ من

١- رَمَح الفرسُ وكلُّ ذي حافر: ضَرَبَ برجله. شَبَّ الفرسُ: رَفَعَ يَديه جميعًا، كأنه يَنْزُو نَزَوانًا، ولَعِبَ. الحرون: الشاة السيِّئة الخُلق.

٢- تَحَيَّرَ واسْتَحَارَ وحارَ: لم يهتد لسبيله.

الرَّوِيَّةِ والفِكْرِ، تأمَنُوا -بإذنِ اللهِ- مِمَّنْ صَحِبْتُمُوهُ النَّبْوَةَ والاستثقَالَ والْجَفْوَةَ، ويَصِيْرُ مِنْكُمْ إلى الْموافقةِ، وتَصِيْروا مِنْهُ إلى المؤاخَاةِ والشَّفَقَةِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

- ولا يُجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ ومَلْبَسِهِ ومَرْكَبِهِ ومَطْعَمِهِ ومَشْرَبِهِ وبِنَائِهِ وخَدَمِهِ وغَيْرِ ذَلِكَ من فنونِ أمْرِهِ قَدْرِ حَقّه، فَإنَّكم مَعَ ما فضَّلكم اللهُ بِهِ من شَرَفِ صَنْعَتِكُمْ خَدَمَةٌ لا تُحْمَلونَ فِي خدمتكم عَلَى التَّقْصِيْرِ، وحَفَظَةٌ لا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أفعالُ التَّضْيِيعِ والتَّبذيرِ، وَاسْتَعِينُواْ عَلَى عفافِكم بالقَصْدِ فِي كُلِّ ما ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، وقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ.
- واحْذَرُوا مَتَالفَ السَّرَفِ، وسُوْءَ عاقبةِ التَّرَفِ، فَإنَّهما يُعقبانِ الفَقْرَ، ويُذِلانِ الرِّقابَ، ويَفْضَحانِ أَهْلَهُمَا، وَلا سِيَّما الكُتَّابَ، وأَرْبَاب الآدَابِ، وللأمرِ أشْباهٌ، وبعضُها دليلٌ عَلَى بعضٍ، فاستدلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أعمالِكم بما سَبَقَتْ إِلَيْهِ تجربَتُكُمْ، ثُمَّ اسْلُكُوا من مَسَالِكَ التَّدْبِيْرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً، وأصْدَقَها حُجَّةً، وأحْمَدَها عاقبةً.
- وَاعْلَمُواْ أنَّ للتَّدْبِيْرِ آفةً مُتْلِفةً، وهي الوَصْفُ الشَّاغلُ لصَاحِبِهِ عَنْ إنفاذِ عمَلِهِ ورُؤْيتِهِ.
- فليَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قصدَ الكافِي من منطقِهِ، وليُوجِزْ فِي ابتدائِهِ وجوابِهِ، وليأخُذْ بمجامعِ حُجَجِهِ، فَإنَّ ذَلِكَ مَصْلحةٌ لفِعْلِهِ، ومَدْفَعَةٌ للتَّشَاغُلِ عَنْ إكثارِهِ.
- وليضرَّعْ إلى اللهِ فِي صِلَةِ توفيقِهِ، وإمدادِهِ بتسديدِهِ، مَخافةَ وقوعِهِ فِي الغَلَطِ الْمُضرِّ ببدنِهِ وعقْلِهِ وأدبِهِ، فَإنَّهُ إنْ ظنَّ مِنْكُمْ ظانٌّ، أو قَالَ قائلٌ، إنَّ الَّذي بَرَزَ من جَميلِ صنعتِهِ وقُوَّةِ حركتِهِ، إنَّمَا هُوَ بفضلِ حِيْلتِهِ وحُسْنِ تَدْبِيْرِهِ، فَقَدْ تعرَّضَ بظنِّهِ ومقَالَتِهِ إلى أنْ يَكِلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى نَفْسِهِ، فيصيرَ مِنْهَا إلى غَيْرِ كافٍ، وذَلِكَ عَلَى من تأمَّله غَيْرُ خافٍ.

- ولا يقلْ أحدٌ منْكُمْ إنَّه أبصرُ بالأُمُوْرِ، وأحْمَلُ لِعبْءِ التَّدْبيْرِ من مُرَافِقِهِ فِي صِنَاعتِهِ، ومُصَاحِبِهِ فِي خدمتِهِ، فإنَّ أعقلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذوي الألبابِ من رَمَى بالعُجْبِ وراءَ ظَهْرِهِ، ورأى أن صاحبَهُ أعقلَ مِنْهُ وأحمدَ فِي طريقتِهِ، وعلى كُلِّ واحدٍ من الفريقينِ أن يَعْرِفَ فضلَ نِعَمِ اللّه جلَّ ثناؤُهُ من غَيْرِ اغترارٍ برأيِهِ، وَلا تزكيةٍ لنَفْسِهِ، وَلا تكاثرٍ عَلَى أَخِيْه أو نظيْرِهِ وصاحبِهِ وعَشِيْرِهِ.
- وحَمْدُ اللّهِ وَاجبٌ عَلَى الجَمِيْعِ، وذَلِكَ بالتَّواضُعِ لعظمتِهِ، والتَّذَلُّلِ لعزَّتِهِ، والتَّحَدُّثِ بنعمتِهِ. وَأنْ أقولَ بكتابي هَذا ما سَبَقَ بِهِ المَثَلُ (مَنْ يلزمْ الصِّحَّةَ يلزمْهُ العَمَلُ) وهو جوهرُ هَذا الكتابِ وغُرَّةُ كلامِهِ، بَعْدَ الَّذي فِيهِ من ذكر اللّه عَزَّ وَجَلَّ فلذَلِكَ جعلتُهُ آخرًا وتَمَّمْتُهُ بِهِ[1].
- تَوَلانا اللّهُ وإيَّاكُمْ «يامَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالكَتَبَةِ» بِمَا يَتولَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ علمُهُ بإسعادِهِ وإرشادِهِ، فَإنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وبيَدِهِ، والسَّلام عَلَيْكُمْ ورحمةُ اللّهِ وبركاتُهُ[2].

١-اَلْزِم الصِّحَّة يَلْزَمْكَ الْعَملُ : مجمع الأمثال: لأحمد الميداني.

٢- صبح الأعشى: للقلقشندي، ١/ ٨٥.

« دستور البلاغة والخطابة »

صَحِيْفَةُ بِشْرِ بن المُعْتَمِرِ الهلالي

مَرَّ بِشْرُ بنُ المُعْتَمِرِ[١]، بإبْرَاهِيمَ بن جبلة بن مَخْرَمة السَّكونيّ الخَطِيْبِ، وهو يعلِّمُ فتيانَهم الخَطابةَ، فوقفَ بِشْرُ، فظنّ إبْرَاهِيمُ أنَّهُ إنّما وقَفَ لِيَسْتَفِيْدَ، أو ليَكُوْنَ رَجُلاً من النَّظّارةِ. فقَالَ بِشْرُ: اضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا، واطوُوا عَنْهُ كَشْحًا، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِم صَحِيْفَةً من تحبيرِهِ وتنميقِهِ، وكَانَ أوّل ذَلِكَ الكلام:

• خُذْ من نَفْسِكَ ساعةَ نشاطِك وفراغِ بالك وإجابتِها إيَّاكَ، فَإنَّ قليلَ تِلْكَ السَّاعَةِ أكرَمُ جوهرًا، وأشرَفُ حسَبًا، وأحسنُ في الأسماع، وأحلَى في الصُّدورِ، وأسلَمُ من فاحشِ الخَطَأ، وأجْلَبُ لِكُلِّ عين وغُرّةٍ مِن لفظٍ شريفٍ ومعنىً بديعٍ.

• واعلَمْ أنّ ذَلِكَ أجدى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ إلاَّ بطُوْلُ الكَدِّ والمُكابرةِ وَالمُجَاهَدَةِ، وبالتَّكَلُّفِ والمُعَاوَدَةِ، ومهما أخْطَأَك لَم يُخْطِئْكَ أن يَكُوْنَ مقبولاً قَصْدًا، وخفيفًا عَلَى اللِّسَانِ سهلاً؛ وكما خَرَجَ من يَنبوعِهِ ونَجَمَ من مَعْدِنِهِ.

• وإيَّاكَ والتَّوَعُّرَ، فَإنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إلى التَّعْقيدِ، وَالتَّعْقيدُ هُوَ الَّذِي يستهلكُ معانَيكَ، ويَشِيْنُ ألفاظَكَ[٢].

• ومن أَرَاغَ معنىً كَرِيْمًا فليلتمِسْ لَهُ لفظًا كَرِيْمًا؛ فَإنَّ حَقَّ المَعْنَى الشَّريفِ اللَّفْظُ الشّريفُ، ومن حقِّهِمَا أن تَصُونَهما عَمَّا يُفْسِدُهُمَا ويَهْجُنُهُمَا، وعمّا تَعُودُ من أجْلِهِ أَنْ تَكُونَ أسوأَ حالا منْكَ قَبْلَ أن تلتَمِسَ إظهارَهُما، وتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ بملابستِهما وقضاءِ حقِّهما، فكُنْ في ثلاثِ منازلٍ[٣].

١- بِشْرُ بنُ المُعْتَمِرِ الهلالي أبو سهل، فقيه معتزلي مناظر من أهل الكوفة، تنسب إليه الطائفة البشرية (ت: ٢١٠ هـ). (الأعلام).

٢- الوَعْرُ: المكانُ الحَزْنُ ذو الوُعُورَةِ، ضدّ السَّهْل.

٣- أَراغَ وارْتاغَ: بمعنى طَلَب وأراد.

• فَإنَّ أُولَى الثَّلاثِ: أن يَكُوْنَ لَفْظُكَ رَشيقًا عَذْبًا، وفَخْمًا سَهلاً، ويَكُوْنَ معناكَ ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا مَعْرُوفًا، إمَّا عِنْدَ الخاصَّةِ إنْ كُنْتَ للخاصَّةِ قَصَدْتَ، وإمَّا عِنْدَ الْعَامَّةِ إنْ كُنْتَ للعامَّةِ أرَدْتَّ؛ والْمَعْنَى لَيْسَ يشرفُ بأن يَكُوْنَ من معاني الخاصَّة، وكذَلِكَ لَيْسَ يتَّضع بأن يَكُوْنَ من معاني الْعَامَّةِ، وإنّما مَدارُ الشَّرَفِ عَلَى الصَّوَابِ وإحرازِ المنفعةِ، مَعَ موافَقَةِ الحالِ، وما يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ من المقالِ، وكذلك اللَّفْظُ العاميُّ والخاصّيُّ.

• فإنْ أمكنَكَ أن تَبْلُغَ من بيان لِسَانِكَ، وبلاغةِ قلمِكَ، ولُطفِ مَدَاخِلِكَ، واقتدارِك عَلَى نَفْسِكَ، إلى أن تُفْهِمَ الْعَامَّةَ مَعَانِيَ الخاصَّة، وتكسُوَها الألفاظَ المبسوطةَ التي لا تَلطُفُ عَنِ الدَّهْماءِ، وَلا تَجفُو عَنِ الأَكْفاء، فأنتَ البليغُ التَّامُّ[1].

• فإنْ كَانَتْ الْمَنْـزِلَةُ الأولى لا تُوَاتِيْكَ وَلا تَعْتَرِيْكَ وَلا تسمَحُ لَكَ عِنْدَ أوَّل نظَرِكِ وفي أوَّلِ تكلُّفِكَ، وتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا، ولم تَصِرْ إلى قَرَارِهَا، وإلى حقِّها من أمَاكنِها المقسومةِ لها، والقافيةَ لَمْ تحُلَّ في مَرْكَزِهَا وفي نِصَابِها، ولم تتَّصلْ بشَكْلِها، وكَانَتْ قَلِقَةً في مَكانِهَا، نافرةً مِن مَوْضِعِها، فلا تُكْرِهْها عَلَى اغتصابِ الأماكنِ، والنُّـزُوْلِ في غَيْرِ أوطانِها.

• فإنّك إذا لَم تَتَعاطَ قَرْضَ الشِّعْرِ الموزونِ، ولم تتكلَّفْ اختيارَ الكلامِ المنثورِ، لَم يَعِبْك بِتَرْكِ ذَلِكَ أحَدٌ.

١- قال بشر: فلما قُرِئَتْ على ابراهيمَ قال لي: أنا أحوَجُ إلى هذا من هؤلاء الفتيان. قال الجاحظ معلقًا على كلام بشر: أما أنا فلم أرَ قطُّ أمْثَلَ طريقةً في البلاغة من الكتّاب؛ فإنهم قد التمَسُوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرًا وحْشيًّا، ولا ساقطًا سُوقيًّا، وإذا سمعتموني أذكُر العَوامّ فإنّي لستُ أعني الفلاّحين والحشْوة والصُّنَّاعَ والباعة، ولستُ أعني أيضًا الأكرادَ في الجبال، وسُكّانَ الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مَثَلَ البربر والطّيلسان، ومثل مُوقَان وجيلان ومثل الزِّنج وأشباه الزّنج، وإنّما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارسُ، والهند، والرّوم، والباقون همجٌ وأشباه الهَمج، وأما العوامّ من أهل ملّتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطّبقة التي عقولُها وأخلاقُها فوقَ تلك الأمم ولم يبلُغوا منـزِلَة الخاصة منا، على أنّ الخاصَة تتفاضل في طبقاتٍ أيضًا، ثم رجع بنا القولُ إلى بقيّة كلام بشرِ بن المعتمر، وإلى ما ذَكَر من الأقسام.

• فإنْ أنتَ تكلّفْتَهُمَا ولم تكُنْ حاذقًا مَطْبوعًا، ولا مُحْكِمًا لشَأنِكَ، بَصِيْرًا بمَا عَلَيْكَ وما لَكَ، عابَكَ مَن أنتَ أقلُّ عَيْبًا مِنْهُ، ورأى مَن هُوَ دُوْنَك أَنَّهُ فوقَك.

• فإن ابتُليت بأنّ تتكلَّفَ القَوْلَ، وتَتَعَاطَى الصَّنْعَةَ، ولَم تسَمَحْ لَكَ الطِّباعُ في أَوَّلِ وَهْلةٍ، وتعاصَى عَلَيْكَ بَعْدَ إجَالَةِ الفِكْرةَ، فلا تعْجَلْ وَلا تَضْجَر، وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وسَوادَ لَيْلَتِكَ، وعاوِدْهُ عِنْدَ نشاطِك وفراغِ بالِكَ؛ فإنَّكَ لا تَعْدَمُ الإجابَةَ والمُواتاةَ، إن كَانَتْ هناك طبيعةٌ، أو جرَيْتَ من الصِّناعة عَلَى عِرْقٍ، فإنْ تمنّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ من غَيْرِ حادثِ شُغْلٍ عِرَضَ، ومن غَيْرِ طُوْلِ إهمالٍ فالمَنْـزِلَةُ الثّالثةُ أن تتحوَّلَ من هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إلى أشْهَى الصِّنَاعَاتِ إلَيْكَ، وأخفِّهَا عَلَيْكَ؛ فإنَّك لَمْ تَشْتَهِه، ولَمْ تنازِعْ إلَيْه إلاّ وبَيْنَكمَا نَسَبٌ، والشّيءُ لا يحِنُّ إلاّ إلى ما يشاكِلُهُ، وَإنْ كَانَتْ المشاكلةُ قَدْ تَكُونُ في طبقاتٍ؛ لأنَّ النُّفُوسَ لا تَجُودُ بِمَكْنونِها مَعَ الرَّغْبَةِ، وَلا تُسْمِح بِمَخْزونِها مَعَ الرّهْبةِ، كما تجودُ بِهِ مَعَ الشَّهْوَةِ والمَحَبَّةِ، فهذا هذا.

• ويَنْبَغِي للمُتَكلّم أنْ يَعْرِفَ أقْـدَارَ المَعَـاني، ويـوازنَ بَيْنَها وبَيْنَ أَقْـدَارِ المُسْتَمِعِيْنَ وبَيْنَ أقْدَارِ الحالات، فيَجْعَلَ لِكُلِّ طَبقةٍ من ذَلِكَ كلامًا، ولِكُلِّ حالةٍ من ذَلِكَ مَقامًا، حتَّى يَقْسِمَ أقْدَارِ الكلام عَلَى أَقْدَارِ المَعَاني، ويَقْسِمَ أقْدَارِ المَعَاني عَلَى أقْدَارِ المَقَامَاتِ، وأقْدَارِ المُسْتَمِعِيْنَ عَلَى أقْدَارِ تِلْكَ الحالاتِ[1].

١- البيان والتبيين: للجاحظ (١/١٣٥)، طبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٨، تحقيق عبد السلام محمد هارون. وانظر: صحيفةُ بِشْرِ بن المُعْتَمِرِ وأثرها في النقد الأدبي: علي مصطفى صبح.

وصية أبي تمام للبحتري في الشعر

أبو تمام (١٨٨-٢٣١هـ) حبيب بن أوس الطائي، صاحب مذهب جديد في الشعر يقوم على اختراع المعاني وإلباسها صورًا يبدو فيها كدُّ الذهن وإعمال الفكر، في شعره قوة وجزالة، كان يحفظ الكثير من أراجيز العرب، ولد في قرية جاسم بسورية ورحل إلى مصر، وولي بريد الموصل.

قال البحتري[١]:كنتُ في حَداثتي أرومُ الشِّعرَ وكنتُ أرجعُ فيه إلى طبعٍ ولم أكنْ أقف على تسهيلِ مأخذِهِ، ووجوه اقتضائِهِ، حتى قصدتُ أبا تمام، وانقطعتُ فيه إليه، واتَّكلتُ في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي:

- يا أبا عبادة؛ تخيَّرْ الأوقاتَ، وأنتَ قليلُ الهمومِ، صِفْرٌ من الغُمُومِ[٢].
- واعلم أن العادةَ في الأوقاتِ أن يقصدَ الإنسانُ لتأليف شيء أو حفظه في وقت السَّحَر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم.
- فإن أردتَ النسيبَ فاجعلِ اللفظَ رقيقًا، والمعنى رشيقًا، وأكثرْ فيه من بيان الصَّبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق.
- وإذا أخذت في مدح سيِّدٍ ذي أيادٍ فأشهرْ مناقبَهُ، وأظْهِرْ مناسبه، وأبِنْ معالمه، وشرِّف مقاومه، وتقاصّ المعاني، واحذر المجهول منها[٣].
- وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزَّريَّة، وكن كأنك خَيَّاط يقطع الثيابَ على مقادير الأجسام.
- وإذا عارضك الضجر أرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإنَّ الشَّهوةَ نِعْمَ المُعِيْنُ.

١- البحتري هو الوليد بن عبيد الله، أبو عبادة ، كان فاضلاً أديبًا فصيحًا بليغا شاعرًا مجيدًا، وكان بعض أهل عصره يقدمونه على أبي تمام، ولد بمنبج من أعمال حلب وبها نشأ.

٢- الصِّفْر والصَّفْر والصُّفْر: الشيء الخالي، والغُمُوم: واحده الغمُّ، وهوالكَرْبُ.

٣- التَّقاصُّ: التناصفُ في القِصَاص، وروي: ونضِّد المعَاني، بدل وتقاص المعاني.

- وجملة الحـال: أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين، فما استحسنته العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه ترشد، إن شاء اللّه تعالى[1].

وَصِيَّةُ الإمام البخاري لأبي المظفر البخاري

قَالَ أبو العَبَّاسِ (الوَلِيْدُ بنُ إِبْرَاهِيمَ بن يَزِيْدِ الهمَدَانيِّ): لَمَّا بَلَغْتُ مَبْلَغَ الرِّجَالِ تاقَتْ نَفْسِي إلى طَلَبِ الْحَدِيثِ ورواية الأخبارِ وسَمَاعِهَا، فَقَصَدْتُ مُحَمَّدَ بنَ إِسْمَاعِيلِ البخاريَّ ببخارى صَاحِبَ التَّاريخِ، والمنظور إِلَيْهِ في عِلْمِ الْحَدِيثِ، وأَعْلَمْتُهُ مُرادي، وسألتُهُ الإقبالَ عَلَى ذَلِكَ، فقَالَ لي[2]:

- يا بنيّ، لا تَدْخُلْ في أَمْرٍ إلاّ بَعْدَ مَعْرِفَةِ حُدُودِهِ والوقوفِ عَلَى مَقَاديْرِهِ، فقلتُ: عرِّفْنِي رَحِمَكَ اللّهُ تَعَالَى حدود ما قصدتك لَهُ، ومقادير ما سألتك عَنْهُ.
- فقَالَ لي: اعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ لا يَصِيْرُ مُحدِّثًا كاملاً في حديْثِه إلاّ بَعْدَ أن يَكْتُبَ أَرْبَعًا في أَرْبَعٍ، كأَرْبَعٍ، مِثْلَ أَرْبَعٍ في أَرْبَعٍ، عِنْدَ أَرْبَعٍ بأَرْبَعٍ عَلَى أَرْبَعٍ، عَنْ أَرْبَعٍ لأَرْبَعٍ، وكل هَذِهِ الرُّباعيَّاتِ لا تَتِمُّ إلاّ بأَرْبَعٍ مَعَ أَرْبَعٍ، فإِذَا تَمَّتْ لَهُ كلُّها هانَ عَلَيْهِ أَرْبَعٌ، وابتليَ بأَرْبَعٍ، فإِذَا صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ أكرمه اللّه تَعَالَى في الدُّنْيَا بأَرْبَعٍ وأثابه في الآخِرَةِ بأَرْبَعٍ.
- قلت لَهُ: فَسِّرْ رَحِمَكَ اللّهُ تَعَالَى ما ذكرتَ من أحوالِ هَذِهِ الرُّباعياتِ من

١- وردت هذه الوصية في مصادر عدة، مع بعض الاختلاف بألفاظها؛ وانظرها في «منهاج الأدباء وسراج البلغاء» لأبي الحسن حازم بن محمّد القرطاجني، و«صبح الأعشى» للقلشندي. و«العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»: لابن رشيق القيرواني.

٢- الإمام البخاري (١٩٤-٢٥٦ هـ) أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، أعلم أهل الحديث في زمانه، كان غاية في الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدنيا، هاجر في طلب الحديث إلى مكة المكرمة، وخراسان، والعراق، ومصر، والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مائة ألف حديث، اختار منها في صحيحه ما وثق بروايته، وهو أول من وضع في الإسلام كتابًا على هذا النحو. قال ابن خزيمة: ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري.

قلبٍ صَافٍ، بشَرْحٍ كافٍ، وبَيَانٍ شافٍ، طلبًا للأَجْرِ الوَافِي.

- فقَالَ: نعم، أمَّا الأَرْبَعُ التي تحتاج إلى كتْبِهَا فهي: أخبارُ الرسول ﷺ وشرائعهُ، والصَّحَابَةِ رَضِيَ اللّه تَعَالَى عَنْهُمْ ومقاديرهم، والتابعين وأحْوَالِهِم، وسائر الْعُلَمَاءِ وتواريخِهم، مَعَ أسماءِ رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمانِهم.
- كالتحميد مَعَ الخطبِ، والدُّعَاءِ مَعَ التوسّلِ، والبسملةِ مَعَ السورةِ، والتكبيرِ مَعَ الصلواتِ.
- مِثْلَ المسندات، والمرسلات، والموقوفات، والمقطوعات. وفي صغره، وفي إدراكه، وفي شبابِه، وفي كهولته. عِنْدَ فراغه، وعِنْدَ شغله، وعِنْدَ فقره وعِنْدَ غناه. بالجبال، والبحار، والبلدان، والبراري. على الأحجار، والأخزاف، والجلود، والأكتاف. إلى الوَقْتِ الَّذي يمكنه نقلها إلى الأوراق، عمّن هُوَ فوقه، وعمّن هُوَ مِثْلَه، وعمّن هُوَ دُوْنَهُ.
- وعن كتاب أبيه يتيقّن أَنَّهُ بخط أبيه دُوْنَ غَيْرِه، لوجه اللّه تَعَالَى طلبًا لمرضاته. والْعَمَل بما وافق كتاب اللّه عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا، ونشرها بَيْنَ طالبيها ومحبيها، والتأليف في إحياء ذكره بَعْدَه.
- ثُمَّ لا تتم لَهُ هَذِهِ الأشياء إلاّ بأَرْبَعٍ هي من كسب العَبْدِ، أعني: مَعْرِفَةَ الْكِتَابَةِ واللُّغَةِ والصرفِ والنحو.
- مع أَرْبَعٍ هي من إعطاءِ اللّهِ تَعَالَى، أعني: القُدرةَ، والصِّحَّةَ، والحِرْصَ، والحِفْظِ.
- فإِذَا صحَّتْ لَهُ هَذِهِ الأشياءَ كلّها هانَ عَلَيْهِ أَرْبَعٌ: الأهلُ، والولدُ، والمَالُ، والوطنُ.
- وابتلي بأَرْبَعٍ: بشماتةِ الأعداء، وملامةِ الأصدقاء، وطعنِ الجهلاء، وحَسَدِ الْعُلَمَاءِ.
- فإِذَا صَبَرَ عَلَى هَذِهِ المحنِ أكرمَهُ اللّهُ جلَّ وعَلا في الدُّنْيَا بأَرْبَعٍ: بعزِّ القناعةِ، وَبِهَيْبَةِ النَّفْسِ، وبلذّة الْعِلْمِ، وبحياةِ الأبَدِ.

- وأثابَهُ في الآخِرَة بأَرْبَع: الشَّفَاعَةِ لمن أَرَادَ من إخوانِه، وبظلِّ العَرْشِ حَيْثُ لا ظلَّ إلاّ ظِلُّهُ، وبسَقْيِ من أَرَادَ من حَوْضِ نَبِيِّه ﷺ بجوارِ النَّبِيِّينَ في أعْلى عِلِّيِّينَ في الجنَّةِ.
- فَقَدْ أعلمتُكَ يا بُنَيَّ بِمُجْمَلاتِ جَمِيْعِ ما سَمِعْتُ من مَشَايِخِي مُتَفرِّقًا في هَذا الباب، فأَقْبِلِ الآنَ إلى ما قَصَدْتَنِي لَهُ أَوْ دَعْ.
- قال: فَهَالَنِي فسكتُّ متفكرًا، وأطرقتُ متأدبًا، فلما رأى ذلك مني قال: وإن لم تطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه، يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قارٌّ ساكنٌ لا تحتاج إلى بعد الأسفار، ووطء الديار، وركوب البحار، وهو ذا ثمرة الحديث، وليس ثواب الفقه دون ثواب المحدّث في الآخرة، ولا عزّه بأقلّ من عز المحدث. فلما سمعت ذلك نقض عزمي في طلب الحديث، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت فيه متقدمًا، ووقفت منه على معرفة ما أمكنني من علمه بتوفيق الله تعالى ومنته، فلذلك لم يكن عندي ما أمليه لهذا الصبي يا أبا إبراهيم، فقال له أبو إبراهيم: إن هذا الحديث الواحد الذي لا يوجد عند غيرك خيرٌ للصبي من ألف حديث يجده عند غيرك، انتهى[1].

١- أورد المَقَّريُّ هذه الوصية في (نفح الطيب) ... فقال: قال أبو المظفر (محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري): لما عزل أبو العباس (الوليد بن إبراهيم بن يزيد الهمداني) عن قضاء الري ورد بخارى سنة ٣١٨ لجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي، فنزل في جوارنا، فحملني معلمي أبو إسحاق بن إبراهيم الختلي إليه فقال له: أسألك أن تحدث هذا الصبي ما سمعته من مشايخك فقال: ما لي سماع، فقال: وكيف وأنت فقيه، فما هذا، قال: لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي إلى طلب الحديث ورواية الأخبار وسماعها، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى... (٣٣٣/٢).

وصية للمحدِّث

المراد بـ«المُحَدِّث»: من يشتغل بعلم حديث النبي ﷺ بطريق الرواية والدراية، والعلم بأسماء الرجال، وطرق الأحاديث، والمعرفة بالأسانيد ونحو ذلك.

و«المُسْنِدُ»: من يروي الحديث بسنده، سواء أعنده علم به أم ليس له إلا مجرد الرواية.

و«الحَافِظُ»: مرادف للمحدث عند كثير من المحدثين. وقيل: إنه أرفع منه درجة بحيث يكون ما يعرفه في الطبقة أكثر مما يجهله.

و«الحَاكِمُ»: هو من أحاط علمًا بالأحاديث حتى لا يفوته منها إلا اليسير.

و«أميرُ المؤمنين»: في الحديث، أعلى منهم جميعًا، وبه يلقب شعبة بن الحجاج والبخاري.

قال القلقشندي في وصية المحدث:

- المحدِّثُ وقد أصبحَ بالسنَّة النبويةِ مضطلعًا، وعلى ما جمعته طرقُ أهلِ الحديثِ مُطَّلعًا.
- وصحَّ في الصَّحيحِ أنَّ حديثَه الحسنُ، وأنَّ المرسلَ منه في الطلب مقطوعٌ عنه كلُّ ذي لَسَنٍ.
- وأنَّ سنَدَهُ هو المأخوذُ عن العوالي، وسَماعَهُ هو المرقِّص منه طولَ الليالي.
- وأنَّ مثله لا يوجدُ في نسبِهِ المُعْرِقُ، ولا يعرَفُ مثْلُهُ للحافظيْنِ ابنِّ عبد البَرِّ بالمغربِ وخطيبِ بغدادَ بالمشرقِ.
- وهو يعلمُ مقدارَ طلبِ الطالبِ فَإِنَّهُ طالَمَا شدّ لَهُ النِّطاق، وسعى لَهُ سعيه وتجشَّم المشاقَّ.

- ورحلَ لَهُ يشتدُّ به حرصُهُ والمطايا مُرْزِمةٌ، وينبهه لَهُ طلبُه والجفونُ مقفَلةٌ والعيونُ مُهَوِّمةٌ[1].

- ووقفَ على الأبوابِ لا يُضْجِرُهُ طولُ الوقوفِ حتى يؤذَن لَهُ في ولوجِها، وقَعَدَ القُرفُصاءَ في المجالسِ لا تضيقَ به على قِصَرٍ فروجها.

- فليعاملِ الطلبةَ إذا أتَوْهُ للفائدةِ معاملةَ من جرَّبَ، ولينشِّطِ الأقرباءَ منهم ويُؤنِسِ الغرباءَ فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريبٍ وآونةً تَغرَّبَ.

- وليُسْفِرْ لهم صباحُ قصدِهِ عن النَّجاحِ، ولينتقِ لهم منه عُقُوده الصِّحاحِ.

- وليوضِّحْ لهم الحديثَ، وليُرِحْ خواطرَهم بتقريبه ما كانَ يُسارُ إليه السَّيْرَ الحثيثَ.

- وليُؤتِهمْ مما وسَّعَ اللَّه عليه فيه المجالَ، ويعلِّمُهُم ما يجبُ تعليمُهُ من المتونِ والرِّجالِ.

- ويبصِّرُهُم بمواقعِ الجرحِ والتَّعديلِ والتَّوجيهِ والتَّعليلِ، والصَّحيحِ والمعتلِّ الذي تتناثرُ أعضاؤُهُ سُقْمًا كالعليل، وغير ذلك مما لرجالِ هذا الشأنِ به عناية، وما يُنقِّبُ فيه عن درايةٍ أو يُقْنَعُ فيه بمجرَّدِ رواية، ومثله ما يُزاد حلمًا ولا يُعْرَف بمن رَخَّصَ في حديثٍ موضوعٍ أو كَتَمَ عِلمًا[2].

١- رَزَمَ البعيرُ: سقط من جوع أو مرض. والهَوْم والتَّهَوُّم والتَّهْويم: النوم الخفيف.

٢- صبح الأعشى: للقلقشندي ١١/ ٢٤٨. ونسبها لكتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) للمقر الشهابي، أحمد بن فضل الله العدوي العمري.

وَصِيَّةُ ابن حزم بآداب مجلس العلم

عليّ بن أحمدَ بن سعيدٍ بنِ حَزْم الظَّاهِرِيِّ (ت: ٤٥٦ هـ) عالمُ الأندلسِ في عَصْرِه، وأحَدُ أئِمَّةِ الإسلام، قَالَ عَنْهُ الحافظُ الذهبيُّ: وابنُ حزم رَجُلٌ من الكبارِ، فِيهِ أدواتُ الاجتهادِ كاملةٌ، تقعُ لَهُ المسائلُ المُحرَّرةُ والمسائلُ الواهيةُ، كما تقعُ لِغَيْرِهِ. لُقِّبَ بناصرِ السُّنَّةِ وقامعِ البدعةِ، كَانَتْ لَهُ ولأبيهِ من قَبْلِهِ رياسةُ الوزارةِ وتدبيْرُ المملكةِ، فزهِدَ بِهَا وانصرفَ إلى العِلْمِ والتأليفِ،كان يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة بعيدًا عن المصانعة، انتقد كثيرًا من العلماء والفقهاء، وكان يقال: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان،

قَالَ مُوْصِيًا بحضورِ مجالسِ العِلْم[1]:

- إِذَا حَضَرْتَ مَجْلِسَ عِلْمٍ فلا يكُنْ حضورُك إلا حضورَ مستزيدٍ علمًا وأجرًا، لا حضورَ مستغنٍ بما عِنْدَك، طالبًا عثرةً تشيعُها، أو غريبةً تشنِّعُها، فهَذِهِ أفعالُ الأرْذالِ الذينَ لا يُفلحونَ في العِلْمِ أبدًا.
- فإِذَا حَضَرْتَها عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ فَقَدْ حَصَّلْتَ خَيْرًا عَلَى كُلِّ حالٍ، وَإِنْ لَمْ تحضُرْها عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ فجلوسُكَ في مَنْزِلِكِ أرْوَحُ لبدنِكَ، وأكرمُ لِخُلُقِكَ، وأسلمُ لدِيْنِكَ.
- فإِذَا حَضَرْتَها (كما ذَكَرْنا) فالتزمْ أحَدَ ثلاثةِ أوجهٍ لا رابعَ لَهَا.
- وهي: إمَّا أَنْ تسكتَ سكوتَ الجهَّالِ؛ فتَحْصُلَ عَلَى أجرِ النِّيَّةِ في المشاهدةِ وعلى الثَّناءِ عَلَيْكَ بقلَّةِ الفضولِ، وعلى كَرَمِ المجالسةِ، ومودَّةِ من تُجالسُ.
- فإن لَمْ تفعل ذَلِكَ: فاسألْ سُؤالَ المُتَعَلِّم، فتَحْصُلَ عَلَى هَذِهِ الأَرْبَعِ مَحَاسِنَ، وعلى خامسةٍ، وهي استزادةُ العِلْمِ.
- وصفة سؤالِ المُتَعَلِّمِ: أَنْ تسألَ عَمَّا لا تدري لا عَمَّا تدري، فَإِنَّ السُّؤالَ

١- انظر: الإمام ابن حزم إمام أهل الأندلس: محمد أبو صعيليك. وتحقيق ترجمة ابن حزم في سير أعلام النبلاء: لسعيد الأفغاني.

عَمَّا تدريه سَخَفٌ، وقلةُ عقل، وشُغْلٌ لكلامِكَ وقطعٌ لزمانِكَ بما لا فائدةَ فِيهِ لا لَكَ وَلا لِغَيْرِك، وربَّما أدَّى إلى اكتسابِ العَداواتِ، وهو بَعْدُ عَيْنُ الفُضولِ.

- فيَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ لا تَكُونَ فضوليًا؛ فَإنَّها صفةُ سوءٍ، فإن أجابَكَ الَّذِي سألتَ بما فِيهِ كفايةٌ لَكَ فاقطع الكلامَ، وَإنْ لَمْ يجبْكَ بما فِيهِ كفايةٌ، أو أجابَكَ بما لَمْ تفهمْ فقلْ لَهُ: لَمْ أفهمْ واستزدْهُ، فإن لَمْ يزدك بيانًا وسكَتَ أو أعادَ عَلَيْكَ الكلامَ الأَوَّلَ وَلا مَزِيْدَ فأمْسِكْ عَنْهُ، وإلا حَصَّلْتَ عَلَى الشَّرِّ والعَدَاوَةِ ولم تَحْصُلْ عَلَى ما تُرِيْدُ من الزِّيادةِ.
- والوجهُ الثَّالثُ: أَنْ تراجعَ مراجعةَ العالم، وَصِفَةُ ذَلِكَ أَنْ تعارضَ جوابَهُ بما ينقضُهُ نقضًا بيِّنًا، فإن لَمْ يكُنْ ذَلِكَ عِنْدَك ولم يكنْ عِنْدَكَ إلا تكرارُ قولِكَ، أو المعارضةُ بما لا يراه خصمُكَ معارضةً فأمسكْ، فَإنَّك لا تَحْصُلُ بتكرارِ ذَلِكَ عَلَى أجرٍ، وَلا عَلَى تعليم، وَلا عَلَى تعلُّم، بَلْ عَلَى الغيظِ لَكَ ولخصمِكَ، والعَدَاوَةِ التي ربَّما أدَّتْ إلى المضرَّاتِ.
- وإيَّاكَ وسؤالَ المُعْنِتِ، ومراجَعَةَ المُكابِرِ الَّذِي يَطْلُبُ الغَلَبَةَ بغَيْرِ علم، فهما خُلُقَا سوءٍ، دليلانِ عَلَى قِلَّةِ الدِّيْنِ، وكَثْرَةِ الفضولِ، وضعفِ العَقْلِ، وقُوَّةِ السَّخْفِ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.
- وإذَا وَرَدَ عَلَيْكَ خطابٌ بلسانٍ، أو هَجَمْتَ عَلَى كلامٍ فِي كتابٍ، فإيَّاكَ أَنْ تقابلَهُ مقابلةَ المغاضَبَةِ الباعثةِ عَلَى المغالَبَةِ، قَبْلَ أَنْ تَتَبَيَّنَ بُطْلانَهُ بِبُرْهانٍ قاطعٍ.
- وأيضًا فلا تُقْبِلْ عَلَيْهِ إقبالَ المُصدِّقِ بِهِ المستحسنِ إيَّاهُ قَبْلَ علمِكَ بصحَّتِهِ بِبُرْهانٍ قاطعٍ فتظلمَ فِي كلا الوَجْهينِ نَفْسَكَ، وتَبْعُدَ عَنْ إدراكِ الحقيقةِ، ولَكِنْ أَقْبِلْ عَلَيْهِ إقبالَ سالمِ القَلْبِ عَن النِّزَاعِ عَنْهُ، والنُّزوعِ إِلَيْهِ، إقبالَ من يُرِيدُ حظَّ نَفْسِهِ فِي فهمِ ما سَمِعَ ورأى[1].

١- إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب: محمد بن عبدالعزيز المانع، دار الريان، الفجيرة، عن (مجموع رسائل ابن حزم).

وَصِيَّةُ الإمَامِ أبي حنيفة لتلميذه أَبي يُوسُفَ

قَالَ أبو يوسُف: توفي والدي وأنا صغيرٌ فأسلمتني أمِّي إلى القصَّارِ فكنتُ أمرُّ عَلَى حلقَةِ أبي حنيفة فأجلسُ فِيهَا، فكَانَتْ أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقةِ وتذهبُ بي إلى القصَّارِ، ثُمَّ كُنْتُ أخالفُها في ذَلِكَ، وأذهبُ إلى أبي حنيفةَ، فلَمَّا طالَ ذَلِكَ عَلَيْهَا قَالَت لأبي حنيفةَ: إنَّ هَذا صَبِيٌّ يتيمٌ لَيْسَ لَهُ شيءٌ إلا ما أطعِمُهُ من مغزلي، وإنك قَدْ أفسدتَهُ عليَّ، فقَالَ لها: اسكتي يا رَعْنَاءُ ها هُوَ ذا يتعلَّمُ العِلْمَ وسيأكلُ الفالوذجَ بدُهْنِ الفُسْتُقِ في صُحُونِ الفيروزجِ، فقَالَت له: إنَّكَ شَيْخٌ قَدْ خَرِفْتَ. قَالَ أبو يوسفَ: فلَمَّا وُلِّيتُ القضاءَ، فبينما أنا ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَ الرَّشيدِ إذْ أتي بالفالوذجِ في صَحنِ فيروزجَ فتبسَّمْتُ، فقَالَ الرَّشيدُ: مَا لَكَ تَبَسَّمُ، فقلتُ: لا شيءَ أبقى اللهُ أميرَ المُؤمنِيْنَ، فقَالَ الرَّشيدُ: إنَّ العِلْمَ يَنفَعُ ويرفعُ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، رحِمَ اللهُ أبا حنيفةَ فلقد ينظرُ بعيْنِ عقلِهِ ما لا ينظرُ بعينِ رأسِهِ[1].

قَالَ أبو حنيفةِ لأَبي يُوسُفَ رحمها الله بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لَهُ مِنْهُ الرُّشْدُ وَحُسْنُ السِّيرَةِ وَالإِقْبَالُ عَلَى النَّاسِ:

- يَا يَعْقُوبُ، وَقِّرْ السُّلْطَانَ، وَعَظِّمْ مَنْزِلَتَهُ، وَإِيَّاكَ وَالْكَذِبَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالدُّخُولَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا لَمْ يَدْعُك لِحَاجَةٍ عَلَيْهِ، فَإِنَّك إِذَا أَكْثَرْت إِلَيْهِ الاخْتِلافَ تَهَاوَنَ بِك وَصَغُرَتْ مَنْزِلَتُك عِنْدَهُ، فَكُنْ مِنْهُ كَمَا أَنْتَ مِنْ النَّارِ تَنْتَفِعُ وَتَتَبَاعَدُ وَلا تَدْنُ مِنْهَا، فَإِنَّ السُّلْطَانَ لا يَرَى لأَحَدٍ مَا يَرَى لِنَفْسِهِ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْكَلامِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ عَلَيْكَ مَا قُلْته لِيُرِيَ مِنْ نَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ حَاشِيَتِهِ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْك وَأَنَّهُ يُخَطِّئُكَ فَتَصْغُرَ فِي أَعْيُنِ قَوْمِهِ، وَلْتَكُنْ إذَا دَخَلْت عَلَيْهِ تَعْرِفُ قَدْرَك وَقَدْرَ غَيْرِك، وَلا تَدْخُلْ

١- أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي (١١٣-١٨٢هـ) فقيه، علامة، من حفاظ الحديث، ولي القضاء أيام المهدي والرشيد، ونشر مذهب أبي حنيفة، وهو أول من دعي بـ (قاضي القضاة)، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، كان واسع العلم في التفسير والمغازي وأيام العرب (البداية والنهاية).

عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ لا تَعْرِفُهُ فَإِنَّك إِنْ كُنْت أَدْوَنَ حَالا مِنْهُ لَعَلَّك تَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ فَيَضُرُّك، وَإِنْ كُنْت أَعْلَمَ مِنْهُ لَعَلَّك تَحُطُّ عَنْهُ فَتَسْقُطُ بِذَلِكَ مِنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ، وَإِذَا عَرَضَ عَلَيْك شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ فَلا تَقْبَلْ مِنْهُ إلا بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ يَرْضَاك وَيَرْضَى مَذْهَبَك فِي الْعِلْمِ وَالْقَضَايَا، كَيْ لا تَحْتَاجَ إلَى ارْتِكَابِ مَذْهَبِ غَيْرِك فِي الْحُكُومَاتِ وَلا تُوَاصِلْ أَوْلِيَاءَ السُّلْطَانِ وَحَاشِيَتَهُ بَلْ تَقَرَّبْ إلَيْهِ فَقَطْ وَتَبَاعَدْ عَنْ حَاشِيَتِهِ لِيَكُونَ مَجْدُك وَجَاهُك بَاقِيًا.

- وَلا تَتَكَلَّمْ بَيْنَ يَدَيْ الْعَامَّةِ إلا بِمَا تُسْأَلُ عَنْهُ، وَإِيَّاكَ وَالْكَلامَ فِي الْعَامَّةِ وَالتِّجَارَةِ إلا بِمَا يَرْجِعُ إلَى الْعِلْمِ؛ كَيْ لا يُوقَفَ عَلَى حُبِّك رَغْبَتُك فِي الْمَالِ؛ فَإِنَّهُمْ يُسِيئُونَ الظَّنَّ بِك وَيَعْتَقِدُونَ مَيْلَك إلَى أَخْذِ الرِّشْوَةِ مِنْهُمْ، وَلا تَضْحَكْ وَلا تَتَبَسَّمْ بَيْنَ يَدَيْ الْعَامَّةِ.

- وَلا تُكْثِرْ الْخُرُوجَ إلَى الأَسْوَاقِ، وَلا تُكَلِّمْ الْمُرَاهِقِينَ فَإِنَّهُمْ فِتْنَةٌ، وَلا بَأْسَ أَنْ تُكَلِّمَ الأَطْفَالَ وَتَمْسَحَ رُءُوسَهُمْ. وَلا تَمْشِ فِي قَارِعَةِ الطَّرِيقِ مَعَ الْمَشَائِخِ وَالْعَامَّةِ؛ فَإِنَّك إنْ قَدَّمْتَهُمْ ازْدَرَى ذَلِكَ بِعِلْمِك، وَإِنْ أَخَّرْتَهُمْ ازْدَرَى بِك مِنْ حَيْثُ إنَّهُ أَسَنُّ مِنْك، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَلَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا فَلَيْسَ مِنَّا[1].

- وَلا تَقْعُدْ عَلَى قَوَارِعِ الطَّرِيقِ، فَإِذَا دَعَاك ذَلِكَ فَاقْعُدْ فِي الْمَسْجِدِ، وَلا تَأْكُلْ فِي الأَسْوَاقِ وَالْمَسَاجِدِ، وَلا تَشْرَبْ مِنْ السِّقَايَاتِ وَلا مِنْ أَيْدِي السَّقَّائِينَ، وَلا تَقْعُدْ عَلَى الْحَوَانِيتِ.

- وَلا تَلْبَسْ الدِّيبَاجَ وَالْحُلِيَّ وَأَنْوَاعَ الإبْرَيْسَمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إلَى الرُّعُونَةِ.

- وَلا تُكْثِرْ الْكَلامَ فِي بَيْتِك مَعَ امْرَأَتِك فِي الْفِرَاشِ إلا وَقْتَ حَاجَتِك إلَيْهَا بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَلا تُكْثِرْ لَمْسَهَا وَمَسَّهَا وَلا تَقْرَبْهَا إلابِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

١- «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا» رواه الترمذي.

- وَلا تَتَكَلَّمْ بِأَمْرِ نِسَاءِ الْغَيْرِ بَيْنَ يَدَيْهَا وَلا بِأَمْرِ الْجَوَارِي؛ فَإِنَّهَا تَنْبَسِطُ إِلَيْك فِي كَلامِك، وَلَعَلَّك إِذَا تَكَلَّمْت عَنْ غَيْرِهَا تَكَلَّمَتْ عَنْ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ.
- وَلا تَتَزَوَّجْ امْرَأَةً كَانَ لَهَا بَعْلٌ أَوْ أَبٌ أَوْ أُمٌّ أَوْ بِنْتٌ إنْ قَدَرْت، إلا بِشَرْطِ أَنْ لا يَدْخُلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِك، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ مَالٍ يَدَّعِي أَبُوهَا أَنَّ جَمْعَ مَالِهَا لَهُ وَأَنَّهُ عَارِيَّةٌ فِي يَدِهَا، وَلا تَدْخُلْ بَيْتَ أَبِيهَا مَا قَدَرْت.
- وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى أَنْ تُزَفَّ فِي بَيْتِ أَبَوَيْهَا؛ فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَمْوَالَك وَيَطْمَعُونَ فِيهَا غَايَةَ الطَّمَعِ.
- وَإِيَّاكَ وَأَنْ تَتَزَوَّجَ بِذَاتِ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ، فَإِنَّهَا تَدَّخِرُ جَمِيعَ الْمَالِ لَهُمْ وَتَسْرِقُ مِنْ مَالِكَ وَتُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْوَلَدَ أَعَزُّ عَلَيْهَا مِنْك.
- وَلا تَجْمَعْ بَيْنَ امْرَأَتَيْنِ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ.
- وَلا تَتَزَوَّجْ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّك تَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِجَمِيعِ حَوَائِجِهَا.
- وَاطْلُبْ الْعِلْمَ أَوَّلا ثُمَّ اجْمَعْ الْمَالَ مِنْ الْحَلالِ ثُمَّ تَزَوَّجْ؛ فَإِنَّك إنْ طَلَبْت الْمَالَ فِي وَقْتِ التَّعَلُّمِ عَجَزْت عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَدَعَاك الْمَالُ إِلَى شِرَاءِ الْجَوَارِي وَالْغِلْمَانِ، وَتَشْتَغِلُ بِالدُّنْيَا وَالنِّسَاءِ قَبْلَ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَيَضِيعُ وَقْتُك وَيَجْتَمِعُ عَلَيْك الْوَلَدُ وَيَكْثُرُ عِيَالُك فَتَحْتَاجُ إِلَى الْقِيَامِ بِمَصَالِحِهِمْ وَتَتْرُكُ الْعِلْمَ.
- وَاشْتَغِلْ بِالْعِلْمِ فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِك، وَوَقْتِ فَرَاغِ قَلْبِكَ وَخَاطِرِك، ثُمَّ اشْتَغِلْ بِالْمَالِ لِيَجْتَمِعَ عِنْدَك؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْوَلَدِ وَالْعِيَالِ يُشَوِّشُ الْبَالَ، فَإِذَا جَمَعْت الْمَالَ فَتَزَوَّجْ.
- وَعَلَيْك بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَالنَّصِيحَةِ لِجَمِيعِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَلا تَسْتَخِفَّ بِالنَّاسِ، وَوَقِّرْ نَفْسَك وَوَقِّرْهُمْ، وَلا تُكْثِرْ مُعَاشَرَتَهُمْ

إلا بَعْدَ أَنْ يُعَاشِرُوك، وَقَابِلْ مُعَاشَرَتَهُمْ بِذِكْرِ المَسَائِلِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ اشْتَغَلَ بِالْعِلْمِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ أَحَبَّك.

- وَإِيَّاكَ وَأَنْ تُكَلِّمَ الْعَامَّةَ بِأَمْرِ الدِّينِ فِي الْكَلامِ؛ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ يُقَلِّدُونَك فَيَشْتَغِلُونَ بِذَلِكَ، وَمَنْ جَاءَك يَسْتَفْتِيك فِي المَسَائِلِ فَلا تُجِبْ إلا عَنْ سُؤَالِهِ، وَلا تَضُمَّ إِلَيْهِ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّهُ يُشَوِّشُ عَلَيْك جَوابَ سُؤَالِهِ.
- وَإِنْ بَقِيت عَشْرَ سِنِينَ بِلا كَسْبٍ وَلا قُوتٍ فَلا تُعْرِضْ عَنِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّك إِذَا أَعْرَضْت عَنْهُ كَانَتْ مَعِيشَتُك ضَنْكًا.
- وَأَقْبِلْ عَلَى مُتَفَقِّهِيك كَأَنَّك اتَّخَذْت كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ابْنًا وَوَلَدًا؛ لِتَزِيدَهُمْ رَغْبَةً فِي الْعِلْمِ، وَمَنْ نَاقَشَك مِنَ الْعَامَّةِ وَالسُّوقَةِ فَلا تُنَاقِشْهُ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ مَاءَ وَجْهِك.
- وَلا تَحْتَشِمْ مِنْ أَحَدٍ عِنْدَ ذِكْرِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ سُلْطَانًا.
- وَلا تَرْضَ لِنَفْسِك مِنَ الْعِبَادَاتِ إِلاّ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَفْعَلُهُ غَيْرُك وَيَتَعَاطَاهَا، فَالْعَامَّةُ إِذَا لَمْ يَرَوْا مِنْك الإِقْبَالَ عَلَيْهَا بِأَكْثَرَ مِمَّا يَفْعَلُونَ اعْتَقَدُوا فِيكَ قِلَّةَ الرَّغْبَةِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ عِلْمَك لا يَنْفَعُك إِلاّ مَا نَفَعَهُمْ الْجَهْلُ الَّذِي هُمْ فِيهِ.
- وَإِذَا دَخَلْتَ بَلْدَةً فِيهَا أَهْلُ الْعِلْمِ فَلا تَتَّخِذْهَا لِنَفْسِك، بَلْ كُنْ كَوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّك لا تَقْصِدُ جَاهَهُمْ، وَإِلاّ يَخْرُجُونَ عَلَيْك بِأَجْمَعِهِمْ، وَيَطْعَنُونَ فِي مَذْهَبِك، وَالْعَامَّةُ يَخْرُجُونَ عَلَيْك وَيَنْظُرُونَ إِلَيْك بِأَعْيُنِهِمْ فَتَصِيرُ مَطْعُونًا عِنْدَهُمْ بِلا فَائِدَةٍ، وَإِنْ اسْتَفْتَوْك المَسَائِلَ فَلا تُنَاقِشْهُمْ فِي الْمُنَاظَرَةِ وَالْمُطَارَحَاتِ، وَلا تَذْكُرْ لَهُمْ شَيْئًا إِلاّ عَنْ دَلِيلٍ وَاضِحٍ، وَلا تَطْعَنْ فِي أَسَاتِذَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَطْعَنُونَ فِيكَ.
- وَكُنْ مِنَ النَّاسِ عَلَى حَذَرٍ، وَكُنْ للهِ تَعَالَى فِي سِرِّك كَمَا أَنْتَ لَهُ فِي عَلانِيَتِك، وَلا تُصْلِحُ أَمْرَ الْعِلْمِ إلا بَعْدَ أَنْ تَجْعَلَ سِرَّهُ كَعَلانِيَتِهِ.

- وَإِذَا أَوْلاك السُّلْطَانُ عَمَلا لا يَصْلُحُ لَكَ فَلا تَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ إلا بَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُوَلِّيك ذَلِكَ إلا لِعِلْمِك.
- وَإِيَّاكَ وَأَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَجْلِسِ النَّظَرِ عَلَى خَوْفٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوَرِّثُ الْخَلَلَ فِي الإِحَاطَةِ وَالْكَلَّ فِي اللِّسَانِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُكْثِرَ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ.
- وَلا تَمْشِ إلا عَلَى طُمَأْنِينَةٍ، وَلا تَكُنْ عَجُولا فِي الأُمُورِ، وَمَنْ دَعَاك مِنْ خَلْفِك فَلا تُجِبْهُ، فَإِنَّ الْبَهَائِمَ تُنَادَى مِنْ خَلْفِهَا.
- وَإِذَا تَكَلَّمْت فَلا تُكْثِرْ صِيَاحَك، وَلا تَرْفَعْ صَوْتَك، وَاتَّخِذْ لِنَفْسِك السُّكُونَ وَقِلَّةَ الْحَرَكَةِ عَادَةً كَيْ يَتَحَقَّقَ عِنْدَ النَّاسِ ثَبَاتُك.
- وَأَكْثِرْ ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ لِيَتَعَلَّمُوا ذَلِكَ مِنْك، وَاتَّخِذْ لِنَفْسِك وِرْدًا خَلْفَ الصَّلاةِ تَقْرَأُ فِيهَا الْقُرْآنَ وَتَذْكُرُ اللَّه تَعَالَى وَتَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْدَعَك مِنْ الصَّبْرِ وَأَوْلاك مِنْ النِّعَمِ.
- وَاتَّخِذْ لِنَفْسِك أَيَّامًا مَعْدُودَةً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ تَصُومُ فِيهَا لِيَقْتَدِيَ بِهِ غَيْرُك بِك، وَرَاقِبْ نَفْسَك، وَحَافِظْ عَلَى الْغَيْرِ تَنْتَفِعُ مِنْ دُنْيَاك وَآخِرَتِك بِعِلْمِك.
- وَلا تَشْتَرِ بِنَفْسِك وَلا تَبِعْ، بَلْ اتَّخِذْ لَك غُلامًا مُصْلِحًا يَقُومُ بِأَشْغَالِكَ وَتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِك.
- وَلا تَطْمَئِنَّ إلَى دُنْيَاك وَإِلَى مَا أَنْتَ فِيهِ، فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى سَائِلُك عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ.
- وَلا تَشْتَرِ الْغِلْمَانَ الْمُرْدَانَ، وَلا تُظْهِرْ مِنْ نَفْسِك التَّقَرُّبَ إلَى السُّلْطَانِ وَإِنْ قَرَّبَك، فَإِنَّهُ تُرْفَعُ إلَيْك الْحَوَائِجُ، فَإِنْ قُمْت أَهَانَك وَإِنْ لَمْ تَقُمْ أَعَابَك.
- وَلا تَتَّبِعْ النَّاسَ فِي خَطَايَاهُمْ بَلْ اتَّبِعْ فِي صَوَابِهِمْ، وَإِذَا عَرَفْت إنْسَانًا بِالشَّرِّ فَلا تَذْكُرْهُ بِهِ، بَلْ اُطْلُبْ مِنْهُ خَيْرًا فَاذْكُرْهُ بِهِ إلا فِي بَابِ الدِّينِ، فَإِنَّك إنْ عَرَفْت فِي دِينِهِ ذَلِكَ فَاذْكُرْهُ لِلنَّاسِ كَيْ لا يَتَّبِعُوهُ وَيَحْذَرُوهُ، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: «اُذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ وَإِنْ كَانَ

ذَا جَاهٍ وَمَنْزِلَةٍ»[1] . وَالَّذِي تَرَى مِنْهُ الْخَلَلَ فِي الدِّينِ فَاذْكُرْ ذَلِكَ وَلا تُبَالِ مِنْ جَاهِهِ، فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى مُعِينُك وَنَاصِرُك وَنَاصِرُ الدِّينِ، فَإِذَا فَعَلْت ذَلِكَ مَرَّةً هَابُوكَ وَلَمْ يَتَجَاسَرْ أَحَدٌ عَلَى إظْهَارِ الْبِدْعَةِ فِي الدِّينِ.

- وَإِذَا رَأَيْت مِنْ سُلْطَانِك مَا يُوَافِقُ الْعِلْمَ فَاذْكُرْ ذَلِكَ مَعَ طَاعَتِك إيَّاهُ، فَإِنَّ يَدَهُ أَقْوَى مِنْ يَدِك، تَقُولُ لَهُ: أَنَا مُطِيعٌ لَك فِي الَّذِي أَنْتَ فِيهِ سُلْطَانٌ وَمُسَلَّطٌ عَلَيَّ غَيْرَ أَنِّي أَذْكُرُ مِنْ سِيرَتِك مَا لا يُوَافِقُ الْعِلْمَ، فَإِذَا فَعَلْت مَعَ السُّلْطَانِ مَرَّةً كَفَاك لأَنَّ إذَا وَاظَبْت عَلَيْهِ وَدُمْت، لَعَلَّهُمْ يَقْهَرُونَك فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ قَمْعٌ لِلدِّينِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لِيَعْرِفَ مِنْك الْجَهْدَ فِي الدِّينِ وَالْحِرْصَ فِي الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَادْخُلْ عَلَيْهِ وَحْدَك فِي دَارِهِ وَانْصَحْهُ فِي الدِّينِ وَنَاظِرْهُ إنْ كَانَ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ سُلْطَانًا فَاذْكُرْ لَهُ مَا يَحْضُرُك مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ قَبِلَ مِنْك وَإِلا فَاسْأَلْ اللَّه تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَك مِنْهُ.
- وَاذْكُرْ الْمَوْتَ، وَاسْتَغْفِرْ لِلأُسْتَاذِ وَمَنْ أَخَذْت عَنْهُمْ الْعِلْمَ، وَدَاوِمْ عَلَى التِّلاوَةِ، وَأَكْثِرْ مِنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ وَالْمَشَايِخِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُبَارَكَةِ.
- وَاقْبَلْ مِنْ الْعَامَّةِ مَا يَعْرِضُونَ عَلَيْك مِنْ رُؤْيَاهُمْ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وآله وسلم، وَفِي رُؤْيَا الصَّالِحِينَ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَنَازِلِ وَالْمَقَابِرِ.
- وَلا تُجَالِسْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ إلا عَلَى سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إلَى الدِّينِ.
- وَلا تُكْثِرْ اللَّعِبَ وَالشَّتْمَ، وَإِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَتَأَهَّبْ لِدُخُولِ الْمَسْجِدِ كَيْ لا تَتَقَدَّمَ عَلَيْك الْعَامَّةُ.
- وَلا تَتَّخِذْ دَارَك فِي جِوَارِ السُّلْطَانِ، وَمَا رَأَيْت عَلَى جَارِك فَاسْتُرْهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَمَانَةٌ.
- وَلا تُظْهِرْ أَسْرَارَ النَّاسِ، وَمَنْ اسْتَشَارَك فِي شَيْءٍ فَأَشِرْ عَلَيْهِ بِمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ يُقَرِّبُك إلَى اللَّهِ تَعَالَى.

١- حديث «اذكروا الفاجر بما فيه حتى يعرفه الناس ويحذروه» حديث ضعيف رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والبيهقي في السنة.

- وَاقْبَلْ وَصِيَّتِي هَذِهِ فَإِنَّك تَنْتَفِعُ بِهَا فِي أُولاك وَآخِرك إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.
- وَإِيَّاكَ وَالْبُخْلَ، فَإِنَّهُ يُبْغَضُ بِهِ الْمَرْءُ، وَلا تَكُ طَمَّاعًا وَلا كَذَّابًا، وَلا صَاحِبَ تَخْلِيطٍ، بَلْ احْفَظْ مُرُوءَتَكَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا.
- وَالْبَسْ مِنْ الثِّيَابِ الْبِيضَ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا.
- وَأَظْهِرْ غِنَى الْقَلْبِ مُظْهِرًا مِنْ نَفْسِك قِلَّةَ الْحِرْصِ وَالرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَأَظْهِرْ مِنْ نَفْسِك الْغَنَاءَ، وَلا تُظْهِرْ الْفَقْرَ وَإِنْ كُنْت فَقِيرًا.
- وَكُنْ ذَا هِمَّةٍ؛ فَإِنَّ مَنْ ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ ضَعُفَتْ مَنْزِلَتُهُ.
- وَإِذَا مَشَيْت فِي الطَّرِيقِ فَلا تَلْتَفِتْ يَمِينًا وَلا شِمَالا، بَلْ دَاوِمْ النَّظَرَ إلَى الأَرْضِ.
- وَإِذَا دَخَلْت الْحَمَّامَ فَلا تُسَاوِ النَّاسَ فِي أُجْرَةِ الْحَمَّام وَالْمَجْلِسِ، بَلْ أَرْجِحْ عَلَى مَا تُعْطِي الْعَامَّةَ لِتَظْهَرَ مُرُوءَتُكَ بَيْنَهُمْ فَيُعَظِّمُونَك، وَلا تُسَلِّمْ الأَمْتِعَةَ إلَى الْحَائِكِ وَسَائِرِ الصُّنَّاعِ، بَلْ اتَّخِذْ لِنَفْسِك ثِقَةً يَفْعَلُ ذَلِكَ.
- وَلا تُمَاكِسْ بِالْحَبَّاتِ وَالدَّوَانِيقِ، وَلا تَزِنْ الدَّرَاهِمَ، بَلْ اعْتَمِدْ عَلَى غَيْرِك، وَحَقِّرْ الدُّنْيَا الْمُحَقَّرَةَ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْهَا، وَوَلِّ أُمُورَك غَيْرَك لِيُمَكِنَك الإِقْبَالُ عَلَى الْعِلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْفَظُ لِحَاجَتِك.
- وَإِيَّاكَ أَنْ تُكَلِّمَ الْمَجَانِينَ، وَمَنْ لا يَعْرِفُ الْمُنَاظَرَةَ وَالْحُجَّةَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْجَاهَ، وَيَسْتَغْرِبُونَ بِذِكْرِ الْمَسَائِلِ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ تَخْجِيلَك وَلا يُبَالُونَ مِنْك، وَإِنْ عَرَفُوك عَلَى الْحَقِّ.
- وَإِذَا دَخَلْت عَلَى قَوْمٍ كِبَارٍ فَلا تَرْفَعْ عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَرْفَعُوك؛ كَيْ لا يَلْحَقَ بِك مِنْهُمْ أَذِيَّةٌ.
- وَإِذَا كُنْت فِي قَوْمٍ فَلا تَتَقَدَّمْ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلاةِ مَا لَمْ يُقَدِّمُوك عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ.

- وَلا تَدْخُلْ الْحَمَّامَ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ وَالْغَدَاةِ، وَلا تَخْرُجْ إِلَى النَّظَّارَاتِ.
- وَلا تَحْضُرْ مَظَالمَ السَّلاطِينِ إلا إِذَا عَرَفْت أَنَّكَ إذَا قُلْت شَيْئًا يَنْزِلُونَ عَلَى قَوْلِك بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا مَا لا يَحِلُّ وَأَنْتَ عِنْدَهُمْ رُبَّمَا لا تَمْلِكُ مَنْعَهُمْ، وَيَظُنُّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ لِسُكُوتِك فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقْتَ الإِقْدَامِ عَلَيْهِ.
- وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فِي مَجْلِسِ الْعِلْمِ، وَلا تَقُصَّ عَلَى الْعَامَّةِ، فَإِنَّ الْقَاصَّ لا بُدَّ لَهُ أَنْ يَكْذِبَ.
- وَإِذَا أَرَدْت اتِّخَاذَ مَجْلِسٍ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنْ كَانَ مَجْلِسَ فِقْهٍ فَاحْضُرْ بِنَفْسِك وَاذْكُرْ فِيهِ مَا تَعْلَمُهُ وَإِلا فَلا، كَيْ لا يَغْتَرَّ النَّاسُ بِحُضُورِك فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ عَلَى صِفَةٍ مِنْ الْعِلْمِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ، وَإِنْ كَانَ يَصْلُحُ لِلْفَتْوَى فَاذْكُرْ مِنْهُ ذَلِكَ وَإِلا فَلا.
- وَلا تَقْعُدْ لِيُدَرِّسَ الآخَرُ بَيْنَ يَدَيْك، بَلْ اُتْرُكْ عِنْدَهُ مِنْ أَصْحَابِك لِيُخْبِرَك بِكَيْفِيَّةِ كَلامِهِ وَكَمِّيَّةِ عِلْمِهِ. وَلا تَحْضُرْ مَجَالِسَ الذِّكْرِ أَوْ مَنْ يَتَّخِذُ مَجْلِسَ عِظَةٍ بِجَاهِك وَتَزْكِيَتِك لَهُ، بَلْ وَجِّهْ أَهْلَ مَحَلَّتِك وَعَامَّتَك الَّذِينَ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ مَعَ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِك.
- وَفَوِّضْ أَمْرَ الْمَنَاكِحِ إلَى خَطِيبِ نَاحِيَتِك، وَكَذَا صَلاةُ الْجِنَازَةِ وَالْعِيدَيْنِ.
- وَلا تَنْسَنِي مِنْ صَالِحِ دُعَائِك، وَاقْبَلْ هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ مِنِّي، وَإِنَّمَا أُوصِيك لمصحتك ومصلحة الْمُسْلِمِينَ[1].

١- مناقب أبي حنيفة: للكردري (محمد بن محمد بن شهاب) المعروف بابن البزاز، صاحب الفتاوى البزازية، المتوفى سنة ٨٢٧ هـ. طبعة مجلس دائرة المعارف العامة في الهند: ١٢١/٢. الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هـ.

وَصِيَّةُ الإمام أبي حنيفة النعمان لتلميذه يوسف بن خالد السَّمتي البصري

بَعْدَ أَنْ أَخَذَ يوسفُ بنُ خالدٍ السَّمْتيُّ العِلْمَ عَنْ أبي حنيفةَ وأَرَادَ الرُّجوعَ إلى بلدتِهِ البصرةَ أستأذنَ أبا حنيفةَ في ذَلِكَ، فقَالَ لَهُ أبوحنيفةَ: حَتَّى أُخَلِّيَ لَكَ نَفْسِي، فأتقَدَّمَ إلَيْكَ بالْوَصِيَّةِ، فيما تحتاجُ إِلَيْهِ في معاشرةِ النَّاسِ، ومراتبِ أَهْلِ العِلْمِ، وتأديبِ النَّفْسِ، وسياسةِ الرَّعِيَّةِ، ورياضةِ الخاصَّةِ والعَامَّةِ، وتَفَقُّدِ أَمْرِ الْعَامَّةِ، حَتَّى إِذَا خَرَجْتَ بعلمِكَ كَانَ مَعَكَ آلَةٌ تَصْلُحُ لَهُ وتَزَيِّنُهُ ولا تَشِيْنُهُ[1].

- وَاعْلَمْ أَنَّكَ متى أسأتَ عِشْرَةَ النَّاسِ صاروا لَكَ أعداءً، ولو كَانُوا لَكَ أمَّهات وآباءَ، وأنك متى أحسنتَ عِشْرَةَ قومٍ لَيْسُوا لَكَ بأقرباءَ صاروا لَكَ أمَّهاتٍ وآباءً.
- ثُمَّ قَالَ لي: اصْبِرْ يَوْمَيْنِ حَتَّى أفرِّغَ لَكَ نَفْسِي، وأجمعَ لَكَ همِّي وأعرِّفَكَ من الأَمْرِ ما تَحْمَدُني في نَفْسِكَ عَلَيْهِ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ.
- قَالَ: فلَمَّا مَضَى الميعادُ أَخْلى لي نَفْسَهُ، فقَالَ: أنا أكشِفُ لَكَ عَمَّا تعرَّضْتَ لَهُ.
- كأني بِكَ وقد دَخَلْتَ البَصْرةَ وأقبلتَ على المخالفةِ بها، ورفعتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِم، وتطاولتَ بعلمِكَ لديهم، وانقبضْتَ عَنْ مُعَاشَرَتِهم ومُخالطتِهم، وهجرتَهُم وهَجَروكَ، وشَتَمْتَهُم وشتَمُوكَ، وضَلَّلْتَهم وضَلَّلوكَ وبدّعوكَ، واتّصلَ ذَلِكَ الشَّيْنُ بنا وبكَ، واحتجْتَ إلى الهربِ والانتقالِ عَنْهُم،

١- يوسف بن خالد بن عمير السمتي: أبو خالد وهو أول من وضع كتابا في (الشروط) وهي كتابة الوثائق والسجلات، وأول من حمل رأي أبي حنيفة إلى البصرة، وكان صاحب رأي وجدل، عرف بالسمتي لهيئته، ذكره ابن حجر (في مناقب الشافعي) في عداد شيوخ الإمام الشافعي، وخرج عنه ابن ماجه، وترجمه البدر العيني في رجال معاني الآثار، وقد روى الطحاوي عن المزني عن الشافعي أنه قال في حق يوسف بن خالد: هذا كان رجلاً من الخيار، وتوفي بالبصرة سنة ١٨٩ـ وقيل: هو فقيه، يرمى بالزندقة، (وفيات الأعيان) و(الأعلام).

ولَيْسَ هَذا برأي؛ أَنَّهُ لَيْسَ بعاقلٍ من لَمْ يُدارِ من لَيْسَ لَهُ من مُداراتِهِ بدٌّ، حَتَّى يَجْعَلَ اللّه لَهُ مَخْرَجًا.

- ثُمَّ قَالَ: إِذَا دخلتَ البصرةَ استقبلكَ النَّاسُ وزاروكَ وعَرَفُوا حقّكَ، فأنزِلْ كلَّ رَجُلٍ مِنْهُم منزلتَهُ، وأكرمْ أَهْلَ الشَّرفِ، وعظِّم أهلَ العِلْم، ووقِّرِ الشُّيوخَ، ولاطفِ الأحداثَ، وتقرَّبْ من الْعَامَّةِ، ودارِ الفُجّارَ، واصْحَبِ الأخيارَ.
- ولا تتهاونْ بسُّلطان، وَلا تحقِرنَّ أحدًا يَقْصِدُكَ، وَلا تُقصرنَّ في إقامةِ مَودتكَ إِيَّاهُم.
- ولا تُخْرِجَنّ سِرَّكَ إلى أحَدٍ، وَلا تَثِقَنَّ بصُحْبةِ أحدٍ حَتَّى تمتحنَهُ، وَلا تخادِنْ خسيسًا وَلا وضيعًا، وَلا تقولَنَّ من الكلامِ ما يُنْكَرُ عَلَيْكَ في ظاهرِكَ.
- وإياكَ والانبساطَ إلى السُّفَهَاءِ، وَلا تُجِيْبَنَّ دَعْوةً، وَلا تقبلنَّ هديةً، وعَلَيْكَ بالمداراةِ، والصَّبْرِ والاحتمالِ وحسنِ الْخُلُقِ وسَعَةِ الصَّدرِ[1].
- واستجدْ ثيابَ كُسْوَتِكَ، واسْتَفْرِهْ دابَّتَكَ، وأكثرِ استعمالَ الطِّيْبِ[2].
- وَأقْرِبْ مَجْلِسَكَ، وليكُنْ ذَلِكَ في أوقاتٍ معلومةٍ.

١- المداراة: هي لين الكلام، وترك الإغلاظ في القول، وهي من صفات المؤمنين. والمداهنة: معاشرة المعلن بالفسق وإظهار الرضى بما هو فيه.

٢-استجدْ ثيابك: أي اطلب جيد الثياب، ومما ينسب للإمام مالك:

حسّن ثيابك ما استطعت فإنَّها ... زين الرجالِ بها تعزُّ وتكرمُ

ودعِ التَّخشُّن في الثياب تواضعًا ... فالله أعلمُ ما تكنُّ وتكتمُ

فرثيثُ ثوبك لا يزيدك رفعةً ... عند الإلهِ وأنتَ عبدٌ مجرمُ

وجديدُ ثوبك لا يضرُّك بعدَ أنْ ... تَخشى الإلهَ وتتقى ما يَحرمُ

- وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ خَلوةً تَرُمُّ بِهَا حَوائِجَكَ[1].
- وابحثْ عَنْ أخبارِ حَشَمِكَ، وتقَدَّمْ فِي تقويمهم وتأديبِهِمْ، واستعملْ فِي ذَلِكَ الرِّفْقَ، وَلا تُكْثِرِ العَتَبَ فيهونَ العَذْلُ، وَلا تَلِ تأديبَهم بِنَفْسِكَ، فَإِنَّه أبقى لحالك، وأهيبُ لك[2].
- وحافظْ عَلَى صلواتِكَ، وابذلْ طعامَكَ، فَإِنَّه ما سَادَ بخيلٌ قطُّ، ولتكُنْ لَكَ بِطانةٌ تُعَرِّفُكَ أخبارَ النَّاسِ، فَمَتَى عَرَفْتَ بفسادٍ بادرتَ إلى إصلاحِهِ، ومتى عَرَفْتَ بصلاحٍ ازددتَ فِيهِ رغبةً وعنايةً.
- واعملْ فِي زيارةِ من يزورُكَ ومن لا يزورُكَ، والإحسانِ إلى من يُحسِنُ إِلَيْكَ أو يسيءُ وخُذْ العفوَ وأمُرْ بالمَعْرُوفِ، وتغافَلْ عَمَّا لا يَعْنيكَ واتْرُكْ كُلَّ من يؤذيكَ، وبادرْ فِي إقامةِ الحقوقِ.
- ومَنْ مَرِضَ من إخوانِكَ فَعُدْهُ بِنَفْسِكَ، وتَعَاهَدْهُ برُسُلِكَ، ومن غَابَ مِنْهُم افتقدتَ أحْوَالَهُ، ومن قَعَدَ مِنْهُم عَنكَ فلا تقعُدْ أَنتَ عَنْهُ.
- وصِلْ مَنْ جَفَاكَ، وأكرِمْ من أتَاكَ، واعْفُ عمَّنْ أسَاءَ إِلَيْكَ، ومن تَكَلَّمَ فِيْكَ بالقَبِيْحِ فَتَكلَّمْ فِيهِ بالْحَسَنِ والجميلِ. ومن مَاتَ مِنْهُم قضيتَ حقَّهُ، ومن كَانَتْ لَهُ فرحةٌ هَنَّأتَهُ بِهَا. ومن كَانَتْ لَهُ مُصِيبَةٌ عزَّيْتَهُ عَنْهَا. ومن أصابَتْهُ جائحةٌ توجَّعْتَ لَهُ بها. ومن استنهضَكَ بأمرٍ من أمُوْرِه نهضتَ له، ومن استغاثَك أغَثْتَهُ، ومن استنصَرَكَ نَصَرْتَهُ.
- وأظْهِرْ تودُّدًا إلى النَّاسِ ما اسْتَطَعْتَ، وأفْشِ السَّلامَ ولو عَلَى قومٍ لئامٍ.
- ومتى جَمَعَ بَيْنَك وبَيْنَ غَيْرِك مَجْلِسٌ، أو ضَمَّكَ وإيَّاهُم مسجدٌ، وجرتْ المسائلُ وخاضوا فِيهَا بخلافِ ما عِنْدَك لا تُبْدِ لَهُمْ مِنْكَ خِلافًا، فإنْ سُئلتَ عَنْهَا أخبرتَ بما يَعْرِفُهُ القومُ، ثُمَّ تقولُ: فِيهَا قولٌ آخَرُ، وهو كذا وكذا، والحُجَّةُ لَهُ كذا، فإنْ سَمِعُوهُ مِنْكَ عَرَفُوا مقدارَ ذَلِكَ ومقدارَك...

١- الرَّمّ: إصلاح الشيء الذي فسد بعضه من نحو حبل يَبْلى فتَرُمُّهُ أو دار تَرُمُّ شأنها مَرَمَّةً.

٣- دابَّةٌ فارِهَة: أي نَشيطة حادَّة قَوِيَّة، يقال بِرْذَوْنٌ فارِهٌ وحمار فارِهٌ: إذا كانا سَيُورَيْن، ولا يقال للفرس إلا جَوادٌ، ويقال له رائع.

- وخُذْهُم بجليِّ العِلْم دُوْنَ دقيقِهِ، وآنسْهُمْ، ومازِحْهُم أحيانًا، وحادِثْهُم، فَإِنَّها تَجْلِبُ لَكَ المَـوَدَّةَ، وتستديمُ مواظبةَ العِلْمِ، وأطعمْهُم أحيانًا، واقضِ حوائِجَهُم، واعْرِفْ مقدارَهم.
- وتَغَـافَلْ عَنْ زَلاتِهِمْ، وارْفُقْ بهم، وسامِحْهُم، وَلا تُبْدِ لأحدٍ مِنْهُم ضيقَ صَدرٍ، أو ضَجَرٍ، وكُنْ كواحدٍ مِنْهُم.
- وعاملْ النَّاسَ معاملتَك لِنَفْسِكَ، وارضَ مِنْهُم ما تَرْضَى لِنَفْسِكَ.
- واستعنْ عَلَى نَفْسِكَ بالصِّيانَةِ لها، والمراقبةِ لأَحْوَالِها، ودَعْ الشَّغَبَ.
- واستمعْ لمن يستمعُ مِنْكَ، وَلا تُكَلِّفِ النَّاسَ ما لا يكلِّفُونَكَ، وارْضَ لَهُمْ ما رَضُوا لأنفسِهِمْ. وقَدَّمْ إِلَيْهِم حُسْنَ النِّيَّةِ، واستعملِ الصِّدْقَ، واطَّرِحِ الْكِبْرَ جانبًا.
- وإياكَ والغَدْرَ، وإِنْ غَدَروا بِكَ، وأدّ الأَمَانَةَ وإِنْ خانوكَ، وتَمَسَّكْ بالوفاءِ، واعتصِمْ بالتَّقْوَى.
- وعاشِرْ أهلَ الأَدْيانِ حَسَبَ مُعَاشَرَتِهِم لك.
- فَإِنَّك إن تَمسَّكْتَ بِوَصِيَّتِي هَذِهِ رَجَوْتُ لَكَ أَنْ تَسْلَمَ.

ثُمَّ قَالَ له: إنَّه يَحْزُنُني مُفَارَقَتُكَ، وتؤنِسُنِي مَعْرِفَتُكَ، فواصِلْنِي بكتبِكَ، وعرِّفْنِي حوائجَكَ، وكُنْ لي كابنٍ فَإِنِّي لَكَ كأبٍ. قَالَ: ثُمَّ أَخْرَجَ إليّ دنانيرَ وكُسوةً وزادًا وخَرَجَ معي، وحمّلَ ذَلِكَ حمّالا، وجَمَعَ أَصْحَابِهِ حَتَّى شيَّعوني، وركِبَ هُوَ مَعَهُمْ حَتَّى بَلَغْنا إلى شطِّ الفُرات، ثُمَّ ودعوني وودَّعتهم، فكَانَت مِنْ أبي حنيفة رَحِمَهُ اللّه تَعَالَى وصيانته وبِرّهِ أعظم من كُلِّ مِنَّةٍ تقدّمَت لَهُ عليَّ.

وقَدِمتُ البصرة فاستعملتُ ما قَالَ، فما مرَّت علي أيام يسيرةٌ حَتَّى صاروا كلَّهم لي أصدقاء، وانتقضت المجالس، وظهر بالبصرة مذهبُ أبي حنيفة رَحِمَهُ اللّه تَعَالَى كما ظهر بالكوفة[١].

١- مناقب أبي حنيفة: للكردري (محمد بن محمد بن شهاب)، دائرة المعارف في الهند، سنة ١٣٢١ هـ..

وَصِيَّةُ الغزالي « أيها الولد »

تعتبر هَذِهِ الْوَصِيَّةُ من الروائع الإنسانية، وقد ترجمها المجمع العلمي لمنظمة «اليونسكو» العالمية إلى اللغتين الفرنسية والإنجليزية عام ١٩٥١ ليستفيد منها أكبر عدد من الشباب[١].

قال الذهبي: الغزالي الشيخ الامام البحر، حجة الاسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط[٢].

أمَّا عَنْ سَبَبِ كتابةِ الغزاليِّ لها: فاعْلَمْ أنَّ واحدًا من الطَّلبَةِ الْمُتَقَدِّمِيْنَ لازَمَ خِدْمَةَ الشَّيخِ الغزاليِّ رَحِمَهُ اللّٰه تَعَالَى، واشتغلَ بالتَّحصيلِ، وقراءةِ الْعِلْم عَلَيْهِ، حَتَّى جَمَعَ دقائقَ الْعُلُوْم، واستكمَلَ فضائلَ النَّفْسِ، ثُمَّ إنَّهُ تفكَّرَ يَوْمًا في حالِ نَفْسِهِ، وخَطَرَ عَلَى بَالِهِ وقَالَ: إني قرأتُ أنواعًا من العُلُوْم، وصرفتُ رَيْعانَ عُمُري عَلَى تَعَلُّمِها وجَمْعِها[٣]، والآن يَنْبَغِي عَلَيّ أنْ أعلمَ أيَّ نوعِها يَنفَعُني غَدًا، ويُؤْنِسُني في قَبْرِي، وأيّها لا يَنفَعُني حَتَّى أتركَهُ، كما قَالَ رسولُ اللّه ﷺ: (اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ من عِلْم لا يَنفَعُ)[٤]، فاستمرَّتْ هَذِهِ الفكرةُ حتى كَتَبْتُ إلى حَضْرةِ الشَّيخ -حُجَّة الإِسْلام مُحَمَّدِ الغزالي رَحِمَهُ اللّه تَعَالَى- استفتاءً، وسألْتُهُ مَسَائِلَ ألتَمِسُ نصيحةً ودُعاءً... مقصودي أنْ يكتبَ الشَّيْخُ حاجتي في ورقات تكونُ معي مُدَّةَ حياتي، واعملُ بها مدَّةَ عمري، إن شاء اللّه. فَكَتَبَ الشَّيْخُ هَذِهِ الرِّسالةَ إِلَيْهِ في جَوابِهِ[٥]:

١- اليونسكو: منظمة تابعة للأمم المتحدة تأسست للعمل على استتباب الأمن والسلام بين الشعوب عن طريق العلم والثقافة والتربية، وتتألف الكلمة من الحروف الأولى من الكلمات الإنجليزية التي تعني منظمة الأمم المتحدة للتربيّة والعلوم والثقافة. أنشئت يوم ١٦ (نوفمبر) تشرين الثاني ١٩٤٥ والهدف الذي حددته لنفسها بناء حصون السلام في عقول البشر.

٢- سير أعلام النبلاء.

٣- رَيْعُ كلِّ شيء ورَيْعانُه: أوَّلُه وأفْضَلُه.

٤- (اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ...) رواه الإمام أحمد والحاكم.

٥- الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» لابن كثير، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي. و«وفيات الأعيان» لابن خلكان. و«حجة الإسلام الغزالي» د. يوسف القرضاوي. و«رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لأبي الحسن الندوي.

• اعْلَمْ أيُّها الوَلَدُ والمُحِبُّ العزيزُ، أطالَ اللهُ بقاءَك بطاعتِهِ، وسَلَكَ بِكَ سبيلَ أحبائِهِ أنّ مَنْشُوْرَ النَّصِيْحَةِ يُكْتَبُ من مَعْدِنِ الرِّسالة، إنْ كَانَ قَدْ بَلَغَكَ مِنْهُ نصيحةٌ، فأيُّ حاجةٍ لَكَ في نصيحتي، وإنْ لَم يَبْلُغْكَ فقلْ لي ماذا حَصَّلْتَ في هَذِهِ السِّنينِ الماضيةِ.

• أيُّها الوَلَدُ: من جُمْلَةِ ما نَصَحَ بِهِ رسولُ الله ﷺ أمَّتَهُ قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «عَلامَةُ إعْراضِ اللهِ تَعَالَى عَنِ العَبْدِ اشتغالُهُ بما لا يَعْنِيهِ، وإنَّ امرءًا ذهبتْ ساعةٌ من عُمُرِهِ في غَيْرِ ما خُلِقَ لَهُ من العِبَادَةِ لجديرٌ أنْ تَطُولَ عَلَيْهِ حَسْرَتُهُ، ومن جَاوَزَ الأرْبعينَ ولَم يَغْلِبْ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ فليتجهَّزْ إلى النَّارِ»[1]، وفي هَذِهِ النَّصِيْحَةِ كفايةٌ لأهلِ العِلْمِ.

• أيُّها الوَلَدُ: النَّصِيْحَةُ سَهْلَةٌ، والمُشْكِلُ قَبُولُها؛ لأنَّها في مَذَاقِ مُتَّبعي الهوى مُرّةٌ؛ إذْ المناهي مَحبوبةٌ في قلوبِهِمْ، وعلى الخُصُوْصِ لِمن كَانَ طالبَ العِلْمِ الرَّسْمِيِّ، ومشتغلا في فضلِ النَّفسِ ومناقبِ الدُّنيا، فإنَّه يَحْسَبُ أنَّ العِلْمَ المجرَّدَ لَهُ سيكونُ نجاتَهُ وخَلاصَهُ فيه، وأنَّه مُسْتغنٍ عَن العملِ، وهذا اعتقادُ الفلاسفةِ، سبحانَ اللهِ العظيم، ألا يَعْلَمُ هَذا المغرورُ أنَّهُ حِيْنَ حصّلَ العِلْمَ إذَا لَمْ يعملْ بِهِ تَكُونُ الحجَّةُ عَلَيْهِ آكَدُ، كما قَالَ رسولُ الله ﷺ: أشَدُّ النَّاسِ عذابًا يَوْمَ القِيَامَةِ عالمٌ لا يَنْفَعُهُ اللهُ بعلْمِهِ[2]. ورُوِيَ أنَّ الجُنيدَ (قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ) رُؤِيَ في المنامِ بَعْدَ موتِهِ فقيلَ له: ما الخَبَرُ يا أبا القاسم؟ قَالَ: (طاحَتْ تِلْكَ العِبَارَاتُ، وفَنِيَتْ تِلْكَ الإشاراتُ، وما نَفَعَنا إلا رُكَيْعَاتٌ رَكَعْنَاها في جَوْفِ اللَّيْلِ).

• أيُّها الوَلَدُ: لا تكُنْ من الأعمالِ مُفْلِسًا، وَلا من الأحوالِ خاليًا، وَتَيَقَّنْ أنَّ العِلمَ المجرَّدَ لا يأخُذُ باليَدِ، مثالُهُ لو كَانَ عَلَى رَجُلٍ في بَرِّيَّةٍ عَشَرَةُ

١- (علامة إعراض...) قال ابن رجب الحنبلي: هذا من كلام الحسن البصري.

٢- قال أبو الدرداء: «إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه». وهو حديث انفرد به عثمان البري لم يرفعه غيره، وهو ضعيف الحديث، معتزلي المذهب (جامع بيان العلم). وفي (كنز العمال) عن أبي هريرة: «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه».

أسيافٍ هنديةٍ مَعَ أسلحةٍ أخرى، وكَانَ الرَّجلُ شُجاعًا وأهلَ حربٍ، فحَمَلَ عَلَيْهِ أسدٌ عظيمٌ مَهيبٌ، فما ظنُّك؟ هل تَدْفَعُ الأسلحةُ شَرَّهُ عَنْهُ بلا استعمالِها وضَرْبِها؟ ومن المعلوم أنَّها لا تدفعُ إلا بالتَّحريكِ والضَّربِ، فَكَذا لو قَرَأ رَجُلٌ مائةَ ألفِ مَسْألَةٍ علميةٍ وتعلَّمَها ولَم يعملْ بِهَا لا تُفيدُهُ إلا بالعملِ، ومثْلُهُ أيضًا لو كَانَ لرَجُلٍ حَرَارَةٌ ومَرَضٌ صَفْراويٌّ، يَكُوْنُ عِلاجُهُ (بالسَّكَنْجَبِيْنِ) و(الكَشْكاب) فلا يَحْصُل البُرْءُ إلا باستعمالِهما.

- ولو قرأتَ العلمَ مائةَ سنةٍ، وجَمَعْتَ ألفَ كتابٍ، لا تَكُونُ مستعدًّا لرحمةِ اللّٰه تَعَالَى إلا بالعملِ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1]، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾[2]، ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[3]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[4] ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[5].
- وما تقولُ فِي هَذا الحَدِيثِ: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهادةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللّٰه وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللّٰهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحِجُّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا»[6].
- والإِيمَانُ قولٌ باللِّسانِ، وتصديقٌ بالْجَنانِ، وعَمَلٌ بالأركانِ، ودَليلُ الأعمالِ أكثرُ من أَنْ يُحصَى، وإن كَانَ العَبْدُ يَبْلُغُ الجنَّـةَ بفضلِ اللّٰه تَعَالَى وكَرَمِه، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ يستعدَّ بطاعتِهِ وعبادتِهِ، لأنَّ رَحْمَةَ اللّٰهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ.

١- النجم: ٣٩.

٢- الكهف: ١١٠.

٣- التوبة: ٨٢.

٤- الكهف: ١٠٧- ١٠٨.

٥- مريم: ٥٩ - ٦٠.

٦- (بني الإسلام على خمس...) رواه البخاري.

- ولو قِيلَ أيضًا: يَبْلُغُ بمجرَّدِ الإيمَانِ، قلنا: نعَمْ، لَكِنْ متى يَبْلُغُ؟ وكم من عَقَبَةٍ كَؤُودٍ يقطعُها إلى أَنْ يصلَ، فأَوَّلُ تِلْكَ العَقَباتِ عَقَبَةُ الإيْمَانِ، وأنه هل يسلمُ من سَلْبِ الإيمَانِ أم لا؟ وإذا وَصَلَ هل يَكُونُ خائبًا مفلسًا؟ وقَالَ الْحَسَنُ البَصْريُّ: (يَقُولُ اللّه تَعَالَى لعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ادْخُلوا يا عِبَادي الجنَّةَ برحْمَتِي واقتسِمُوها بأعْمَالِكُم).

- أيُّها الوَلَدُ، مالَم تَعْمَلْ لَم تَجِدِ الأَجْرَ، حُكِي أَنَّ رَجُلا من بَنِي إِسْرَائِيلَ عَبَدَ اللّه تَعَالَى سَبْعِيْنَ سَنَةً، فأرادَ اللّه تَعَالَى أَنْ يَجْلُوَهُ عَلَى المَلائِكَةِ، فأَرْسَلَ اللّه إِلَيْهِ مَلَكًا يُخبِرُهُ أَنَّهُ مَعَ تِلْكَ العِبَادَةَ لا يليقُ بِهِ دُخُولَ الجنَّةِ، فلَمَّا بلغَهُ قَالَ العابدُ: نَحْنُ خُلقنا للعبادةِ فيَنْبَغِي لنا أَنْ نَعْبُدَهُ، فلمَّا رَجَعَ المَلَكُ قَالَ: إلهي أنتَ أعلمُ بما قَالَ، فقَالَ اللّه تَعَالَى: (إذَا هُوَ لَم يُعْرِضْ عَنْ عبادتِنا فنَحْنُ مَعَ الكَرَمِ لا نُعْرِضُ عَنْهُ، اشهدوا يا ملائكتي أني قَدْ غفرتُ لَهُ)، وقَالَ رسولُ اللّه ﷺ: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وزنوا أعمالَكم قَبْلَ أَنْ توزنوا)[1]، وقَالَ عليُّ رضي اللّه عنه: (مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بدُونِ الجهد يَصِلُ، فهو مُتَمَنٍّ، ومن ظَنَّ أَنَّهُ ببذلِ الجهدِ يصلُ فهو مُسْتَغْنٍ)، وقالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللّه تَعَالَى: (طَلَبُ الْجَنَّةِ بلا عَمَلٍ ذنبٌ من الذُّنُوبِ) وقال: (عَلامَةُ الحقيقةِ تَرْكُ مُلاحظةِ العَمَلِ، لا تَرْكُ العَمَلِ) وقَالَ رسولُ اللّه ﷺ: (الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وعَملَ لِما بَعْدَ المَوْتِ، والأَحْمَقُ من أتبعَ هواه وتَمَنّى عَلَى اللّه تَعَالَى الأماني)[2].

- أيُّها الوَلَدُ، كم من ليالٍ أحييتَها بتكرارِ الْعِلْمِ، ومُطالعةِ الكتُبِ، وحرَّمْتَ عَلَى نَفْسِكَ النَّوْمَ؟ لا أعلمُ ما كَانَ الباعثُ فيه، إِنْ كَانَ نيلَ عَرَضِ الدُّنيا،

١- (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا) رواه الترمذي. ورواه المتقي الهندي في (كنز العمال) عن سيدنا عمر موقوفًا رقم ٤٤٢٠٣.

٢- (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللّه) رواه الترمذي، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. والكَيِّسُ: العَاقِلُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، يَقُولُ: حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وجَذْبَ حُطامِها، وتَحصيلَ مناصبِها، وَالْمُبَاهَاةَ عَلَى الأقرانِ والأمثالِ، فَوَيْلٌ لَكَ ثُمَّ وَيْلٌ لك، وإن كَانَ قَصْدُكَ فِيهِ إحياءَ شريعةِ النَّبِيِّ ﷺ وتهذيبَ أخلاقِك، وكَسْرَ النَّفْسِ الأمَّارة بالسُّوءِ، فَطُوْبى لَكَ ثُمَّ طُوْبَى لك، ولقد صدقَ من قَالَ شعرًا:

سَهَرُ العُيُونِ لغَيْرِ وَجْهِك ضائعٌ　　　وبكاؤُهنَّ لغَيْرِ فَقْدِك باطلُ

- أيُّها الوَلَدُ، عِشْ ما شئتَ فَإنَّك مَيِّتٌ، وأحببْ ما شئتَ فإنَّك مُفارِقُهُ، واعملْ ما شئتَ فَإنَّك مجزيٌّ بِهِ [١].

- أيُّها الوَلَدُ، أيُّ شيءٍ حاصلٌ لَكَ من تَحْصيلِ عِلْمِ الكلامِ، والخلافِ، والطبِّ، والدَّواوينِ والأشعارِ، والنُّجوم، والعَروضِ، والنَّحْوِ والتَّصْريفِ، غَيْرَ تضييعِ العُمْرِ بخلافِ ذي الجلال، إني رأيتُ في إنجيل عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: (من ساعةِ أنْ يوضَعَ الْمَيِّتُ عَلَى الجنازةِ إلى أن يوضَعَ عَلَى شَفِيْرِ القَبْرِ يسأل اللّه تَعَالَى بعظمته مِنْهُ أربعين سؤالا، أَوَّلُها: يَقُولُ عبدي طهَّرتَ مَنْظَرَ الخلقِ سنينَ وما طهَّرْتَ منظري ساعةً، وكل يَوْم ينظر في قَلْبِكَ يَقُولُ: ما تصنع لِغَيْرِي وأنت محفوفٌ بخَيْري، أمَّا أَنتَ فأصَمٌّ لا تسمعُ).

- أيُّها الوَلَدُ: العِلْمُ بلا عَمَلٍ جُنونٌ، والْعَمَلُ بلا عِلْمٍ لا يَكُوْنُ.

- وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذي لا يُبْعِدُكَ اليَوْمَ عَن المعاصي، وَلا يَحْمِلُكُ عَلَى الطَّاعةِ لنْ يبعدَك غدًا عَنْ نارِ جهنَّمَ، وإذَا لَم تَعْمَلْ بعلمِك اليومَ، ولَم تَدارَك الأيامَ الماضيةَ تقولُ غدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ: ﴿ فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾[٢]، فيقال: يا أَحْمَقُ أنتَ من هُنَاكَ تَجِيْءُ.

- أيُّها الوَلَدُ، اجْعَلْ الهِمَّةَ في الرُّوحِ، والهزيمةَ في النَّفْسِ، والْمَوْتَ في البَدَنِ،

١- (عِشْ ما شئتَ...) رواه الطبراني، والحاكم وصحح إسناده، بلفظ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت...».

٢- السجدة: ١٢.

لأنَّ منـزلَكَ القَبْرُ، وأهلُ المقابر ينتظرونَك في كُلِّ لَحظةٍ متى تصلُ إِلَيْهِم، إيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تصل إِلَيْهِم بلا زاد، قَالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه: هَذِهِ الأجسادُ قَفَصُ الطُّيورِ أوإصْطَبْلُ الدَّوابِّ، فتَفَكَّرْ في نَفْسِكَ من أيهما أنت؟ إن كُنْتَ من الطيورِ العُلويةِ، فحِيْنَ تسمعُ طنينَ طبلِ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ تَطِيْرُ صاعدًا إلى أَنْ تَقْعُدَ في أعالي بروجِ الجِنانِ،كما قَالَ رسولُ الله ﷺ: «اهتزَّ عرشُ الرَّحْمنِ من موتِ سعد بنِ مُعَاذٍ»[1]، والعياذُ بالله إن كُنْتَ من الدَّوابِّ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾[2]، فلا تأمنْ انتقالَكَ من زاويةِ الدَّار إلى هاوية النَّارِ. ورويَ أنَّ الْحَسَنَ البصريَّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أُعْطِيَ شَرْبَةَ ماءٍ باردٍ، فأخَذَ القَدَحَ وغُشِيَ عَلَيْهِ وسقطَ من يدِهِ، فلَمَّا أفاقَ قيلَ: ما لَكَ يا أبا سعيد؟ قَالَ: ذكرتُ أمْنِيَّةَ أَهْلِ النَّارِ حِيْنَ يَقُولُون لأَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[3].

- أيُّها الوَلَدُ، لو كَانَ الْعِلْمُ المجرَّدُ كافيًا لك، وَلا تحتاجُ إلى عَمَلٍ سِواهُ، لكَانَ نداءُ (هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هل من مُسْتَغْفِرٍ؟ هل من تائبٍ؟)[4]، ضائعًا بلا فائدةٍ، ورويَ أنَّ جماعةً من الصَّحَابَةِ رضوانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ، ذكروا عبدَ الله بنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: (نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ لو كَانَ يصلي باللَّيْلِ)[5]، وقَالَ ﷺ لرَجُلٍ من أصْحابِهِ: «يا فلانُ، لا تُكْثِرِ النَّوْمَ باللَّيْلِ، فإنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ باللَّيْلِ يَدَعُ صَاحِبَهُ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيامَةِ»[6].

١- «اهتزَّ عرشُ الرحمنِ من موت سعد بن معاذ...» رواه البخاري.

٢- الأعراف: ١٧٩.

٣- الأعراف: ٥٠.

٤- (هَلْ مِنْ سَائِلٍ..) رواه مسلم.

٥- «نعم الرجل هو لو كان يصلي بالليل...» رواه البخاري، بَاب طُول السُّجُود فِي قِيَام اللَّيْل.

٦- رواه ابن ماجة بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ لِسُلَيْمَانَ: يَا بُنَيَّ، لا تُكْثِرْ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

- أيُّها الوَلَدُ، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾[1]، (أمرٌ) ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾[2]، (شكر) ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾[3]، (ذكر) قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «ثلاثةُ أصواتٍ يُحِبُّها اللّه تَعَالَى: صَوْتُ الدِّيك، وصَوْتُ الَّذي يقرأ الْقُرْآنَ، وصَوتُ الْمُسْتَغْفِرينَ بالأَسْحَارِ»[4]، وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحْمَةُ اللّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: «إن اللّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ ريحًا تهبُّ بالأَسْحَارِتحملُ الأذكارَ والاستغفارَ إلى الْمَلِكِ الجبَّارِ». وقَالَ أيضًا: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ اللَّيْلِ ينادي منادٍ من تحتِ العَرْشِ: ألا لِيَقُمْ العابدونَ، فيَقُومُونَ ويصلُّونَ ما شاءَ اللّه، ثُمَّ ينادي منادٍ في شَطْرِ اللَّيْلِ: ألا لِيَقُمْ القانتونَ فيَقُومُونَ ويصلُّونَ إلى السَّحَرِ، فإِذَا كَانَ السَّحَرُ نادى منادٍ: ألا لِيَقُمْ الْمُستغفرونَ فيَقُومُونَ ويَسْتَغْفِرُونَ، فإِذَا طَلَعَ الفَجْرُ نادى منادٍ: ألا لِيَقُمْ الغافلونَ فيَقُومُونَ من فُرُشِهِم كالْمَوْتى نُشِروا من قُبُورِهِم».
- أيُّها الوَلَدُ، روي في وصايا لُقْمَانَ الْحَكِيْمِ لابنه أَنَّهُ قَالَ: «يا بُنَيَّ، لا يَكُوْنَنَّ الديكُ أكيسَ مِنْكَ ينادي بالأسحارِ وأنتَ نائمٌ». ولقد أحسنَ من قَالَ شعرًا:

لقد هَتَفَتْ في جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامةٌ
عَلى فَنَنٍ وَهْنًا وإنِّي لَنائمُ[5]
كذبْتُ وبيتِ اللّهِ لو كُنْتُ عاشقًا
لَمَا سَبقَتْني بالبُكاءِ الْحَمائمُ
وأزْعُمُ أني هائمٌ ذو صَبابةٍ
لِرَبِّي فلا أبكي وتبكي البهائمُ

١- الإسراء: ٧٩.

٢- الذاريات: ١٨.

٣- آل عمران: ١٧.

٤- (ثلاثة أصوات يحبها اللّه...) أخرجه الديلمي، ورواه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٢٨٥).

٥- الوهْنُ: منتصفُ الليل.

- أيُّها الوَلَدُ، خُلاصَةُ العِلْمِ أَنْ تعلمَ الطَّاعَةَ والعِبَادَةَ ما هي.
- اعْلَمْ أن الطَّاعَةَ والعِبَادَةَ متابعةُ الشَّارعِ في الأوامرِ والنَّواهي بالقَوْلِ والفِعْلِ، يعني كُلَّ ما تقول وتفعل وتترك يكون باقتداء الشَّرْعِ،كما لو صُمْتَ يَوْمَ العيدِ وأيامَ التَّشْريقِ تَكُونُ عاصيًا، أو صَلَّيْتَ في ثوبٍ مغصوبٍ وإنْ كَانَتْ صورةَ عبادةٍ تأثَمُ.
- أيُّها الوَلَدُ، يَنْبَغِي لَكَ أَنْ يَكُوْنَ قولك وفعلك موافقًا للشرع؛ إذ الْعِلْمُ والْعَمَلُ بلا اقتداءِ الشَّرْعِ ضَلالةٌ، ويَنْبَغِي لَكَ ألا تغترَّ بالشَّطْحِ وطامَّات الصُّوفية؛ لأن سلوكَ هَذا الطَّرِيقِ يكونُ بالْمُجَاهَدَةِ وقطعِ شَهوة النَّفْسِ وقَتْلِ هواها بِسَيْفِ الرِّياضةِ لا بالطَّامَّاتِ والتُّرَّهاتِ[1].
- وَاعْلَمْ أن اللِّسَانَ المطْلَقَ، والْقَلْبَ المطْبَقَ المملوءَ بالغَفْلةِ والشَّهْوَةِ عَلامَةُ الشَّقاوةِ، فإِذَا لَمْ تَقْتُلِ النَّفْسَ بصِدْقِ الْمُجَاهَدَةِ فلن يَحْيَا قَلْبُكَ بأنوارِ المَعْرِفَةِ.
- وَاعْلَمْ أنَّ بعضَ مَسَائِلِكَ التي سألْتَني عَنْهَا لا يَسْتَقِيمُ جوابُها بالْكِتَابَةِ والقَوْلِ، إن تَبْلُغَ تِلْكَ الحالة تعرف ما هي، وإلا فعلمُها من المستحيلاتِ لأنَّها ذَوْقِيَّةٌ، وكلُّ ما يكون ذوقيًّا لا يَسْتَقِيمُ وَصَفُهُ بالقَوْلِ، كحلاوةِ الحُلْوِ ومَرَارَةِ الْمُرِّ لا تُعْرَفُ إلا بالذَّوقِ، كما حُكِيَ أنَّ عِنِّيْنًا كَتَبَ إلى صَاحِبٍ لَهُ أَنْ عَرِّفْنِي لَذَّةَ المجامعةِ كيفَ تَكُونُ. فَكَتَبَ لَهُ في جوابِهِ: يا فلانُ، إني كُنْتُ حَسِبْتُكَ عِنِّيْنًا فقط، والآنَ عَرَفْتُ أَنَّكَ عِنِّيْنٌ وأحمقُ؛ لأنَّ هَذِهِ اللذَّةَ ذوقيةٌ إنْ تصلْ إِلَيْها تَعْرِفْ، وإلا لا يَسْتَقِيمُ وَصْفُها بالقَوْلِ والْكِتَابَةِ.
- أيُّها الوَلَدُ، بعضُ مَسَائِلِكَ من هَذا القبيلِ، وأمَّا البعضُ الَّذي يَسْتَقِيمُ لَهُ الجوابُ فَقَدْ ذكرناه في (إحياء العُلُوْمِ) وغَيْرِه، ونذكرُ هاهنا نُبَذً مِنْهُ، ونشيرُ إِلَيْهِ فنقول:

١- الشَّطْحُ في (مصطلحات الصُّوفية) عبارة عن كلمة عليها رائحةُ رعُونة ودعْوَى. والطَّامَّةُ: الداهية تَغْلب ما سِواها. والتُّرَّهات والتُّرَّهات: الأَباطيل، واحدتها تُرَّهة، وهي في الأَصل الطُّرُق الصغار المُتَشَعِّبة عن الطريق الأَعظم، ويقصد البدع التي يتجاوزون بها حدود الشريعة.

- قد وَجَبَ عَلَى السَّالكِ أَرْبَعَةُ أُمُوْرٍ؛ الأَمْرُ الأَوَّلُ: اعتقادٌ صحيحٌ لا يكونُ فِيهِ بِدْعَةٌ.
- والثَّاني: توبةٌ نَصُوحٌ لا يرجعُ بَعْدَهَا إلى الزَّلَّةِ.
- والثالثُ: استرضاءُ الخصومِ حَتَّى لا يبقى لأحدٍ عَلَيْكَ حَقٌّ.
- والرَّابعُ: تحصيلُ عِلْمِ الشَّريعةِ قَدْرَ ما تؤدَّى بِهِ أوامرَ اللَّه تَعَالَى، ثُمَّ من العُلُوْمِ الأخرى، ما تَكُونُ بِهِ النَّجاةُ.
- حُكيَ أَنَّ الشِّبْلِيَّ رَحِمَهُ اللَّه خدمَ أربعَ مائة أستاذٍ وقَالَ: قرأتُ أَرْبَعَةَ آلافِ حديثٍ، ثُمَّ اخترتُ مِنْهَا حديثًا واحدًا، وعملتُ بِهِ وخَلَّيْتُ ما سِواهُ، لأني تأمَّلْتُهُ فوجدتُ خَلاصي ونجاتي فيه، وكَانَ عِلْمُ الأَوَّلِيْنَ والآخِرِيْنَ كله مندرجًا فِيهِ فاكتفيتُ بِهِ، وذَلِكَ أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قَالَ لبعضِ أَصْحَابِهِ: اعْمَلْ لدُنياكَ بِقَدْرِ مُقَامِكَ فِيهَا، واعْمَلْ لآخِرَتِكِ بقدر بقائكَ فِيهَا، واعْمَلْ للَّهِ بِقَدْرِ حاجتك إِلَيْهِ، واعمل للنار بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَيْهَا»[1].
- أيُّها الوَلَدُ، إِذَا علمتَ هَذا الحَديثَ لا حاجةَ إلى العِلْمِ الكَثِيرِ، وتأمَّلْ فِي حكاياتٍ أخرى، وذَلِكَ أَنَّ (حاتم الأصمَّ رَحِمَهُ اللَّه) كَانَ من أَصْحَابِ الشَّقيقِ البَلخيِّ رحمة اللَّه فسأَلَهُ يَوْمًا قَالَ: صَاحَبْتَنِي منذُ ثلاثينَ سَنَةً ما حَصَّلْتَ فِيهَا. قَالَ: حَصَّلْتُ عَلَى ثماني فوائد من العِلْمِ، وهي تكفيني مِنْهُ، لأني أرجو خلاصي ونجاتي فِيهَا، فقَالَ شقيق: ما هي؟ قَالَ حاتم الأصمُّ:
- الفَائِدَةُ الأولى: أني نظرتُ إلى الخَلْقِ فرأيتُ لكلٍّ مِنْهُم محبوبًا ومعشوقًا يُحِبُّهُ ويعشقه، وبعض ذَلِكَ المحبوب يصَاحِبُهُ إلى مرضِ المَوْتِ، وبعضُهُ إلى شفيْرِ القَبْرِ، ثُمَّ يرجعُ كلهُ ويتركُهُ فريدًا وحيدًا، وَلا يدخل مَعَهُ فِي قَبْرِهِ مِنْهُم أحدٌ، فتَفَكَّرْتُ وقلتُ: أفضلُ محبوبِ المَرْءِ ما يَدْخُلُ فِي قَبْرِهِ

١- رواه البيهقي بلفظ: «اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدًا، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدًا» أشار السيوطي لضعفه.

ويُؤانِسُهُ فيه، فما وجدتُ غَيْرَ الأعمالِ الصَّالِحَةِ فأخذتُها محبوبًا لي لتَكُونَ سراجًا لي فِي قَبْرِي، وتؤانِسُنِي فِيهِ وَلا تتركني فريدًا.

- الفَائِدَةُ الثَّانيةُ: أني رأيتُ الْخَلْقَ يقتدون بأهوائهم، ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأمَّلت قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[1]، وتيقنت أنّ الْقُرْآنَ حَقٌّ صادقٌ، فبادرتُ إلى خلافِ نَفْسِي، وتشمَّرتُ لمجاهدتِها ومنعِها عَنْ هواها حَتَّى ارتاضتْ لطاعةِ اللّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى وانقادتْ.

- الفَائِدَةُ الثالثةُ: أني رأيتُ كُلَّ واحدٍ من النَّاسِ يَسْعَى فِي جَمْعِ حطام الدُّنْيَا، ثُمَّ يمسِكُهُ قابضًا يَدَهُ عَلَيْهِ، فتأمَّلتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[2]، فبذلتُ محصولي من الدُّنْيَا لوجْهِ اللّهِ تَعَالَى فَفَرَّقْتُهُ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ ليَكُوْنَ ذُخرًا لي عِنْدَ اللّه تَعَالَى.

- الفَائِدَةُ الرَّابعةُ: أني رأيتُ بعضَ الْخَلْقِ ظنَّ شَرَفَهُ وعِزَّهُ فِي كَثْرَةِ الأقوامِ والعشائرِ فاغترَّ بهم، وزعم آخرون أَنَّهُ فِي ثروة الأموال وكَثْرَةِ الأولادِ فافتخروا بها، وحَسِبَ بَعْضُهُمْ الشَّرَفَ والعزَّ فِي غصبِ أموالِ النَّاسِ وظلمِهم وسفكِ دمائِهم، واعتقدتْ طائفةٌ أَنَّهُ فِي إتلافِ الْمَالِ وإسرافِهِ وتبذيرِهِ، وتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3]، فاخترتُ التَّقْوَى، واعتقدتُ أنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ صادقٌ، وظنُّهم وحسبانُهم كلُّهُ باطلٌ زائلٌ.

- الفَائِدَةُ الخامسةُ: أني رأيتَ النَّاسَ يذمُّ بَعْضُهُمْ بعضًا، ويغتابُ بَعْضُهُمْ بعضًا، فوجدتُ ذَلِكَ من الْحَسَدَ فِي الْمَالِ والجاه والعِلْم، فتَأَمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[4]، فعلمتُ أنَّ

١- النازعات: ٤٠-٤١.

٢- النحل: ٩٦.

٣- الحجرات: ١٣.

٤- الزخرف: ٣٢.

القِسْمةَ كَانَت من اللّهِ تَعَالَى فِي الأزَلِ، فما حَسَدْتُ أحدًا، ورضيتُ بقسمةِ اللّهِ تَعَالَى.

- الفَائِدَةُ السَّادسةُ: أني رأيت النَّاسَ يعادي بَعْضُهُمْ بعضًا لغرضٍ وسببٍ، فتَأمَّلْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، فعلمت أَنَّهُ لا تجوزُ عداوةُ أحدٍ غَيْرَ الشَّيْطَانِ.

- الفَائِدَةُ السَّابعةُ: أني رأيت كُلَّ أحدٍ يَسْعَى بِجِدٍّ، ويجتهدُ بمبالغةٍ لطلبِ القُوتِ والمعاشِ؛ بحيثُ يقعُ بِهِ فِي شُبْهةٍ وحَرَام، ويُذِلُّ نَفْسَهُ ويُنْقِصُ قَدْرَهُ، فتأمَّلْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[2]، فعلمتُ أنَّ رزقي عَلَى اللّهِ تَعَالَى، وقد ضَمِنَهُ فاشتغلتُ بعبادتِهِ، وقطعتُ طمعي عمَّنْ سِواهُ.

- الفَائِدَةُ الثَّامنةُ: أني رأيتُ كُلَّ واحدٍ معتمدًا عَلَى شئٍ مخلوقٍ؛ بَعْضُهُمْ إلى الدِّينار والدِّرْهَم، وبَعْضُهُمْ إلى المَالِ والملكِ، وبَعْضُهُمْ إلى الحرفة والصِّنَاعَة، وبَعْضُهُمْ إلى مخلوقٍ مثْله، فتَأمَّلْتُ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[3]، فتوكَّلتُ عَلَى اللّه فهو حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

- فقَالَ شقيقُ رَحِمَهُ اللّهُ: وفَّقكَ اللّه تَعَالَى إني قَدْ نظرتُ التَّوْرَاةَ وَالزَّبُورَ وَالإنجيلَ والْفُرْقَانَ، فوجدتُ الكُتُبَ الأرْبَعَة تَدُوْرُ عَلَى هَذِهِ الفوائدِ الثَّمانيةِ، فمن عَمِلَ بِهَا كَانَ عاملا بِهَذِهِ الكُتُبِ الأرْبَعَةِ.

- أيُّها الوَلَدُ، قَدْ علمتَ من هاتَيْنِ الحكايتينِ أَنَّكَ لا تحتاجُ إلى تكْثِيرِ العِلْمِ، والآن أُبَيِّنُ لَكَ ما يَجِبُ عَلَى سالكِ سبيلِ الْحَقِّ.

- اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي للسَّالكِ شَيْخٌ مُرْشِدٌ مُرَبٍّ ليُخْرِجَ الأخْلاقَ السَّيِّئَةَ مِنْهُ

١- فاطر: ٦.

٢- هود: ٦.

٣- الطلاق: ٣.

بتربيتِهِ، ويَجْعَلَ مكانَها خُلُقًا حَسَنًا، ومعنى التَّرْبِيَةِ يُشْبِهُ فِعْلَ الفَلاح الَّذِي يقلعُ الشَّوْكَ ويُخْرِجُ النَّباتاتِ الأجنبيَّةِ من بَيْنِ الزَّرْعِ لِيَحْسُنَ نَباتُهُ ويَكْمُلَ رَيْعُهُ، وَلا بُدَّ للسَّالكِ من شَيْخٍ يؤدِّبُهُ ويرشِدُهُ إلى سبيلِ اللّهِ تَعَالَى، لأنَّ اللّه أَرْسَلَ للعبادِ رسولا للإرشادِ إلى سبيلِهِ، فإذا ارْتَحَلَ ﷺ خَلَفَ الخلفاءُ في مكانِهِ حَتَّى يُرْشِدوا إلى اللّهِ تَعَالَى.

- وشَرْطُ الشَّيْخِ الَّذِي يَصْلَحُ أن يَكُونَ نائبًا لرسولِ اللّهِ ﷺ أن يَكُونَ عالمًا، ولَكِنْ لا كُلُّ عالم يَصْلُحُ للخِلافةِ، وإني أُبَيِّنُ لَكَ بعضَ علاماتِهِ عَلَى سبيلِ الإجمالِ، حَتَّى يدَّعيَ كلُّ أحدٍ أَنَّهُ مُرْشِدٌ؛ فنقول: من يُعْرِضُ عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا، وحب الجاه، وكَانَ قَدْ تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته إلى سيد المُرْسَلِيْنَ ﷺ، وكَانَ مُحْسِنًا رياضةَ نَفْسِهِ بقِلَّةِ الأكلِ والقَوْلِ والنَّوْمِ، وكَثْرَةِ الصَّلواتِ والصَّدَقَةِ والصَّوْمِ، وكَانَ بمتابعته ذَلِكَ الشَّيْخِ البصير جاعلا مَحَاسِنَ الأَخْلاقِ لَهُ سِيْرَةً كالصَّبْرِ، والصَّلاةِ، والشُّكرِ، والتَّوكُّلِ، واليقينِ، والقناعةِ، وطمأنينةِ النَّفْسِ، والحِلْمِ، والتَّواضعِ، والعِلْمِ، والصِّدْقِ، والحياءِ، والوفاءِ، والوقارِ، والسُّكونِ، والتَّأنِّي وأمثالِها، فهو إذًا نورٌ من أنوارِ النَّبيِّ ﷺ يَصْلَحُ للاقتداءِ بِهِ، ولَكِنَّ وجودَ مِثْلِهِ نادرٌ أعزُّ مِنَ الكبْرِيتِ الأَحْمَرِ[١].

- ومن سَاعَدَتْهُ السَّعَادَةُ فوجَدَ شَيْخًا كما ذكرنا، وقَبِلَهُ الشَّيْخُ يَنْبَغِي أَنْ يحتَرِمَهُ ظاهرًا وباطنًا. أمَّا احترامُ الظَّاهِرِ: فهو ألا يجادِلَهُ، وَلا يشتغلَ بالاحتجاجِ مَعَهُ في كُلِّ مَسْأَلَةٍ وإن عِلْمَ خَطأَهُ، ولا يُلْقِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَجَّادَتَهُ إلا وَقْتَ أداءِ الصَّلاةِ، فإذا فَرَغَ يرفعها، وَلا يكثرُ نوافلَ الصَّلاةِ بحضرته، ويعملُ ما يَأْمُرُه الشَّيْخُ من العَمَلِ بقَدْرِ وُسْعِهِ وطاقته. وأمَّا احترامُ الباطنِ: فهو أنَّ كُلَّ ما يَسْمَعُ وَيَقْبَلُ مِنْهُ في الظَّاهِرِ لا يُنْكِرُهُ في

١- الكبْرِيتُ: من الحجارة المُوقَد بها؛ قال ابن دريد: لا أَحسبه عربيًّا صحيحًا. وقيل: الكبْريت عَينٌ تجْري، فإذا جَمَدَ ماؤُها صارَ كِبْريتًا أَبيضَ وأَصفرَ وأَكْدَرَ. وفي التهذيب: الكبْريتُ الأَحمرُ: يقال هو من الجَوْهر، ومَعْدِنُه خَلْفَ بلاد التُّبَّت، وادي النمل الذي مَرَّ به سليمانُ على نبينا وعليه الصلاة والسلام. والكِبْريتُ: الياقوتُ الأَحمرُ. والكِبْريتُ: الذهبُ الأَحمر (لسان العرب).

الباطنِ، لا فعلا وَلا قولا، لئلا يتَّسِمَ بالنِّفاقِ، وإن لَمْ يستطعْ يتركْ صُحبَتَهُ إلى أن يوافِقَ باطنُهُ ظاهِرَهُ، ويحترزَ عَنْ مجالسةِ صَاحِبِ السُّوءِ لِيَقْصُرَ وِلايةَ شياطينِ الجنِّ والإنسِ عَنْ صَحْنِ قلبِهِ فيُصفَّى من لَوْثِ الشَّيْطنةِ، وعلى كُلِّ حالٍ يختارُ الفَقْرَ عَلَى الغِنَى(١).

- ثُمَّ اعْلَمْ أن التَّصوُّفَ لَهُ خَصْلتانِ: الاستقامة مَعَ اللّه تَعَالَى، والسُّكون عَنِ الْخَلْقِ؛ فمن استقامَ مَعَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ، وأحسنَ خُلُقَهَ بالنَّاسِ، وعامَلَهُم بالْحِلْمِ فهو صُوفيٌّ(٢).

- والاستقامةُ: أنْ يفدي حظَّ نَفْسِهِ عَلَى أَمْرَ اللّهِ تَعَالَى.

- وحُسْنِ الْخُلُقِ مَعَ النَّاسِ: ألا تَحْمِلَ النَّاسَ عَلَى مُرادِ نَفْسِكَ، بَلْ تَحْمِلُ نَفْسَكَ عَلَى مُرادهم، ما لَمْ يخالفوا الشَّرْعَ.

- ثُمَّ إنَّكَ سَألتَنِي عَنِ العُبُودِيَّةِ، وهي ثلاثةُ أشياءَ؛ أحدُها: محافظةُ أَمْرَ الشَّرْعِ. وثانيها: الرِّضاءُ بالقضاءِ والقَدَرِ وقِسْمَةِ اللّهِ تَعَالَى. وثالثُها: تَرْكُ رِضَاءِ نَفْسِكَ في طَلَبِ رِضَاءِ اللّهِ تَعَالى.

١- اللَّوْثُ: الشَّرُّ، والمطالبات بالأَحْقاد؛ وهو من التَّلَوُّث التلطُّخ.

٢- أخذ على الغزالي دعوته لمذهب الصُّوفية وتركه قانون الفقه؛ وقد نبَّه د. يوسف القرضاوي في كتابه (حجة الإسلام الغزالي) إلى إن أخطر ما يؤخذ على الغزالي بالنسبة إلى التصوف، هو قضية الكشف والمكاشفة التي يحصل الصوفي على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية (الكشف) قال في أبجد العلوم» [ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالبًا كشف حجاب الحس، والاطلاع على علم من أمر اللّه، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم، وسبب هذا الكشفً، أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه، وتجدد نشوه، وأعانه على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح...وهذا الكشف كثيرًا ما يعرض لأهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم، وكذلك يدركون من الواقعات قبل وقوعها، فيتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع إرادتهم...]. وفسَّرَ د. ماجد عرسان الكيلاني اهتمامَ الغزاليِّ بالتصوُّفِ بقوله: إنَّ الغزاليَّ كان قد أخذ على عاتقه مهمة إصلاح الأمة، وبنى مشروعَه الإصلاحي على أساس تزكية النفوس من الداخل؛ لأنه كان يرى أن الصُّوفية هم السَّالكون لطريق اللّه تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير. (هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس).

- وَسَألتَني عَنِ التَّوَكُّل: وهو أن يستحكمَ اعتقادُكَ باللّهِ تَعَالَى فيما وَعَدَ، يعني تعتقدُ أنَّ ما قُدِّرَ لَكَ سيصلُ إلَيْكَ لا مَحالَةَ، وإن اجتهدَ كُلُّ من في العالَمِ عَلَى صَرْفِهِ عَنْكَ، وما لَمْ يُكْتَبْ لنْ يصلَ إلَيْكَ وإن ساعَدَكَ جَمِيْعُ العالَمِ.
- وَسَألتَنِي عَنِ الإخلاصِ: وهو أَنْ تَكُونَ أعمالُكَ كلها للّه تَعَالَى، وَلا يرتاحُ قَلْبُكَ بمحامدِ النَّاسِ، ولا تُبَالي بِمَذَمَّتِهِمْ.
- وَاعْلَمْ أنَّ الرِّياءَ يتولَّدُ من تعظيمِ الْخَلْقِ، وعلاجُهُ أنْ تراهم مُسَخَّرِيْنَ تحتَ القُدْرةِ، وتحسبهم كالجماداتِ في عدمِ قدرة إيصالِ الراحةِ والمشقة لتخلص من مُراءاتِهِمْ، ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يبعد عَنكَ الرياء.
- أيُّها الوَلَدُ، والباقي من مَسَائِلِكَ بعضُها مَسْطورٌ في مُصَنَّفاتي، فاطلبْهُ ثَمَّةَ، وكتابةُ بعضِها حرامٌ، اعملْ أَنتَ بما تَعْلَمُ لينكشفَ لَكَ ما لَمْ تعلمْ.
- أيُّها الوَلَدُ، بَعْدَ اليَوْم لا تسألني ما أشكل عَلَيْكَ إلا بلسان الجنان؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[1]، واقبلْ نصيحة الخضر عَلَيْهِ السَّلامُ حِيْنَ قَالَ: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[2]، وَلا تستعجلْ حَتَّى تَبْلُغَ أوانَهُ فينكشفَ لَكَ وتَرَاهُ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[3]، فلا تَسْألْني قَبْلَ الوَقْتِ، وتيقَّنْ أنَّكَ لا تصلُ إلا بالسَّيْرِ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾[4].
- أيُّها الوَلَدُ، باللّه إنْ تَسِرْ تَرَ العَجائبَ في كلِّ مَنْـزِلٍ، وابذلْ رُوحَكَ، فإنَّ رأسَ هَذا الأَمْرِ بذلُ الرُّوحِ، كما قَالَ ذو النُّونِ المصريُّ رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى

١- الحجرات: ٥.

٢- الكهف: ٧٠.

٣- الأنبياء: ٣٧.

٤- غافر: ٢١.

لأحدِ تلامذتِه: «إن قَدَرْتَ عَلَى بَذْلِ الرُّوحِ فتَعَالَ، وإلاَّ فلا تَشْتَغِلْ بِتُرَّهَاتِ الصُّوفيَّةِ».

- أيُّها الوَلَدُ، إني أنصَحُكَ بثمانيةِ أشياءَ، اقبَلْها مِنِّي لئلا يَكُوْنَ علمُكَ خَصْمًا عَلَيْكَ يَوْمَ القِيامَةِ، تَعْمَلُ مِنْهَا أَرْبَعَةً، وتَدَعُ مِنْهَا أَرْبَعَةً: أمَّا اللواتي تَدَعُ؛ فأحَدُها: ألاَّ تناظرَ أحدًا في مَسْأَلَةٍ ما اسْتَطَعْتَ؛ لأنَّ فِيهَا آفاتٍ كَثِيرَةٍ فإثْمُها أكبَرُ من نفعِها؛ إذْ هي منبعُ كلِّ خُلُقٍ ذميم، كالرِّياءِ، والحَسَدَ، والكِبْرِ، والحقدِ، والعَداوةِ، وَالمُبَاهَاةِ، وغَيْرِها، نَعَمْ لَو وَقَعَ مَسْأَلَةٌ بَيْنَك وبَيْنَ شَخْصٍ أو قَوْم، وكانتْ إرادتُكَ فِيهَا أنْ يظهرَ الحقُّ وَلا يضيعَ جازَ البَحْثُ، لَكِنْ لتلك الإِرادةِ علامتان؛ أحداهُما: ألاَّ تفرِّقَ بَيْنَ أنْ ينكشفَ الحقُّ عَلَى لِسَانِكَ أو عَلَى لسانِ غيْرِكَ. والثَّانيةُ: أنْ يَكُوْنَ البحثُ في الخلاءِ أحبَّ إِلَيْكَ من أنْ يَكُوْنَ في الملأ، واسمعْ إني اذْكُرُ لَكَ ها هنا فائدةً، وَاعْلَمْ أنَّ السُّؤالَ عَنِ المشكلاتِ عَرْضُ مرضِ القَلْبِ إلى الطَّبِيبِ، والجوابُ لَهُ سَعْيٌ لإصْلاحِ مرضِهِ، وَاعْلَمْ أنَّ الجَاهِلِيْنَ المَرْضَى قلوبُهم، والعُلَمَاءُ الأطبَّاءُ، والعالمُ النَّاقصُ لا يُحسِنُ المُعالجةَ، والعالمُ الكاملُ لا يعالِجُ كلَّ مريض، بَلْ يعالِجُ من يرجو قبولَ المعالجةِ والصَّلاحِ، وإذَا كَانَت العِلَّةُ مُزْمِنَةً أو عقيمًا لا تقبلُ العلاجَ فحذاقةُ الطَّبِيبِ فيهِ أن يَقُولُ: هَذا لا يقبلُ العِلاجَ، فلا تشتغلُ بِمُداواتِهِ، لأنَّ فِيهِ تضييعَ العُمْرِ.

- ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ مَرَضَ الجهلِ عَلَى أَرْبَعَةِ أنواع: أحَدِها: يقبلُ العِلاجَ، والباقي لا يقبلُ، أمَّا الَّذِي لا يقبلُ العلاجَ فأحدُها من كَانَ سؤالُه واعتراضُه عَنْ حَسَدِهِ وبُغْضِهِ، فَكُلَّمَا تجيبُهُ بأحسنِ الجوابِ وأفصَحِهِ وأوضَحِهِ فلا يزيدُ لَهُ ذَلِكَ إلا بُغْضًا وعداوةً وحَسَدًا، فالطَّريقُ ألاَّ تشتغلَ بجوابِهِ، فَقَدْ قيلَ:

كلُّ العَداوةِ قَدْ تُرْجَى إزالتُها   إلا عَداوةَ من عَاداكَ عَنْ حَسَدِ

- فيَنْبَغِي أنْ تُعرضَ عَنْهُ وتَتْرُكَهُ مَعَ مرضِهِ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن**

مَن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] والحسودُ بكلِّ ما يَقُولُ ويفعلُ يوقدُ النَّـارَ في زَرْعِ عمَلِه، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْحَسَدُ يأكلُ الْحَسَنَاتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ»[2].

- والثَّـاني: أَنْ تَكُونَ علتُّهُ من الحماقةِ، وهو أيضًا لا يقبلُ العلاجَ، كما قَالَ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ: «إني ما عَجَزْتُ عَنْ إحياءِ الموتى، وقد عَجَزْتُ عَنْ مُعالجةِ الأحْمَقِ». وذَلِكَ رَجُلٌ يشتغلُ بطلبِ العِلْمِ زمنًا قليلا، ويتعلم شيئًا من العِلْمِ العَقْلي والشَّرْعيِّ، فيسألُ ويعترضُ من حماقتِهِ عَلَى العَالم الكبيرِ الَّذِي مَضَّى عُمْرَهُ في العُلُوْم العَقْليةِ والشَّرْعيَّةِ، وهذا الأحْمَقُ لا يَعْلَمُ ويظنُّ أنَّ ما أشكلَ عَلَيْهِ هُوَ أيضًا مُشْكِلٌ عَلَى العَالمِ الكبيرِ، فإِذَا لَمْ يَعْلَمْ هَذا القَدْرَ يَكُوْنُ سؤالُهُ من الحماقةِ، فيَنْبَغِي ألا تشتغلَ بجوابِهِ.
- والثالث: أنْ يَكُوْنَ مُسْتَرْشِدًا، وكلُّ ما لا يَفْهَمُ من كلام الأكابرِ يُحْمَلُ عَلَى قُصُوْرِ فَهْمِهِ، وكَانَ سُؤالُهُ للاستفادةِ لَكِنْ يَكُوْنُ بليدًا لا يدركُ الحَقَائِقَ، فلا يَنْبَغِي الاشتغالُ بجوابِهِ أيضًا، كما قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: نَحْنُ معاشِرَ الأنبياءِ أمِرْنا أنْ نكلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُوْلِهِمْ»[3].
- وأمَّا المَرَضُ الَّذِي يقبلُ العلاجَ: فهو أنْ يَكُوْنَ مُسْتَرْشِدًا عاقلا فَهِمًا، لا يَكُوْنُ مغلوبَ الْحَسَدِ والغضَبِ وحُبِّ الشُّهْرَةِ والجاهِ والمَالِ، ويَكُوْنُ طالبَ الطَّريقِ المستقيم، ولم يكُنْ سؤاله واعتراضه عَنْ حسد وتعنُّت وامتحان، وهذا يقبل العلاج، فيجوز أن تشتغلَ بجوابِ سؤالِهِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إجابتُهُ.

١- النجم: ٢٩.

٢- أخرجه أبو داود والبيهقي بلفظ: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصيام جنة من النار".

٣- قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: ورويناه في جزء من حديث لأبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه، وعند أبي داود من حديث عائشة (أنزلوا الناس منازلهم). وفي البخاري: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله).

- والثَّاني مِمَّا تَدَعُ: هُوَ أَنْ تَحْذَرَ من أَنْ تَكُونَ واعظًا ومُذَكِّرًا؛ لأَنَّ فِيهِ آفةً كَثِيرةً، إلاّ أَنْ تَعْمَلَ بما تقولُ أولا ثُمَّ تَعِظُ بِهِ النَّاسَ، فتَفَكَّرْ فيما قِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: يا ابْنَ مَرْيَمَ، عِظْ نَفْسَكَ، فإن اتَّعَظْتَ فَعِظْ النَّاسَ وإلا فاسْتَحِ من رَبِّكَ. وإِنْ ابتليتَ بهذا الْعَمَلِ فاحترِزْ عَنْ خَصْلَتَيْنِ؛ الأولى: عَنْ التَّكلُّفِ فِي الكلام بالعباراتِ والإشاراتِ والطَّامَّاتِ والأبياتِ والأشعارِ، لأَنَّ اللّه تَعَالَى يبغضُ المتكلِّفِيْنَ، والْمُتَكَلِّفُ: الْمُتجاوِزُ عَنْ الحدِّ يدلُّ عَلَى خَرَابِ الباطنِ وغَفْلَةِ الْقَلْبِ.
- ومعنى التذكير: أَنْ يذكرَ العَبْدُ نارَ الآخِـرَةِ وتقصيرَ نَفْسِهِ فِي خدمةِ الخالقِ، ويَتَفَكَّرَ فِي عُمْرِهِ الماضي الَّذِي أفناهُ فيما لا يَعْنِيْهِ، ويَتَفَكَّرَ فيما بَيْنَ يَدَيْهِ من العَقَباتِ من عدم سَلامةِ الإيمَانِ فِي الخاتمة، وكيفيَّةِ حالِهِ فِي قَبْضِ مَلَكِ الْمَوْتِ، وهل يَقْدِرُ عَلَى جوابِ مُنْكَرٍ ونكيْرٍ، ويهتمُّ بحالِهِ فِي الْقِيَامَةِ ومواقفها، وهل يَعْبُرُ عَنِ الصِّراطِ سالِمًا أم يقعُ فِي الهاويةِ، ويستمرُّ ذكرُ هَـذِهِ الأشياءِ فِي قَلْبِهِ فيزعجهُ عَنْ قَـرَارِهِ، فَغَلَيَانُ هَذِهِ النِّيْرانِ، ونَوْحَةُ هَذِهِ المصائبِ يُسَمَّى تَذْكيْرًا. وإعلامُ الْخَلْقِ وإطلاعُهُمْ عَلَى هذِهِ الأشياء، وتنبيهُهُمْ عَلَى تقصيْرِهم وتفريطِهم، وتبصيرُهُم بعيوبِ أنفسِهم، لتمسَّ حرارةُ هَذِهِ النِّيرانِ أَهْلَ الْمَجْلِسِ، وتجزعهم تِلْكَ المصائبُ، ليتداركوا العُمْرَ الماضي بقدر الطاقة، ويتحسَّروا عَلَى الأيام الخاليةِ فِي غَيْرِ طاعةِ اللّه تَعَالَى؛ وهَذِهِ الجملةُ عَلَى هَذا الطَّرِيقِ تسمّى وَعْظًا، كما لو رأيتَ أنّ السَّيْلَ قَدْ هجمَ عَلَى دارِ أحدٍ، وكَانَ هُوَ وَأَهْلُهُ فِيهَا، فتقول: الحَذَرَ الحَذَرَ، فِرُّوا من السَّيْلِ، وهل يَشْتَهِي قَلْبُكَ فِي هَذِهِ الحالةِ أَنْ تُخْبِرَ صَاحِبَ الدَّار خَبَرَكَ بتكلُّفِ العباراتِ والنُّكَتِ والإشاراتِ، فلا تَشْتَهِيَ البتَّةَ، فكذَلِكَ حالُ الواعظِ، فيَنْبَغِي أَنْ يتجنَّبَها.
- والْخَصْلةُ الثَّانيةُ: ألا تَكُونَ هِمَّتُكَ فِي وعظِكَ أن يَنْعَرَ الْخَلْقُ فِي مَجْلِسِكَ أو يُظْهِروا الوَجْدَ ويَشُقُّوا الثِّيابَ ليقال: نِعْمَ الْمَجْلِسُ هذا! لأَنَّ كُلَّهُ ميلٌ للدُّنيا وهو يتولَّدُ من الغفلة، بَلْ يَنْبَغِي أن يَكُوْنَ عزمُكَ وهِمَّتُكَ أن تدعوَ النَّاسَ من الدُّنْيَا إلى الآخِرَةِ، ومن الْمَعْصِيَةِ إلى الطَّاعَةِ، ومن الحرصِ

إلى الزُّهدِ، ومن الْبُخْلِ إلى السَّخَاءِ، ومن الشَّكِّ إلى اليقينِ، ومن الغفلةِ إلى اليقظةِ، ومن الغرورِ إلى التَّقْوَى، وتُحبِّبَ إلَيْهِم الآخِرَةَ، وتبغِّضَ إلَيْهِم الدُّنْيَا، وتعلِّمُهُمْ عِلْمَ العِبَادَةِ والزُّهدِ وَلا تَغُرُّهُم بكرم اللّه تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ ورحمتِهِ، لأَنَّ الغالبَ فِي طِباعِهِمْ الزَّيغُ عَنْ منهجِ الشَّرْعِ، والسَّعيُ فيما لا يَرْضَى اللّه تَعَالَى بِهِ، والاستعثارُ بالأَخْلاقِ الرَّديَّةِ، فألْقِ فِي قلوبهِمْ الرُّعْبَ وروِّعْهُم وحذِّرْهُم عَمَّا يستقبلونَ من المخاوفِ، لعلَّ صفاتِ باطنِهم تتغيَّرُ ومعاملةَ ظاهرِهِمْ تتبدَّلُ، ويُظْهِروا الحِرصَ والرَّغْبَةَ فِي الطَّاعَةِ والرجوعَ عَنْ المَعْصِيَةِ، وهذا طريقُ الوَعْظِ والنَّصِيْحَةِ، وكلُّ وَعْظٍ لا يَكُوْنُ هكذا فهو وبالٌ عَلَى من قَالَ وسَمِعَ، بَلْ قيل: إنَّهُ غُولٌ وشيطانٌ يذهبُ بالْخَلْقِ عَنْ الطَّرِيقِ ويُهْلِكُهُمْ فيَجِبُ عَلَيْهِم أَنْ يفِرُّوا مِنْهُ، لأَنَّ ما يفسِدُ هَذا القائلُ من دِيْنِهِم لا يستطيعُ بمِثْلِهِ الشَّيْطَانُ، ومن كَانَتْ لَهُ يَدٌ وقُدْرَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أن يُنْزِلَهُ عَنْ منابرِ المواعظِ ويمنَعَهُ عَمَّا باشَرَ فإنَّهُ من جُمْلَةِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهي عَنِ الْمُنْكَرِ.

- والثَّالثُ مِمَّا تَدَعُ: ألاَّ تُخالطَ الأمراءَ والسَّلاطينَ وَلا تراهم؛ لأَنَّ رؤيتَهم ومجالستَهم ومخالطتَهم آفةٌ عظيمةٌ، ولو ابتُلِيْتَ بِهَا دَعْ عَنكَ مدحَهُمْ وثناءَهم؛ لأَنَّ اللّه تَعَالَى يغضبُ إِذَا مُدِحَ الفاسقُ والظالمُ، ومن دَعا لطولِ بقائِهم فَقَدْ أحبَّ أَنْ يُعْصَى اللّه تَعَالَى فِي أَرْضِهِ[1].

- والرَّابعُ مِمَّا تَدَعُ: ألاَّ تقبلَ شيئًا من عطاءِ الأمراءِ وهداياهم، وإنْ علمتَ أنها من الحلالِ، لأَنَّ الطَّمَعَ مِنْهُم يفسدُ الدِّيْنَ لأَنَّهُ يتولَّدُ مِنْهُ المداهنةُ ومُرَاعَاةُ جانبهم والموافقةُ فِي ظلمهم، وهذا كله فسادٌ فِي الدِّيْنِ وأقلُّ مَضَرَّتِهِ أَنَّكَ إِذَا قبلتَ عطاياهم وانتفعت من دُنْيَاهُمْ أَحْبَبْتَهُمْ، ومن أحبَّ أحدًا يُحِبُّ طولَ عمره وبقائه بالضَّرُوْرَةِ، وفِي محبَّةِ الظالم إرادةٌ فِي الظُّلْم على عباد اللّه تَعَالَى، وإرادةُ خَرَابِ العالم، فأيُّ شيءٍ يَكُوْنُ أضرَّ من هَذا للدِّيْنِ والعاقبةِ؟

١- ورد فِي الحديث: «إن الله يغضب إذا مدح الفاسق فِي الأرض». أورده المتقي الهندي فِي (كنز العمال) رقم ٧٩٦٦.

- وإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ يخدَعَكَ استهواءُ الشَّياطينِ، أو قولُ بعض النَّاسِ لَكَ بأنَّ الأفضلَ والأولى أنْ تأخذَ الدِّينارَ والدِّرْهمَ مِنْهُم وتفرِّقُهُمَا بَيْنَ الفقراءِ والمَسَاكِينِ، فإنَّهم يُنْفِقون في الفِسْقِ والمَعْصِيَةِ، وإنفاقُك عَلَى ضُعفاءِ النَّاسِ خَيْرٌ من إنفاقهم، فَإنَّ اللعين قَدْ قَطَعَ أعناقَ كَثيرٍ من النَّاسِ بِهَذِهِ الوَسْوَسَةِ، وقد ذكرناه في (إحياء العُلُوْمِ) فاطلبْهُ ثَمَّةَ.
- وأمَّا الأَرْبَعَةُ التي يَنْبَغِي لَكَ أن تفعَلَها؛ فالأول: أن تجعلَ معاملتَك مَعَ اللّه تَعَالَى، بحيث لو عامَلَ معك بِهَا عبدُك تَرْضَى بِهَا مِنْهُ، وَلا يضيقُ خاطرُكَ عَلَيْهِ، وَلا تغضب، والذي لا تَرْضَى لِنَفْسِكَ من عبدِكَ المجازيِّ فلا ترضَ أيضًا للّه تَعَالَى وهو سيِّدُكَ الحقيقيُّ.
- والثَّاني:كلَّما عملتَ بالنَّاسِ اجْعَلْه كما تَرْضَى لِنَفْسِكَ مِنْهُم، لأَنَّهُ لا يكمُلُ إيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يُحِبَّ لسائرِ النَّاسِ ما يُحِبُّ لنَفْسِهِ.
- والثَّالثُ: إذَا قرأتَ العِلْمَ أو طالعتَهُ يَنْبَغِي أنْ يَكُوْنَ عِلمُكَ يُصْلِحُ قَلْبَكَ ويزكِّي نَفْسَكَ، كما لو علمتَ أنَّ عمرك ما يبقى غَيْرَ أسبوعٍ فبالضَّرُوْرَةِ لا تشتغلُ فِيهَا بعِلْمِ الفِقْهِ، والأَخْلاقِ، والأصولِ، والكلامِ، وأمثالِها، لأنك تعلمُ أنَّ هَذِهِ العُلُوْمَ لا تُغْنيكَ، بَلْ تشتغلُ بمراقبةِ القَلْبِ، ومَعْرِفَةِ صِفاتِ النَّفْسِ، والإعراضِ عَنْ علائقِ الدُّنيا، وتزكِّي نَفْسَكَ عَنْ الأَخْلاقِ الذَّمِيْمَةِ، وتشتغلُ بمحبةِ اللّه تَعَالَى وعبادتِهِ، والاتِّصافِ بالأوصافِ الحَسَنَةِ، وَلا يَمُرُّ عَلَى عبدٍ يَوْمٌ وليلةٌ إلا ويُمْكِنُ أنْ يَكُوْنَ موتُهُ فيه.
- أيُّها الوَلَدُ، اسمعْ مِنِّي كلامًا آخرَ، وتفكَّرْ فِيهِ حَتَّى تجدَ خلاصًا، لو أَنَّكَ أُخْبِرْتَ أنَّ السُّلْطَانَ بَعْدَ أسبوعٍ يجيئُكَ زائرًا [1]، فأنا أَعْلَمُ أَنَّكَ في تِلْكَ المدَّةِ لا تشتغلُ إلاَّ بإصلاحِ ما علمتَ أنَّ نظرَ السُّلْطَانِ سيقعُ عَلَيْهِ من الثيابِ والبَدَنِ والدَّار والفراش وغَيْرِها، والآن تفكَّرْ إلى ما أشرتُ بِهِ فَإنَّك فَهِمٌ، والكلامُ الفرد يكفي الكَيِّسَ، قَالَ رسولُ اللّه ﷺ: «إنَّ اللّه لا

١- (يجيئُكَ زائرًا) وفي بعض النسخ (يختارك وزيرًا).

ينظرُ إلى صُوَرِكُم وَلا إلى أعمالِكم ولَكِنْ ينظرُ إلى قلوبِكم ونيَّاتِكم»[١].

- وإنْ أردتَ عِلْمَ أحوالِ الْقَلْبِ فانظرْ إلى (الإحياء) وغَيْرِه من مصنفاتي، وهذا العِلْمُ فرضُ عَيْنٍ وغَيْرُهُ فرْضُ كفايةٍ إلا مقدارُ ما يؤدَّى بِهِ فرائِضُ اللّهِ تَعَالَى، وهو يوفِّقُكَ حَتَّى تُحَصِّلَهُ[٢].

- والـرَّابـعُ: ألا تجمعَ من الدُّنْيَا أكثرَ من كفايةِ سنةٍ، كما كَانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يُعِدُّ ذَلكَ لبعضِ حُجُراتِهِ وقَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا»[٣]، ولم يكُنْ يُعِدُّ ذَلِكَ لِكُلِّ حُجُراتِهِ بَلْ كانَ يُعِدُّهُ لمن عَلِمَ أنَّ في قلبِهَا ضعفًا، وأمَّا من كَانَت صَاحِبَةَ يقينٍ فما كَانَ يُعِدُّ لَهَا أكثرَ من قوتِ يَوْمٍ أو نصف.

١- (إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم) رواه مسلم.

٢- يعدُّ كتابُ (إحياء علوم الدين) خلاصة كتبِ التصوّف، وعُصارة أصحاب الطرق، فإنه أوسعها على الإطلاق؛ لذلك فإن من المتصوفة من حفظه عن ظهر قلب، ومنهم من قرأه خمسًا وعشرين مرة، ومنهم من نسخه أربعين مرة. وقد ذكر المؤلف أنّ كتابه هذا تميّزَ عن الكتب المؤلفة بهذا المعنى بخمسة أمور هي: حَلُّ ما عقَّدوه، وكشفُ ما أجملوه، وترتيبُ ما بدّدوه، ونظم ما فرّقوه، وإيجازُ ما طوَّلوه، وضبطُ ما قرَّروه، وحذفُ ما كرّروه، وإثباتُ ما حرّروه، وتحقيقُ أمورٍ غامضة اعتاصت على الأفهام لَم يتعرّض لها في الكتب أصلا. قال السُّبكيُّ عن الإحياء: وهو من الكُتب التي ينبغي الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدي بها كثير من الخلق، وقلما ينظر فيه ناظر إلا وتيقظ له في الحال. وقال ابن كثير: وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب. وهناك من ألف في نقد الإحياء. ويتكون كتاب الإحياء من أربعة أقسام، يندرج تحت كل قسم منها عشرة كتب. الرُّبُعُ الأول في العبادات: من العلم، وقواعد العقائد، وأسرار الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وتلاوة القرآن، والأذكار والأوراد. الرُّبُعُ الثاني في العادات: من آداب الأكل، والنكاح، والكسب، والصحبة، والمعاشرة، والسفر، والسماع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعيشة، وأخلاق النبوة، والمعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائقها، وخفايا الورع مما لا يستغني عنه متدين. الرُّبُعُ الثالث في المهلكات: وعجائب القلب، ورياضة النفس، وآفات الشهوة، واللسان، والحقد والغضب والحسد، وأحوال الناس في ذلك، ثم بين طريقة تزكية النفس من هذه الأمراض الباطنة، بعد أن بين أسبابها وقرن كل ذلك بشواهد من الآيات والأخبار والآثار. الرُّبُعُ الرابع في المنجيات: من التوبة، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والزهد، والتوكل، والرضا، والإخلاص، والمراقبة، وذكر الموت.

٣- رواه مسلم بلفظ: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا) والكفاف: ما أغنى عن سؤال الناس، وحفظ ماء الوجه، وسد الحاجة من الرزق.

- أيُّها الوَلَدُ: إني كَتَبْتُ فِي هَذا الفَصْلِ مُلْتَمَسَاتِكَ فيَنْبَغِي لَكَ أنْ تَعْمَلَ بها، وَلا تَنْسَنِي فِيهِ من أنْ تذكرَني فِي صَالِحِ دُعائكَ.
- وأمَّا الدُّعَاءُ الَّذي سألتَ مِنِّي: فاطلبْهُ من دَعَواتَ الصِّحاح، واقرأْ هَذا الدُّعَاءَ فِي جَمِيْعِ أوقاتِكَ، خُصُوْصًا أعقابَ صَلواتِكَ (اللَّهُمَّ إني أسألُكَ من النِّعْمَةِ تَمامَها، ومن العِصْمةِ دوامَها، ومن الرَّحْمَةِ شُمولَها، ومن العافيةِ حُصُولَها، ومن العيشِ أرْغَدَهُ، ومن العُمْرِ أسعدَهُ، ومن الإحسانِ أتَمَّهُ، ومن الإنعامِ أعمَّهُ، ومن الفَضْلِ أعذَبَهُ، ومن اللُّطْفِ أقرَبَهُ).
- اللَّهُمَّ كُنْ لنا وَلا تكُنْ علينا، اللَّهُمَّ اختمْ بالسَّعَادَة آجالَنا، وحقِّقْ بالزيادةِ آمالَنا، واقْرُنْ بالعافيةِ غُدوَّنا وآصالَنا، وَاجْعَلْ إلى رحمتِكَ مَصِيْرَنا ومآلَنا، واصببْ سِجالَ عفوِك عَلَى ذنوبِنا، ومُنَّ علينا بإصلاحِ عيوبِنا، وَاجْعَلْ التَّقْوَى زادَنا، وفِي دِيْنِكَ اجتهادَنا، وعَلَيْكَ توكُّلَنَا واعتمادَنا، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنا عَلَى نهج الاستقامةِ، وأعِذْنا فِي الدُّنْيا من موجباتِ النَّدامةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وخفِّفْ عَنَّا ثِقْلَ الأوزارِ، وارزقْنا عيشةَ الأبرارِ، واكفِنا واصرفْ عنَّا شَرَّ الأشرارِ، وأعتقْ رقابَنا ورقابَ آبائِنا وأمَّهاتِنا وإخوانِنا وأخواتِنا من النَّارِ، برحمتِك يا عزيزُ يا غفَّار، يا كَرِيْمُ يا ستَّار، يا عليمُ يا جبَّارُ، يا الله، يا الله، يا الله، برحمتِكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، و يا أوَّلَ الأَوَّلِينَ، ويا آخرَ الآخِرِيْنَ، ويا ذَا الْقُوَّةِ المَتِينَ، ويا رَاحمَ المَسَاكِينِ، ويا أرحمَ الرَّاحِمِينَ، لا إِلَهَ إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآله وصحبه أَجْمَعِينَ، والْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[1].

١- أيها الولد: للغزالي، نشرها المستشرق النمساوي پرجشتال (١٧٧٤- ١٨٥٦) يوسف حامر (أو جوزيف همر)Joseph Freiherr Von Hammer: Purgstall. وحققها: د. توفيق الصباغ، وترجمها إلى الفرنسية. وصبعت بتحقيق عليّ محيي الدين عليّ القره داغي، دار البشائر الإسلاميَّة، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ).

المقامة السّاسانيّة: «أوْلى ما لقّنوهُ الصّبيانَ وأنفعَ لهُمْ منْ نِحلةِ العِقيانِ».

وصية الحريري لولده [1]

حكى الحارثُ بنُ همّام قال: بلَغني أنّ أبا زيدٍ حينَ ناهزَ القَبْضَةَ[2]، وابتَزّهُ قيدُ الهرَمِ النّهْضَةَ، أحضَرَ ابنَهُ، بعْدَما اسْتَجاشَ ذِهنَهُ، وقال لهُ:

- يا بنيّ، إنهُ قد دنَا ارتِحالي منَ الفِناء، واكتِحالي بمِرْوَدِ الفَناء، وأنتَ بحمْدِ اللّهِ وليُّ عهْدي، وكبْشُ الكَتيبَةِ السّاسانيّة منْ بعْدي، ومثلُكَ لا تُقرَعُ لهُ العَصا، ولا يُنَبّهُ بطَرْقِ الحصَى، ولكِنْ قد نُدِبَ إلى الإذْكارِ، وجُعِلَ صيْقَلا للأفكارِ.

- وإني أُوصيكَ بما لمْ يوصِ بهِ شيثُ الأنْباطَ، ولا يعْقوبُ الأسْباطَ، فاحفَظْ وصيّتي، وجانِبْ معْصِيتي، واحْذُ مِثالي، وافْقَهْ أمْثالي، فإنّكَ إنِ استَرشَدْتَ بنُصْحي، واستَصْبَحْتَ بصُبْحي، أمْرَعَ خانُكَ، وارتفَعَ دُخانُكَ، وإنْ تناسَيْتَ سُورَتي، ونبذْتَ مَشورَتي، قَلّ رمادُ أثافيكَ، وزَهِدَ أهلُكَ ورهْطُكَ فيكَ.

- يا بنيّ، إني جرّبْتُ حقائِقَ الأمورِ، وبلَوْتُ تصاريفَ الدّهورِ، فرأيْتُ المرْءَ بنَشَبِهِ، لا بنَسَبِهِ، والفحْصَ عن مكسَبِهِ، لا عنْ حسَبِهِ، وكُنتُ سمِعْتُ أنّ المَعايِشَ إمارَةٌ، وتجارَةٌ، وزِراعَةٌ، وصِناعَةٌ، فمارَسْتُ هذِهِ الأرْبَعَ، لأنظُرَ أيّها أوفقُ وأنفَعُ، فما أحْمَدْتُ منها معيشَةً، ولا استرْغَدْتُ فيها عِيشَةً، أما فُرَصُ الوِلاياتِ، وخُلَسُ الإماراتِ، فكأضْغاثِ الأحْلامِ، والفَيْءِ المُنتَسِخِ بالظّلامِ، وناهيكَ غُصّةً بمَرارَةِ الفِطامِ، وأما بضائِعُ التّجاراتِ، فعُرْضَةٌ للمُخاطَراتِ، وطُعمَةٌ للغاراتِ، وما أشبَهَها بالطّيورِ الطّيّاراتِ،

١- الحريري: القاسم بن علي، أبو محمد البصري (٤٤٦- ٥١٦هـ) من أهل بلد قريب من البصرة يسمى المشان، مولده ومنشؤه به، كان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة، وله تصانيف تشهد بفضله وتقر بنبله، وكفاه شاهدًا كتاب المقامات التي أبر بها على الأوائل، وأعجز الأواخر.

٢- العِقْيَانُ: الذَّهَبُ. القَبْضَةُ: المِلْكُ، يُقَالُ: هذه الدَّارُ في قَبْضَتي وقَبْضِي، كما تقول في يَدِي.

وأما اتّخاذُ الضّياعِ، والتّصدّي لـلازدِراعِ، فمنْهَكَةٌ للأعْراضِ، وقُيودٌ عائِقَةٌ عنِ الارْتِكاضِ، وقلّما خَلا ربُّها عنْ إذْلالٍ، أو رُزِقَ رَوْحُ بالٍ، وأما حِرَفُ أولي الصناعاتِ، فغيْرُ فاضِلَةٍ عنِ الأقْواتِ، ولا نافِقَةٍ في جَميعِ الأوْقاتِ، ومُعظَمُها معْصوبٌ بشَبيبَةِ الحَياةِ، ولمْ أرَ ما هوَ بارِدُ المغنَم، لَذيذُ المطعَم، وافي المكْسَبِ، صافي المَشرَبِ، إلا الحِرفَةَ التي وضعَ ساسانُ أساسَها، ونوّعَ أجْناسَها، وأضْرَمَ في الخافِقَيْنِ نارَها، وأوضَحَ لبَني غَبْراءَ مَنارَها، فشَهِدْتُ وقائِعَها مُعْلِمًا، واخترْتُ سِيماها لي مِيسَمًا، إذْ كانَتِ المَتْجَرَ الذي لا يَبورُ، والمنهَلَ الذي لا يغورُ، والمِصْباحَ الذي يعْشو إلَيْهِ الجُمهورُ، ويستصْبِحُ بهِ العُمْيُ والعورُ، وكانَ أهلُها أعَزّ قَبيلٍ، وأسعَدَ جيلٍ، لا يَرْهَقُهُمْ مسٌّ حيْفٍ، ولا يُقلِقُهُمْ سَلُّ سيْفٍ، ولا يخْشَوْنَ حُمَةَ لاسِعٍ، ولا يَدينونُ لدانٍ ولا شاسِعٍ، ولا يرْهَبونَ ممّنْ برَقَ ورعَدَ، ولا يحفِلونَ بمَنْ قامَ وقعَدَ، أنديَتُهُمْ منزّهَةٌ، وقُلوبُهُمْ مرفّهَةٌ، وطُعَمُهُمْ مُعجّلَةٌ، وأوقاتُهُمْ محَجّلَةٌ، أيْنما سقَطوا، لقَطوا، وحيثُما انخرَطوا خرَطوا، لا يتّخذونَ أوْطانًا، ولا يتّقونَ سُلطانًا، ولا يمْتازونَ عمّا تغْدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا.

- فقالَ لهُ ابنُهُ: يا أبَتِ لقدْ صدَقْتَ، فيما نطَقْتَ، ولكنّك رتَقْتَ، وما فتَقْتَ، فبيّنْ لي كيفَ أقتَطِفُ، ومنْ أينَ تؤكَلُ الكتِفُ؟

- فقال: يا بُنيّ، إنّ الارتِكاضَ بابُها، والنّشاطَ جِلبابُها، والفِطنَةَ مِصباحُها، والقِحَةَ سلاحُها، فكُنْ أجْوَلَ منْ قُطرُبٍ، وأسرى من جُندُبٍ، وأنشَطَ من ظَبْيٍ مُقمِرٍ، وأسلَطَ من ذِئْبٍ متنمّرٍ، واقْدَحْ زَنْدَ جدّكَ بجِدّكَ، واقْرَعْ بابَ رِعيِكَ بسعْيِكَ، وجُبْ كُلّ فجّ، ولِجْ كلّ لُجّ، وانتَجِعْ كلّ روْض، وألْقِ دلْوَكَ إلى كُلّ حوْضٍ، ولا تسْأمِ الطّلَبَ، ولا تملّ الدأبَ، فقدْ كانَ مكتوبًا على عَصا شيْخِنا ساسانَ: منْ طلبَ جلبَ، ومنْ جالَ نالَ.

- وإيّاكَ والكسلَ فإنهُ عُنوانُ النّحوسِ، ولَبوسُ ذَوي البوسِ، ومِفتاحُ المَترَبَةِ، ولِقاحُ المَتعَبَةِ، وشيمَةُ العجَزَةِ الجهَلَةِ، وشِنشِنَةُ الوُكَلَةِ التُّكَلَةِ، وما اشْتارَ

العسَلَ من اخْتارَ الكسلَ، ولا ملأ الرّاحةَ منِ استوْطأ الرّاحةَ.

- وعليْكَ بالإقْدام، ولوْ على الضّرْغام، فإنّ جَراءةَ الجَنانِ، تُنطِقُ اللّسانَ، وتُطلِقُ العِنانَ، وبها تُدرَكُ الحُظوَةُ، وتُملَكُ الثّروةُ، كما أنّ الخوَرَ صِنْوُ الكسَلِ، وسبَبُ الفشَلِ، ومَبْطأةٌ للعمَلِ، ومَخْيَبَةٌ للأمَلِ، ولهذا قيلَ في المثلِ: منْ جسَرَ، أيسَرَ، ومنْ هابَ، خابَ.
- ثمّ ابْرُزْ يا بُنيّ في بكورِ أبي زاجرٍ، وجَراءةِ أبي الحارثِ، وحَزامَةِ أبي قُرّةَ، وختْلِ أبي جَعْدَةَ، وحِرْصِ أبي عُقبَةَ، ونشاطِ أبي وثّابٍ، ومكْرِ أبي الحُصَينِ، وصبْرِ أبي أيّوبَ، وتلَطّفِ أبي غزْوانَ، وتلوّنِ أبي بَراقِشَ، وحيلَةِ قَصيرٍ، ودَهاء عمْرٍو، ولُطفِ الشّعْبيّ، واحتِمالِ الأحنَفِ، وفِطنَةِ إياسٍ، ومَجانةِ أبي نُواسٍ، وطمَعِ أشعَبَ، وعارِضَةِ أبي العَيناء، واخلُبْ بصوْغِ اللّسانِ، واخدعْ بسِحرِ البَيانِ، وارْتَدِ السوقَ قبلَ الجَلَبِ، وامترِ الضّرْعَ قبلَ الحلَبِ، وسائِلِ الرُّكبانَ قبلَ المُنتجَعِ، ودمّثْ لجَنبِكَ قبلَ المُضطَجَعِ، واشحَذْ بصيرَتَكَ للعِيافَةِ، وأنعِمْ نظرَكَ للقِيافَةِ، فإنّ منْ صدَقَ توسّمُهُ، طالَ تبسّمُهُ، ومنْ أخطأتْ فِراسَتُهُ، أبطأتْ فَريسَتُهُ.
- وكُنْ يا بُنيّ خَفيفَ الكَلّ، قَليلَ الدّلّ، راغِبًا عنِ العَلّ، قانِعًا منَ الوَابلِ بالطّلّ، وعظّمْ وقعَ الحَقيرِ، واشكُرْ على النّقيرِ، ولا تقنَطْ عندَ الرّدّ، ولا تستَبعِدْ رشْحَ الصّلْدِ، ولا تيْأسْ منْ رَوحِ اللّهِ إنهُ لا ييْأسُ منْ رَوحِ اللّهِ إلا القوْمُ الكافِرونَ، وإذا خُيّرتَ بينَ ذَرّةٍ منْقودَةٍ، ودُرّةٍ موْعودَةٍ، فمِلْ إلى النّقْدِ، وفضّلِ اليومَ على الغدِ، فإنّ للتأخيرِ آفاتٍ، وللعَزائِمِ بدَواتٍ، وللعِداتِ مُعَقّباتٍ، وبيْنَها وبينَ النّجازِ عقَباتٌ وأيّ عقَباتٍ، وعليْكَ بصَبْرِ أولي العزْمِ، ورِفْقِ ذَوي الحزْمِ، وجانِبْ خُرْقَ المُشتَطّ، وتخلّقْ بالخُلُقِ السّبْطِ، وقيّدِ الدّرْهَمَ بالرّبْطِ، وشُبِ البَذْلِ بالضّبْطِ، ولا تجْعَلْ يدَكَ مغْلولَةً إلى عُنقِكَ ولا تبسُطْها كلّ البسْطِ، ومتى نَبا بكَ بلَدٌ، أو نابَكَ فيهِ كمَدٌ، فبُتّ منهُ أملَكَ، واسْرَحْ منهُ جمَلَكَ، فخيْرُ البِلادِ ما جمّلَكَ،

ولا تستَثْقِلَنّ الرّحلَةَ، ولا تكْرهَنّ النُقلَةَ، فإنّ أعْلامَ شَريعَتِنا وأشياخَ عَشيرَتِنا أجْمَعوا على أنّ الحركَةَ برَكةٌ والطّراوَةَ سُفتَجَةٌ وزَرَوْا على منْ زعَمَ أنّ الغُربَةَ كُربَةٌ، والنُقلَةَ مُثْلَةٌ، وقالوا: هي تَعِلّةٌ منِ اقتنَعَ بالرّذيلةِ ورضِيَ بالحشَفِ وسوءِ الكِيلَةِ، وإذا أزْمَعْتَ على الاغْترابِ وأعْدَدْتَ لهُ العَصا والجِرابَ فتخيّرِ الرّفيقَ المُسعِدَ منْ قبْلِ أن تُصعِدَ، فإنّ الجارَ قبلَ الدّارِ والرّفيقَ قبلَ الطّريقِ:

خُذْهــا إليْكَ وصيّـــةً	لمْ يوصِها قبْـلي أحَـــدْ
غَرّاءَ حـاوِيَةً خُـــلا	صـاتِ المَعـاني والزُّبَـــدْ
نقّحْتُهـا تنْقيحَ مَـنْ	مَحَضَ النّصيحةَ واجتَهـدْ
فـاعْمَلْ بمـا مثّلْتُـهُ	عمـلَ اللّبيبِ أخـي الرَّشَـدْ
حَتى يقـولَ النّـاسُ هـ	ـذا الشّبلُ منْ ذاكَ الأسَدْ

- ثمّ قال: يا بُنيّ، قد أوْصيتُ واستقْصَيْتُ، فإنِ اقتَدَيْتَ فواهًا لكَ، وإنِ اعتَديْتَ فآهًا منكَ! واللهُ خَليفتي عليْك، وأرْجو أنْ لا تُخْلِفَ ظنّي فيكَ.
- فقالَ لهُ ابنُهُ: يا أبَتِ، لا وُضِعَ عرْشُكَ، ولا رُفِعَ نعْشُكَ، فلقَدْ قلتَ سَدَدًا، وعلّمْتَ رشَدًا، ونحلْتَ ما لمْ ينْحَلْ والِدٌ ولَدًا، ولَئِنْ أُمْهِلْتُ بعْدَكَ، لا ذُقْتُ فقْدَكَ، فلأتأدّبَنّ بآدابِكَ الصالِحةِ، ولأقْتَدِيَنّ بآثارِكَ الواضِحَةِ، حتى يُقال: ما أشْبَهَ الليلةَ بالبارِحَةِ، والغادِيةَ بالرّائِحَةِ.
- فاهْتزّ أبو زيْدٍ لجَوابِهِ وابتسَمَ، وقال: منْ أشبَهَ أباهُ فَما ظلَمَ.
- قالَ الحـارثُ بنُ همّام: فأُخبِرْتُ أنّ بَني ساسانَ، حينَ سَمِعوا هَذي الوَصايا الحِسانَ، فضّلوها على وَصايا لُقْمانَ، وحفِظوها كما تُحفَظُ أمّ القُرْآنِ، حتى إنّهُمْ لَيَروْنَها إلى الآنَ، أوْلى ما لقّنوهُ الصّبيانَ، وأنفَعَ لهُمْ منْ نِحلَةِ العِقيانِ.

وصية موفق الدين عبد اللطيف البغدادي

عبد اللطيف بن يوسف البغدادي (ت: ٦٢٩ هـ) موفق الدين، ويعرف بابن اللباد، من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف. مولده ووفاته ببغداد، وأقام مدة بحلب، وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم والحجاز وغيرها، وحظي عند الملوك والأمراء، وكان قوي الحافظة، مشهورًا بالعلوم، متحليًا بالفضائل، مليح العبارة، وكان متميزًا في النحو واللغة العربية، وكان قد اعتنى كثيرًا بصناعة الطب، وكان كثير الاشتغال، لا يخلي وقتًا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة[1].

قال ابن أبي أصيبعة: ومن كلام موفق الدين عبد اللطيف البغدادي مما نقلته من خطه قال:

- ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا آويت إلى منامك، وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها، وترتب في نفسك مما تعمله في غدك من الحسنات، وتسأل الله الإعانة على ذلك.
- أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم.
- وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه؛ ولو كان الأستاذ ناقصًا فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه، وعليك بتعظيمه وتوجيبه، وإن قدرت أن تفيده من دنياك فافعل، وإلا فبلسانك وثنائك.
- وإذا قرأت كتابًا فاحرص كل الحرص على أن تستظهره، وتملك معناه، وتوهّم أن الكتاب قد عدم، وأنك مستغنٍ عنه لا تحزن لفقده.
- وإذا كنت مكبًا على دراسة كتاب وتفهمه؛ فإياك أن تشتغل بآخر معه...
- وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد

١- الأعلام: للزركلي.

سنة أو سنتين أو ما شاء الله، فإذا قضيت منه وطرك فانتقل إلى علم آخر.

- ولا تظن أنك إذا حصّلت علمًا فقد اكتفيت؛ بل تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص؛ ومراعاته تكون بالذاكرة والتفكر، واشتغال المبتدئ: بالتلفظ والتعلم ومباحثة الأقران، واشتغال العالم: بالتعليم والتصنيف.
- وإذا تصدّيت لتعليم علم أو للمناظرة فيه، فلا تمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتفٍ بنفسه مستغن عن غيره...
- وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلع على السّير وتجارب الأمم، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية، وعاصرهم وعاشرهم، وعرف خيرهم وشرهم.
- وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول؛ فاقرأ سيرة النبي ﷺ وتتبع أفعاله وأحواله، واقتف آثاره، وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك، وإذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه وتطببه وتمتعه وتطيبه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد.
- وينبغي أن تكثر اتّهامك لنفسك، ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك على العلماء، وعلى تصانيفهم، وتتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار، ومع الاستبداد الزلل، ومن لم يعرق جبينه إلى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس، ومن لم يبكتوه لم يسد، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح.
- وإذا خلوت من التعلم والتفكر فحرّك لسانك بذكر الله وبتسابيحه؛ وخاصة عند النوم فيتشربه لبّك، ويتعجن في خيالك، وتكلم به في منامك.

- وإذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغِّصات.

- وإذا أحزنك أمرٌ فاسترجعْ، وإذا اعترتك غفلة فاستغفرْ، واجعل الموت نصب عينك، والعلم والتقى زادك إلى الآخرة.

- وإذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكانًا لا يراك فيه، واعلم أن الناس عيون الله على العبد، يريهم خيره وإن أخفاه، وشره وإن ستره، فباطنه مكشوف لله، والله كشفه لعباده؛ فعليك أن تجعل باطنك خيرًا من ظاهرك، وسرك أصبح من علانيتك.

- ولا تتألم إذا أعرضت عنك الدنيا، فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل، وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة إلا أن يكون شريف الهمة جدًا، أو أن يثري بعد تحصيل العلم، وإني لا أقول إن الدنيا تعرض عن طالب العلم، بل هو الذي يعرض عنها؛ لأن همته مصروفة إلى العلم، فلا يبقى له التفات إلى الدنيا، والدنيا إنما تحصل بحرص وفكر في وجوهها؛ فإذا غفل عن أسبابها لم تأته، وأيضًا فإن طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة والمكاسب الدنية، وعن أصناف التجارات، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم...

- اجعل كلامك في الغالب بصفاتٍ: أن يكون وجيزًا، فصيحًا، في معنى مهم أو مستحسن...

- وإياك والهذر، والكلام فيما لا يعني، وإياك والسكوت في محل الحاجة...

- وإياك والضحك مع كلامك، وكثرة الكلام، وتبتير الكلام؛ بل اجعل كلامك سردًا بسكون؛ بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه، وأنَّه عن خميرة سابقة ونظر متقدم.

- وإياك والغلظة في الخطاب، والجفاء في المناظرة، فإن ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط فائدته ويعدم حلاوته، ويجلب الضغائن، ويمحق المودات، ويصير القائل مستثقلا سكوته، وأشهى إلى السامع من كلامه، ويثير النفوس على مفاندته، ويبسط الألسن بمخاشنته وإذهاب حرمته، واجعل كلامك كله جدلا وأجب من حيث تعقل لا من حيث تعتاد وتألف[1].

١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة (أحمد بن قاسم)، طبعة دار الحياة، بيروت.

لفتة الكَبِدِ في نصيحة الولد[1]

وَصِيَّةُ ابنِ الجوزيِّ لوَلَدِهِ أبي القاسم

قَالَ الشَّيْخُ الواعظُ المُتفَنِّنُ صَاحِبُ التَّصانيفِ الكَثِيرَةِ الشهيرةِ، جمالُ الدِّيْنِ، أبو الفرجِ، عبدُ الرَّحْمنِ بن عليٍّ ابن الجوزيِّ البغداديُّ الحنبليُّ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أنشأ الأبَ الأكْبَرَ من ترابٍ، وأخرجَ ذرِّيَّتَهُ من التَّرائبِ والأصلابِ، وعضّدَ العشائرَ بالقرابةِ والأنسابِ، وأنعمَ عليَّ بالعِلْمِ وعرفانِ الصَّوابِ، أحسنَ تَرْبِيَتي في الصِّبا وحَفِظَني في الشَّبابِ، ورزقني ذُرِيَّةً أرجو بوجودِهِم وفورَ الثَّوابِ ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٠-٤١)[2].

- أمَّـا بَعْدُ: فَإنِّي لَمَّا عَرَفْتُ شَرَفَ النِّكاحِ، وفضلَ الأولادِ، ختمتُ ختمةً وسألتُ اللهُ تعالى أن يرزقني عشرةَ أولادٍ، فرزقنيهم، فكَانُوا خمسةَ ذكورٍ وخمسةَ إناثٍ، فماتَ من الإناث اثنتان، ومن الذكور أرْبَعَةٌ، فلم يبقَ من الذُّكورِ سوى ولدي أبي القاسم، فسألتُ اللهَ تَعَالَى أن يَجْعَلَ فِيهِ الخلفَ الصَّالِحَ، وأن يبلغَ بهِ المنى والمناجحَ، ثُمَّ رأيتُ مِنْهُ نوعَ

١- كَبِدٌ: أَي أَصابَ الحُزْنُ كَبِدَه.

٢- ابنُ الجوزيِّ (ت: ٥٩٧ هـ)، تفرّد بفن الوعظ المؤثر، وكان الخليفة يحضر مجالسه، بلغت مؤلفاته نحوًا من ثلاثة مئة مصنف في علوم الفقه، والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والوعظ، والرياضيات، والشعر، والتاريخ. قال سبط ابن الجوزي: سمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بأصبعيّ هاتين ألفي مجلدة. وكان زاهدًا في الدُّنيا، متقللا منها، وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة وللمجلس، وما مازح أحدًا قط، ولا لعب مع صبيٍّ، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلها... قال الذَّهبيُّ: الواعظ المتفنن، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم...وعظ في صغره، وفاق الأقران... ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه. وقال ابن العماد: كان لطيف الصوت، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات. وحصلت لابن الجوزي خزانة كتب وفيرة عامرة، من مصنفاته ومصنفات غيره، ولكن أصابت الخزانة الفجيعة من جراء عقوق ابنه الذي سطا عليها وبعثرها وباعها بثمن بخس. (كما في مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي: ٨/ ٣٢٥. والذيل على الروضتين: لأبي شامة ٢٦).

توانٍ عَنِ الجدِّ في طلبِ العِلْمِ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ هَذِهِ الرسالة أَحُثُّهُ بهَا عَلَى طلبِ العِلْمِ، وأحرِّكُه عَلَى سلوكِ طريقي في كسب العِلْمِ، وأدلُّهُ عَلَى الالتجاءِ إلى الموفق سُبْحَانَهُ، مَعَ علمي بأنه لا خاذلَ لمن وفَّقَ، وَلا مُرْشِدَ لمن أضلَّ، لَكِنْ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[1]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[2]، وَلا حول وَلا قُوَّةَ إلا باللّه العلي العظيم.

- اعْلَمْ يا بُنَيَّ وفَّقَكَ اللّهُ للصَّوابِ، أَنَّهُ لَم يميَّزِ الآدميُّ بالعَقْلِ إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضرْ عَقْلَكَ وأعمِلْ فِكرَك، واخْلُ بِنَفْسِكَ.
- تعلمْ بالدَّليل أَنَّكَ مخلوقٌ مكلَّفٌ، وأنَّ عَلَيْكَ فرائضَ أنتَ مطالَبٌ بها، وأنَّ الملكينِ يُحْصيانِ ألفاظَكَ ونظراتك، وأنَّ أنفاسَ الحيِّ خُطاهُ إلى أجَلِه، ومقدارَ اللُّبثِ في الدُّنْيَا قليلٌ، والحبسَ في القُبُورِ طويلٌ، والعذابَ عَلَى موافقةِ الهوى وبيلٌ، فأين لذَّةُ أمسِ؟ قَدْ رحلَتْ وأبقَت ندمًا، وأين شهوة النَّفْسِ؟ كم نكّسَتْ رأسًا وأزلّت قَدَمًا.
- وما سَعِدَ مَن سعِدَ إلا بخلافِ هَوَاهُ، وَلا شَقِيَ مَن شَقِيَ إلا بإيثارِ دُنْيَاهُ، فاعتبرْ بمنْ مضى من المُلُوكِ والزُّهاد، أين لَذَّةُ هؤلاءِ وأينَ تعبُ أُوْلَئِكَ، بقيَ الثوابُ الجزيلُ، والذِّكْرُ الجميلُ للطائعين والمَقَالَةُ القَبِيْحَةُ والعِقابُ الوَبِيْلُ للعَاصِيْنَ، وكأنَّهُ ما جَاعَ مَن جَاعَ ولا شَبِعَ مَن شَبِعَ.
- والكَسَلُ عَنِ الفَضَائِلِ بئسَ الرَّفيقُ، وحُبُّ الرَّاحةِ يُورِثُ مِن الندمِ ما يربو عَلَى كُلِّ لذَّةٍ، فانتبهْ واتعَبْ لنفْسِكَ.
- وَاعْلَمْ أنَّ أداءَ الفرائضِ واجتنابَ المحارم لازمٌ، فَمَتَى تعدّى الإنسانُ فالنَّارَ النَّارَ.
- ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ طلبَ الفَضَائِلِ نهايةُ مرادِ المجتهدين، ثُمَّ الفَضَائِلُ تتفاوتُ،

١- سورة العصر: ٣.

٢- سورة الأعلى: ٩.

فمن النَّاسِ مَن يَرَى الفَضَائِلَ الزهدَ ـ فِي الدُّنْيَا، ومِنْهُم مَن يراها التشاغلَ بالتعبد، وعلى الحقيقة فلَيْسَت الفَضَائِلُ الكاملةُ إلا الجمعُ بَيْنَ العِلْم والْعَمَلِ، فإِذَا حُصِّلا رفعا صَاحِبَهُمَا إلى تحقيق مَعْرِفَةِ الخالق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وحرّكاه إلى محبته وخشيته والشوق إِلَيْهِ، فتلك الغاية المقصودة، وعلى قدر أَهْلِ العزم تأتي العزائم، ولَيْسَ كُلُّ ما يرادُ مرادًا، وَلا كُلُّ طالبٍ واجدًا، ولَكِنْ عَلَى العَبْدِ الاجتهاد، (وكلٌ ميسَّرٌ لما خُلق له)، والله المستعان[1].

- وأَوَّلُ ما يَنْبَغِي النَّظَرُ فِيهِ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى بالدَّليلِ، ومعلومٌ أن من رأى السَّمَاءَ مرفوعةً، والأَرْضَ موضوعةً، وشاهدَ الأبنيةَ المحكمةَ، خُصُوصًا ـ فِي جَسَدِ نَفْسِهِ، علِمَ أنَّه لا بدَّ للصَّنْعةِ مِن صانعٍ، وللمبنيِّ من بانٍ.
- ثُمَّ يتأملُ صِدْقَ الرسول ﷺ إِلَيْهِ، وأَكْبَرُ الدلائل الْقُرْآنُ الَّذِي أعجزَ الْخَلْقَ أن يأتوا بسورةٍ من مِثْلِهِ، فإِذَا ثبت عِنْدَه وجودُ الخالق جَلَّ وعَلا وصدقُ الرَّسولِ ﷺ وجبَ تسليمُ عِنانِهِ إلى الشَّرْعِ، فَمَتَى لَمْ يفعل دلَّ عَلَى خَلَلٍ ـ فِي اعتقادِهِ.
- ثُمَّ يجب عليه أن يَعْرِفَ ما يَجِبُ عَلَيْهِ من الوضوءِ والصَّلاةِ، والزَّكَاةِ إن كَانَ لَهُ مالٌ، وَالْحَجِّ، وغَيْرِ ذَلِكَ من الواجباتِ، فإِذَا عَرَفَ قَدْرَ الواجبِ قامَ بِهِ.
- فيَنْبَغِي لذي الهمة أن يترقَّى إلى الفَضَائِلِ، فيتشاغلَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وتفسيره، وبحديثِ الرَّسولِ ﷺ، وبمَعْرِفَةِ سِيَرِه وسِيَرِ أَصْحَابِهِ، والْعُلَمَاءِ بَعْدَهم، ليتخيّرَ مرتبةَ الأَعْلَى فالأَعْلَى.
- ولا بُدَّ من مَعْرِفَةِ ما يُقيمُ بِهِ لسانَه من النَّحْوِ، ومَعْرِفَةِ طرفٍ مستعمَلٍ من اللُّغَةِ. والفِقْهُ أجلُّ العُلُوْمِ، والوَعْظُ والتَّذكيرُ حلواؤُها وأعمُّها نفعًا.
- وقد رتَّبْتُ ـ فِي هَذِهِ المذكوراتِ من التَّصانيفِ ما يُغني عَنْ كُلِّ ما سبقَ

١- (كلٌ ميسَّرٌ لما خُلق له) متفق عليه.

من تصانيفِ القدماء وغَيْرِها، بحمدِ اللّهِ وَمَنِّهِ، فأغنيتُكَ عَنْ تطلّبِ الكُتُبِ، وجمْعِ الهِمَمِ للتصنيف.

- وما تقفُ هِمَّةٌ إلا لخساستِها، وإلا فَمَتَى علتِ الهمةُ لَمْ تقنع بدُوْنٍ، وقد عَرَفْتُ بالدليلِ أنَّ الهمةَ مولودةٌ مَعَ الآدمي، وإنَّمَا تقصُرُ بعضُ الهمم في بعض الأوقاتِ، فإِذَا حُثَّتْ سارت.

- ومتى رأيتَ في نَفْسِكَ عجزًا فَسَلِ المنعِمَ، أو كسلا فالجأ إلى الموفق، فلنْ تنال خَيْرًا إلا بطاعتِه، وَلا يفوتُك خَيْرٌ إلا بمعصيتِهِ، فمَنِ الَّذِي أقبلَ عَلَيْهِ فلم يَرِدْ كلّ مرادٍ لديه؟ ومَن الَّذِي أعرض عَنْهُ فمضى بفائدةٍ؟ أو حظيَ بغرضٍ من أغراضِهِ؟ أو ما سَمِعْتَ قولَ الشَّاعِرِ:

باللَّيْلِ ما جئتُكم زائرًا إلا	رأيتُ الأَرْضَ تُطوى لي
ولا ثنيتُ العزمَ عَنْ بابكم	إلا تعثَّرْتُ بأذيالي

- وانظرْ يا بُنَيَّ إلى نَفْسِكَ عِنْدَ الحدودِ، فتلمَّح كيف حِفْظُكَ لها؟ فإنَّه من راعى رُوعيَ، ومن أهملَ تُرِك، وإني لأذْكُرَ لَكَ بعضَ أحوالي لعلكَ تنظرُ إلى اجتهادي، وتسألَ الموفقَ لي.

- فإنَّ أكثرَ الإنعام عَليَّ لَمْ يكُنْ بكسبي، وإنَّمَا هُوَ من تدبيرِ اللطيفِ بي، فَإنِّي اذْكُر نَفْسِي ولي همةٌ عاليةٌ وأنا في المكتب ابنُ ستٍّ سنينَ وأنا قَرِيْنُ الصِّبْيَانِ الكبارِ، قَدْ رُزِقتُ عقلا وافرًا في الصغر يزيدُ عَلَى عقلِ الشيوخِ، فما أَذْكُرُ أني لعبتُ في طريقٍ مَعَ الصِّبيانِ قطُّ، وَلا ضحِكتُ ضحكًا خارجًا حَتَّى إني كُنْتُ ولي سبعُ سنينَ أو نحوُها أحضرُ رَحبةَ الجامعِ وَلا أتخيّرُ حلقةَ مُشَعَّبَةً بَلْ أطلبُ المحدّثَ فيتحدَّث بالسندِ الطويلِ فأحفظُ جَمِيْعَ ما أسمعُ وأذهبُ إلى البَيْتِ فأكتبه.

- ولقد وُفِّقَ لي شَيْخُنا أَبُو الفَضْلِ أبي ناصرٍ رَحِمَهُ اللّه، فكَانَ يَحْمِلُني

إلى الشُّيوخ، فأسمعني المسندَ[1]، وغَيْرَه من الكُتُبِ الكبارِ، وأنا لا أعلمُ ما يُرادُ مِنِّي، وضَبَطَ لي مسموعاتي إلى أن بَلَغْتُ، فناولني ثبتها[2]، ولازمتُهُ إلى أن تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّه فنلتُ بِهِ مَعْرِفَةَ الْحَدِيثِ والنقل.

- ولقد كَانَ الصِّبْيَانُ ينـزلونَ إلى دِجْلةَ، ويتفرَّجونَ عَلَى الجسر، وأنا في زمنِ الصِّغَر آخذُ جُزءًا، وأقعدُ حُجزةً من النَّاسِ إلى جانبِ الرِّقةِ فأتشاغلُ بالعِلْم.
- ثُمَّ أُلْهِمتُ الزهدَ، فسردتُ الصَّوْمَ، وتشاغلتُ بالتَّقللِ من الطعام، وألزمتُ نَفْسِي الصَّبرَ فاستمرَّتْ، وشَمّرتُ ولازمتُ، وعالجتُ السَّهرَ، ولم أقنعْ بفنٍّ من العِلوم، بَلْ كُنْتُ أسمعُ الفِقْهَ، والوَعْظَ، والْحَدِيثَ، وأتّبع الزهادَ، ثُمَّ قرأتُ اللُّغَةَ ولم أتركْ أحدًا مِمَّنْ قَدْ يروي ويعظُ، وَلا غريبًا يقدُمُ إلا وأحضُرُهُ وأتخيّرُ الفَضَائِلَ.
- وكُنْتُ إِذَا عرضَ لي أمران أقدّمُ في أغلبِ الأحوالِ حَقَّ الحقِّ، فأحسنَ اللّه تدبيري وتربيتي، وأجراني عَلَى ما هُوَ الأصلح لي، ودَفَعَ عَنِّي الأعداءَ والحُسَّادَ ومن يكيدني، وهيأ لي أَسْبَابَ العِلْم، وبعثَ إلي الكتبَ من حَيْثُ لا أحتسب، ورزقني الفهمَ وسرعةَ الحِفْظِ والخطِّ وجَوْدَةِ التصنيفِ، ولم يُعْوِزْني شيئًا من الدُّنْيَا، بَلْ ساقَ إلي من الرزقِ مقدارَ الكفايةَ وأَزْيَدَ، ووضَعَ لي في قلوبِ الْخَلْقِ من القبولِ فوقَ الحدِّ، وأوقعَ كلامي في نفوسِهم، فلا يرتابونَ بصِحَّتِهِ.
- وقد أسلمَ عَلَى يدي نحوٌ من مائتينِ من أَهْلِ الذمَّةِ، ولقد تابَ في مجالسي أكثرُ من مائةِ ألفٍ، وقد قَطَعْتُ أكثرَ من عشرينَ ألف جُمّةٍ مِمَّا يتعاناه الجهالُ.

١- المسند: للإمامُ أحْمدُ بنُ حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي رحمه الله تعالى: لمَ كرهتَ وضعَ الكتبِ، وقد عملتَ المُسْنَدَ. فقال: عملت كتابي هذا إمامًا إذا اختلفَ النـاسُ في سنة رسول الله ﷺ رُجع إليه.

٢- الثَّبَتُ، بالتحريك: الحجة والبينة.

- ولقد كُنْتُ أدورُ عَلَى المشايخ لسماعِ الْحَدِيثِ فينقطعُ نَفَسي من العَدْوِ لئلا أُسْبَقَ، وكُنْتُ أصبحُ ولَيْسَ لي ما آكلُ، وما أذلَّني اللّه لمخلوق قطُّ، ولكنَّه ساقَ رزقي لصيانةِ عِرْضِي، ولو شَرَحْتُ أحوالي لَطالَ الشَّرْحُ.
- وها أنا قَدْ تَرَى ما آلتْ حالي إليْه، وأنا أَجْمَعُهُ لَكَ فِي كلمةٍ واحدةٍ وهي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].
- فانتبهْ يا بُنَيَّ لِنَفْسِكَ، واندَمْ عَلَى ما مَضَى من تَفْرِيطِكَ، واجتهدْ فِي لَحَاقِ الكاملينَ، ما دامَ فِي الوَقْتِ سَعَةٌ، واسْقِ غُصْنَكَ ما دامتْ فِيهِ رُطُوبةٌ، واذْكُرْ ساعاتِكَ التي ضاعتْ، فكَفَى بِهَا عِظَةً، ذهبَتْ لَذَّةُ الكَسَلِ فِيهَا، وفاتَتْ مَراتبُ الفَضَائِلِ، وقد كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ اللّه يُحِبُّونَ جمعَ كلِّ فضيلةٍ، ويبكونَ عَلَى فَوَاتِ واحدةٍ مِنْهَا.
- قَالَ إِبْرَاهِيمُ بنُ أدهمَ رَحِمَهُ اللّهُ: دخلنا عَلَى عابدٍ مريضٍ، وهو ينظُرُ إلى رِجْلَيْهِ ويبكي، فقلنا: ما لَكَ تبكي؟ فقَالَ: ما اغْبَرّتَا فِي سبيلِ اللّه تَعَالَى[2].
- وبكى آخَرُ فقيلَ لَهُ: ما يبكيكَ؟ قَالَ: عَلَى يَوْمٍ مَضَى ما صُمْتُهُ، وعلى ليلةٍ ذهبَتْ ما قُمْتُهَا.
- وَاعْلَمْ يا بنيّ، أنَّ الأيامَ تُبْسَطُ ساعاتٍ، والسَّاعاتُ تُبْسَطُ أنفاسًا، وكلُّ نَفَسٍ خزانةٌ، فاحذر أن تُذهِبَ نَفَسًا فِي غَيْرِ شيء، فتَرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ خزانةً فارغة فتندم.
- وقد قَالَ رَجُلٌ لعامرِ بنِ عبدِ قيسٍ: قف أكلمْكَ! فقَالَ: أمسِكِ الشمسَ.

١- سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

٢- إبراهيم بن أدهم: القدوةُ الإمامُ العارفُ سيدُ الزهاد، أبو إسحاق، نزيل الشام، قال النسائي: هو ثقة مأمون أحد الزهاد. وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم، ما هذا العبث (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) المؤمنون ١١٥، اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة. فنزل عن دابته ورفض الدنيا. (سير أعلام النبلاء).

- وَقَعَدَ قومٌ عِنْدَ معروفٍ (الكرخي) رَحِمَهُ اللهُ، فقَالَ: أما تُرِيْدُون أن تقوموا، فَإِنَّ ملَكَ الشمس يجرُّها لا يفتُرُ[1].

- وفي الْحَدِيثِ: من قَالَ سبُحانِ اللهِ وبحمدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نخلةٌ في الْجَنَّةِ»[2]، فانظر إلى مضيِّعِ الساعات كم يفوته من النخل.

- وقد كَانَ السَّلَفُ يغتنمونَ اللحظاتِ، فكَانَ هَمَسُ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ في كُلِّ يَوْمٍ وليلةٍ ثلاثَ مراتٍ، وكانَ أربعونَ رَجُلا من السَّلَفِ يصلُّونَ الفجرَ بوضوءِ العشاءِ[3].

- وكَانَتْ رابعةُ لا تنامُ اللَّيْلَ، فإذَا طلعَ الفجرُ هجعَتْ هجعةً خفيفةً ثم قامتْ فزِعَةً وقَالَت لنفسها: النَّوْمُ في الْقُبُورِ طويلٌ[4].

- ومن تفكَّرَ في الدُّنْيَا قَبْلَ أن يوجَد رأى مدَّةً طويلةً، فإذَا تَفَكَّرَ فِيهَا بَعْدَ أن يخرجَ منها رأى مدَّةً طويلةً، وعلِم أن اللُّبْثَ في الْقُبُورِ طويلٌ، فإذَا تَفَكَّرَ في يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلِمَ أَنَّهُ خمسون ألف سنة، فإذَا تفَكَّرَ في اللبث في الْجَنَّةِ أو النَّارِ عَلِمَ أَنَّهُ لا نهايةَ له، فإذَا عادَ إلى النَّظَرِ في مقدارِ بقائِهِ في الدُّنْيَا (فرضنا ستينَ سَنَةً مثلا) فَإِنَّه يُمضي مِنْهَا ثلاثينَ سنةً في النَّوْمِ، ونحوٌ من خمسَ عشرةَ في الصِّبا، فإذَا حسبتَ الباقي، كَانَ أكثرُهُ في الشَّهَوَاتِ والمطاعمِ والمكاسبِ، فإذَا خلَّصَ ما للآخرةِ وجدَ فِيهِ من الرياءِ والغفلةِ كَثِيرًا، فبماذا تشتري الْحَيَاةَ الأبديةَ، وإنَّمَا الثَّمَنُ هَذِهِ السَّاعاتِ!.

١- معروف الكرخي: علمُ الزهاد، بركةُ العصر، أبو محفوظ البغدادي، (ت: ٢٠٠ هـ).

٢- «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ الله الْعَظِيم وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ». رواه الترمذي.

٣- همس بن طلق: عابد من الخوارج توفي سنة ٦١ هـ.

٤- رابعة العدوية: البصريةُ، الزاهدةُ، العابدةُ، الخاشعة، أم عمرو، رابعة بنت إسماعيل، ولها سيرة في جزء لابن الجوزي. نسبها بعضهم إلى الحلول وإلى الإباحة. قال الذهبي: قلت: فهذا غلو وجهل، ولعل من نسبها إلى ذلك مباحي حلولي ليحتج بها على كفره. قيل عاشت ثمانين سنة توفيت سنة ثمانين ومئة (سير أعلام النبلاء: للذهبي).

- ولا يُؤَيِسُكَ يا بنيَّ من الْخَيْرِ ما مضى من التَّفْريطِ، فإنَه قَدْ انتبهَ خلقٌ كَثِيرٌ بَعْدَ الغفلةِ والرُّقادِ الطَّويلِ، فَقَدْ حدَّثني الشَّيْخُ أَبُو حكيم عَنْ قاضي القضاة أبي الْحَسَنِ (عَلِي بن مُحَمَّدٍ) الدامَغاني رَحِمَهُ اللّه، قَالَ: كُنْتُ فِي صبوتي متشاغلا بالبطالةِ غَيْرَ ملتفتٍ إلى العِلْم، فأحضرني أبي أَبُو عبد اللّه رَحِمَهُ اللّه، وقَالَ لي: يا بُنَيَّ، إني لست أبقى لَكَ أبدًا، فخذ عشرين دينارًا، وافتحْ دكانَ خبازٍ وتكسَّبْ. فقلتُ: ما هَذا الكلام؟! قَالَ: فافتحْ دكان بزّازٍ. فقلت: تقول هَذا وأنا ابن قاضي القضاة أبي عبد اللّه الدامغاني. قَالَ: فما أراكَ تطلبُ العِلْم. فقلت: اذكرْ لي الدَّرْسَ السَّاعَةَ فذكرَ لي، فأقبلتُ عَلَى التَّشَاغُلِ بالعِلْمِ واجتهدتُ فَفَتَحَ اللّه عَلَيَّ.

- وحَكَى لي بعضُ أصْحَابِ أبي مُحَمَّدٍ (عبدِ الرَّحْمنِ بن مُحَمَّدٌ) الحلوانيِّ رَحِمَهُ اللّه، قَالَ: ماتَ أبي وأنا ابنُ إحدى وعشرينَ سنةً، وكُنْتُ موصوفًا بالبطالةِ، فأتيتُ أتقاضى بعضَ سُكَّانِ دارٍ قَدْ وَرِثْتُها، فسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ جاءَ المدبِّرُ؛ (أي الرَّبيط)[1] فقلت لنَفْسِي: يقالُ عَنِّي هذا. فجئت إلى والدتي فقلتُ: إذَا أرَدْتِ طلبي فاطلبيني من مسجدِ الشَّيْخ أبي الخَطَّابِ، ولازَمْتُهُ فما خرجتُ إلا إلى القضاءِ، فصرتُ قاضيًا مدَّةً. قلتُ: ورأيتُهُ أنا وهو يفتي ويناظرُ.

- فألْزِمْ نَفْسَكَ يا بُنَيَّ الانتباهَ عِنْدَ طلوعِ الفَجْرِ، وَلا تتحدَّثْ بحديثِ الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَحِمَهُمُ اللّه لا يتكلمون فِي ذَلِكَ الوَقْتِ بشيءٍ من أُمُوْرِ الدُّنْيَا، وقلْ عِنْدَ انتباهِكَ من النَّوْم: «الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي أحياني بَعْدَ ما أماتَني وإلَيْهِ النُّشورُ، الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ، إنَّ اللّه بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». ثُمَّ قُمْ إلى الطهارةِ، واركعْ سنَّةَ الفجرِ، واخرجْ إلى المسجدِ خاشعًا، وقلْ فِي

١- الرَّبيط: الزاهد الحكيم الذي يَرْبُطُ نفسه عن الدنيا، وفي الحديث: أَنَّ رَبيطَ بني إسرائيل قال: (زَيْنُ الحَكيم الصمْتُ).

طريقِكَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَبِمَمْشَايَ هَذَا إِلَيْكَ، إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلا بَطَرًا وَلا رِيَاءً وَلا سُمْعَةً، وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيْرَنِي مِنَ النَّارِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ»[1].

- واقصدِ الصَّلاةَ إلى يمينِ الإمامِ، فإذَا فَرَغْتَ من الصَّلاةِ فقل: «لا إله إلا اللّه وحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[2] عَشْرَ مراتٍ، ثُمَّ سبّح عشرًا، واحمد عشرًا، وكبّر عشرًا، واقرأ آيةَ الكرسيِّ، وسَلِ اللّه سُبْحَانَهُ قبولَ الصَّلاةِ، فإن صَحَّ لَكَ فاجلسْ ذاكرًا للّه تَعَالَى إلى أن تطلعَ الشمسُ وترتفعَ، ثُمَّ صَلِّ واركعْ ما كُتِبَ لك، وإن كَانَ ثمانِ ركعاتٍ فهو حَسَنٌ.
- ثُمَّ تشاغلْ بما يُمكنُ من العُلُوْمِ وأهمُّها تصحيحُ قراءةِ القُرْآنِ ثُمَّ الفِقْهُ، فإِذَا أعدت دروسَك إلى وَقْتِ الضُّحى الأَعْلَى فصلِّ الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ ثُمَّ تشاغلْ بمطالعةٍ أو بنسخٍ إلى وَقْتِ العَصْرِ.
- ثُمَّ عُدْ إلى دروسِكَ بَعْدَ العصرِ إلى المغربِ، وصلِّ بَعْدَ المغربِ رَكْعتينِ، تقرأُ فيهما جُزْئينِ، فإذَا صليتَ العشاءَ فعُدْ إلى دروسِك.
- ثُمَّ اضْطجعْ، فسبِّحْ ثلاثًا وثلاثينَ، واحمدْ ثلاثًا وثلاثينَ، وكبِّرْ أربعًا وثلاثينَ، وقلْ: اللَّهُمَّ قِنِي عذابَك يَوْمَ تجمعُ عبادَك[3].
- وإِذَا فتحتَ عينيكَ من النَّوْمِ فاعْلَمْ أن النَّفْسَ قَدْ أخذتْ حظَّها، فقمْ إلى الوضوءِ، وصلِّ في ظلامِ اللَّيْلِ ما أمكنَ، والتوسطُ أنْ تصليَ بركعتينِ خفيفتينِ، ثُمَّ بَعْدَهُما ركعتينِ بجزئين من القُرْآنِ، ثُمَّ تعودُ إلى درسِ العِلْمِ، فإنَّ العِلْمَ أفضلُ من كُلِّ نافلةٍ.

١- «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِه إِلَى الصَّلاةِ... أَقْبَلَ اللّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفِ مَلَكٍ». رواه ابن ماجة، بَاب المَشْيِ إِلَى الصَّلاةِ.

٢- «لا إله إلا اللّه وحدَهُ...» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

٣- «اللَّهُمَّ قِنِي عذابَك يَوْمَ تجمعُ عبادَك» رواه البخاري.

- وعَلَيْكَ بالعُزْلَةِ فهيَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، واحْذَرْ من جليسِ السُّوءِ، وليكُنْ جلساؤُكَ الكُتُبَ، والنَّظَرَ فِي سِيَرِ السَّلفِ، وَلا تشتغلْ بعلم حَتَّى تُحكِمَ ما قَبْلَهُ، وتلمّحْ سِيَرَ الكاملين فِي العِلْمِ والعَمَلِ، وَلا تقنعْ بالدُّونِ، فَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

ولم أرَ فِي عيوبِ النَّاسِ شيئًا كنقصِ القادرينَ عَلَى التَّمامِ

- وَاعْلَمْ أَنَّ العلمَ يرفعُ الأراذلَ، فَقَدْ كَانَ خلقٌ كَثِيرٌ من الْعُلَمَاءِ لا نَسَبَ لَهُمْ يُذكرُ، وَلا صورةٌ تُستَحسَنُ، وكَانَ عطاءُ بن أبي رباح أسودَ اللونِ، ومُسْتوحَشَ الخِلْقَةِ، وجاءَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بنُ عبد المَلِكِ وهو خليفةٌ ومعه ولداه، فَجَعَلُوا يسألونَهُ عَنْ المناسكِ، فحدّثهم وهو مُعْرِضٌ عَنْهُمْ بوَجْهِهِ، فقالَ سُلَيْمَانُ الخليفةُ لولديه: «قُوْمَا وَلا تَنَيا وَلا تَكاسلا فِي طلبِ العِلْمِ، فما أنسى ذُلَّنا بَيْنَ يدَي هَذا العَبْدِ الأسود».
- وكَانَ الْحَسَنُ (البصريُّ) مولى (أي مملوكًا) وابنُ سيرينَ، ومكحولُ، وخلقٌ كَثِيرٌ، وإِنَّمَا شَرَفُوْا بالعِلْمِ والتَّقْوَى.
- واجتهدْ يا بُنَيَّ فِي صيانة عِرضك من التعرض لطلب الدُّنْيَا والذل لأَهْلِها، واقنع تَعِزّ، فَقَدْ قيل: من قَنِعَ بالخبز والبقل لَمْ يستعبده أحد. وجاز أعرابي بالبصرة فقَالَ: من سيد هَذِهِ البلدة؟ فقيل له: الْحَسَنُ البصري، قَالَ: وبِمَ سادهم؟ قالوا: استغنى عَنْ دُنْيَاهُمْ وافتقروا إلى علمه.
- وَاعْلَمْ يا بنيّ، أَنَّ أبي كَانَ موسرًا وخلَف أُلُوفًا من المَالِ، وكَانَ أبوك طفلا، فأُنفق عَلَيْهِ من ذَلِكَ المَالِ إلى أن بَلَغَ، ولم يَرَ بَعْدَ بلوغِهِ سوى دارَين، كَانَ يسكنُ واحدةً، ويأخذُ أجرةَ الأخرى، ثُمَّ أُعطي نحو عشرين دينارًا، وقيل له: هَذِهِ التَّركَةُ كلها، فأخذتُ الدنانيرَ واشتريتُ بِهَا كتبًا من كُتُبِ العِلْمِ، وبعتُ الدَّارَيْن وأنفقتُ ثَمَنَهُما فِي طلبِ العِلْمِ، ولَم يَبْقَ

لي شيءٌ من المَالِ، وما ذَلَّ أبوكَ في طلبِ الدُّنْيَا كذُلِّ غَيْرِهِ، وَلا خَرَجَ يطوفُ البلدانَ كغَيْرِهِ من الوُعَّاظِ، وَلا رأى أكابرُ البلدانِ رِقاعَه عِنْدَهم يستعطيهم، وأُمُورُهُ تجري عَلَى السَّدادِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

- يا بنيّ، ومتى صحَّتِ التَّقْوَى رأيتَ كلَّ خَيْرٍ، والمُتَّقي لا يُرائي الْخَلْقَ، وَلا يتعرَّضُ لما يُؤذي دِيْنَه، ومَن حفِظَ حدودَ الله حَفِظه الله. قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ لابن عباسٍ رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُمَا: «احْفَظِ الله يحفظْكَ، احْفَظِ الله تجدْهُ أمامَك»[2].

- وَاعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّ يونسَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا كَانَت ذَخِيْرَتُهُ خَيْرًا نَجا بِهَا من الشِّدَّةِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[3].

- وأمَّا فرعونُ فلمَّا لَمْ تكُنْ لَهُ ذخيرةُ خَيْرٍ لَمْ يجدْ في شدته مَخْلَصًا فقيل له: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾[4].

- وَاجْعَلْ لَكَ ذخائرَ خَيْرٍ من تقوى تجدْ تأثيرَها؛ وقد جاءَ في الْحَدِيثِ: «ما من شابٍّ اتقى الله تَعَالَى في شبابِهِ إلاَّ رَفَعَهُ الله تَعَالَى في كِبَرِه». قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

- وَاعْلَمْ يا بُنَيَّ أَنَّ أَوْفى الذَّخائرِ غضُّ الطرفِ عَنْ محرَّم، وإمساكُ اللِّسَانِ عَنْ فُضُولِ كلمةٍ، ومُرَاعَاةٌ لحدٍّ، وإيثارُ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَلَى هوى النَّفْسِ، قَدْ عَرَفْتَ حديثَ "الثلاثة الذين دَخلوا إلى غارٍ

١- سورة الطلاق: ٢ -٣.

٢- «احفظ الله يحفظْكَ...» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

٣- سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤.

٤- سورة يونس: ٩١.

٥- سورة يوسف: ٢٢.

فانطبقت عَلَيْهِم صخرةٌ، فقال أحدُهم: اللَّهُمَّ إنَّهُ كَانَ لي أبوان وأولاد فكُنْت أقفُ بالحليبِ عَلَى أبويّ فأسقيهما قَبْلَ أولادي، فإن كُنْتُ فعلتُ ذَلِكَ لأجلك فافرج عنا؛ فانفرجَ ثلثُ الصَّخرةِ، وقالَ الآخرُ: اللَّهُمَّ إني كُنْتُ استأجرتُ أجيرًا فتسخَّطَ أجرَه، فاتَّجَرتُ لَهُ بِهِ، فجاء يَوْمًا فقال: ألا تخافُ اللَّهَ وتعطيني أجري! فقلت: انظر إلى تِلْكَ البقر ورعاتها فخذها، فإن كُنْتُ فعلتُ ذَلِكَ لأجلك ففرِّجْ عنَّا؛ فانفرجَ ثلث الصَّخْرةِ، فقال الآخرُ: اللَّهُمَّ إني علِقتُ ببنت عم لي، فلَمَّا دنوتُ مِنْهَا قالت: اتَّقِ اللّه وَلا تفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقِّهِ، فقمتُ عَنْهَا، فإنْ كُنْتُ فعلتُ لأجلكِ فافرجْ عنا؛ فرُفعَتَ الصَّخرةُ وخرجوا»[1].

- ورُئِيَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي المنام فقيل له: ما فعلَ اللَّه تَعَالَى بك؟ قَالَ: ما كَانَ إلاَّ أن وُضِعتُ فِي اللحدِ، فإذَا أنا بَيْنَ يديْ ربِّ الْعَالَمِينَ، فأُمِرَ بي إلى الْجَنَّةِ، فدخلتُ فإذَا أنا بقائلٍ يَقُولُ: سُفْيَانُ! قلتُ: سُفْيَانُ، قَالَ: تذكرُ يَوْمَ آثرتَ اللَّه تَعَالَى عَلَى هواك؟ قلت: نعم! فأخذَتني صواني النِثارِ من الجنَّةَ.
- ويَنْبَغِي أنْ تسموَ هِمَّتُكَ إلى الكمالِ، فَإِنَّ خلْقًا وقفوا مَعَ الزُّهد، وخلْقًا تشاغلوا بالعِلْمِ، ونَدَرَ أقوامٌ جمعوا بَيْنَ العِلْمِ الكاملِ والْعَمَلِ الكاملِ.
- وَاعْلَمْ أني قَدْ تصفَّحْتُ التابعين ومَن بَعْدَهم فما رأيتُ أحظى بالكمالِ من أرْبَعِ أنفسٍ: سعيدِ بنِ المسيب، وسُفْيَانِ الثَّوْرِيِّ، والْحَسَنِ البصري، وأحمدَ بن حنبل؛ وقد كَانوا رجالا، إنَّمَا كَانَت لَهُمْ هممٌ ضعُفَتْ عِنْدَنا.
- وقد كَانَ فِي السَّلَفِ خلقٌ كَثِيرٌ لَهُمْ هِممٌ عاليةٌ، فإذَا أردتَ أن تنظر إلى أحْوَالِهِم فانظر فِي كتاب (صفة الصفوة)، وإن شئتَ تأمَّلْ (أخبارَ سعيدٍ) و(أخبارَ سُفْيَانَ) و(أخبارَ أَحْمَد بن حنبل) رضي اللَّه عنهم، فَقَدْ جمعتُ لِكُلِّ واحدٍ مِنْهُم كتابًا.

١- (الثلاثة الذين دخلوا إلى الغار...) رواه البخاري باب مَنْ آجَرَ نَفْسَهُ لِيَحْمِلَ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ وَأُجْرَةِ الْحَمَّالِ.

- وقد علمتَ يا بُنَيَّ أني صنَّفتُ مائةَ كتابٍ، فمِنْهَا (التَّفسِيرُ الكبير) عشرون مجلدًا، و(التاريخ) عشرون مجلدًا، و(تهذيب المسند) عشرون مجلدًا، وباقي الكُتُبِ بَيْنَ كبارٍ وصغارٍ يَكَوّنُ خَمْسَةَ مُجَلَّداتٍ، ومُجَلَّدينِ وثلاثةً، وأرْبَعَةً، وأقلَّ وأكثرَ؛ كفيتُك بِهَذِهِ التصانيف عَنْ استعارة الكُتُبِ وجمع الهمم في التأليف.

- فعَلَيْكَ بالحِفْظِ، فإنما الحِفْظَ رأسُ المَالِ، والتَّصَرُّفُ رِبْحٌ، واصدُقْ في الحالين في الالتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ، فَراعِ حُدودَه، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾[1]، ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[2]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾[3].

- وإيَّاكَ أن تقفَ مَعَ صُورةِ العِلْمِ دُوْنَ الْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ الداخلينَ عَلَى الأمراءِ، والمقبلينَ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، قَدْ أعرضوا عَنِ الْعَمَلِ، فمُنعوا البركةَ والنفعَ بِهِ.

- وإيَّاكَ أن تتشاغلَ بالتعبُّدِ من غَيْرِ علم، فَإِنَّ خلقًا كثيرًا من المُتَزَهِّدِيْنَ المتصوِّفةِ ضَلُّوا طريقَ الهدى؛ إذْ عَمِلُوا بغَيْرِ علمٍ.

- واسْتُرْ نَفْسَكَ بثوبينِ جميلين، لا يُشهرانِكَ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا برِفعتِهما، وَلا بَيْنَ المُتَزَهِّدِيْنَ بضِعَتِهِما، وحاسِبْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ نظرةٍ وكلمةٍ وخُطْوَةٍ، فإنَّك مسؤولٌ عَنْ ذلِكَ، وعلى قدر انتفاعك بالعِلْم ينتفعُ السامعون، ومتى لَمْ يعملِ الواعظُ بعلمه زلَّتْ موعظتُه عَنِ القُلُوْبِ كما يزلُّ الماءُ عَنِ الحَجَرِ؛ فلا تعِظَنَّ إلا بِنِيَّةٍ، وَلا تَمْشِيَنَّ إلا بِنِيَّةٍ، وَلا تأكلَنَّ لقمةً إلا بِنِيَّةٍ، ومع مطالعةِ أخلاقِ السَّلَفِ ينكشفُ لَكَ الأَمْرُ.

- وعَلَيْكَ بكتابِ (منهاج المريدين) فَإِنَّه يعلِّمُكَ السُّلوكَ، فاجْعَلْهُ جليسَك

١- سورة محمد: ٧.

٢- سورة البقرة: ١٥٢.

٣- سورة البقرة: ٤٠.

ومعلمَكَ، وتلمَّحْ كتابَ (صيد الخاطر) فَإنَّك تقعُ بواقعاتٍ تُصلِحُ أَمْرَ دِيْنِكَ ودنياك، وَاحْفَظْ كتابَ (جَنَّةُ النَّظَرِ) فَإنَّه يكفي في تلقيح فهمِك للفقه، ومتى تشاغلتَ بكتاب (الحدائق) أطلَعَكَ عَلَى جمهورِ الْحَدِيثِ، وإِذَا التفتَّ إلى كتاب (الكشف) أبانَ لَكَ مستورَ ما في الصَّحِيْحَيْنِ من الْحَدِيثِ، وَلا تشاغلَنَّ بكتب التفاسيرِ التي صنفَتها الأعاجمُ، وما تَرَكَ (المغني) و(زاد المسير) حاجةً إلى شيء من التفسير، وأمَّا ما جمعتُه لَكَ من كُتُبِ الوَعْظِ فلا حاجةَ بَعْدَها إلى زيادةٍ أَصْلا.

- وكُنْ حسَنَ المداراةِ للخلقِ، مَعَ شدَّةِ الاعتزالِ عنهم، فإنَّ العُزْلَةَ راحةٌ من خُلَطاء السُّوءِ، ومُبقِيَةٌ للوَقارِ، فإنَّ الواعظَ (خاصَّةً) يَنْبَغِي أن لا يُرى مُتَبَذِّلا، وَلا ماشيًا في السُّوقِ وَلا ضاحكًا، لِيَحْسُنَ الظَّنُّ بِهِ، فيُنْتَفَعُ بوعظه.
- فإِذَا اضطررتَ إلى مخالطةِ النَّاسِ فخالطْهم بالْحِلْمِ عنهم، فَإنَّك إن كشفتَ عَنْ أخلاقِهم لَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُداراتِهِمْ[1].
- وأدِّ إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حقَّهُ، من زوجةٍ، أو ولدٍ، أو قرابةٍ، وانظرْ كلَّ ساعةٍ من ساعاتِك بماذا تذهبُ، فلا تُودِعْها إلا أشرفَ ما يمكنُ، وَلا تُهملْ نَفْسَكَ وعوِّدْها أشرفَ ما يَكُوْنُ من الْعَمَلِ وأحسنَه، وابعثْ إلى صندوقِ القَبْرِ ما يسرُّكَ يَوْمَ الوصولِ إِلَيْه، كما قيل:

يامَنْ بِدُنْيَاهُ اشتَغَلْ وغرّهُ طولُ الأمَلْ ‏ ‏ ‏ ‏ الْمَوْتُ يأتي بغتةً والقبْرُ صُندوقُ الْعَمَلْ

- وراعِ عواقبَ الأُمُوْرِ يهُنْ عَلَيْكَ الصَّبْرُ عَنْ كُلِّ ما تَشْتَهِيْ وما تكره، وإن وجدتَ من نَفْسِكَ غفلةً فاحملْها إلى المقابرِ وذكِّرْها قُربَ الرَّحيلِ.
- ودبِّر أمرَكَ، واللهُ المدبِّرُ، في إنفاقك من غَيْرِ تبذيرٍ، لئلا تحتاجَ إلى النَّاسِ، فإنَّ حِفْظَ المَالِ من الدِّيْنِ، ولئن تُخَلِّف لورثتك خَيْرٌ من أن تحتاجَ إلى النَّاسِ.

١- المُداراةُ: في حُسْنِ الخُلُقِ والمُعاشَرة. دارَأْتُه ودارَيْتُه: إذا اتَّقيتَه ولايَنْتَه.

- يا بُنَيَّ، وَاعْلَمْ أننا من أولادِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه، وأبونا القاسم بن مُحَمَّدٍ بن أبي بكر رضي الله عنه، وأخبارُهُ موثَّقةٌ في كتابِ (صفة الصفوة)، ثُمَّ تشاغلَ سلفُنا بالتِّجارةِ والبيعِ والشِّراءِ، فما كَانَ من المتأخرين مَن رُزِقَ همةً في طلب العِلْمِ غَيْرِي، وقد آلَ الأَمْرُ إِلَيْكَ، فاجتهدْ أن لا تخيّبَ ظَنِّي فيما رجوتُهُ فِيْكَ ولك.
- وقد أسلمتُك إلى الله سُبْحَانَهُ، وإِيَّاهُ أسأل أن يوفقك للعِلْمِ والْعَمَلِ.
- وهذا قدر اجتهادي في وصيتي، وَلا حول وَلا قُوَّةَ إلا بالله الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، والْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ وسلم[1].

١- لفتة الكبد في نصيحة الولد: لابن الجوزي، مطبوعة بتحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري.

وَصِيَّةُ ابن تيمية لتلميذه أَبِي الْقَاسِمِ الْمَغْرِبِيِّ

طلبَ أَبو الْقَاسِمِ الْمَغْرِبِيُّ من شَيْخِهِ ابن تيمية الْوَصِيَّةَ فقال: يَتَفَضَّلُ الشَّيْخُ الإِمَامُ بَقِيَّةُ السَّلَفِ وَقُدْوَةُ الْخَلَفِ أَعْلَمُ مَنْ لَقِيتُ بِبِلادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تيمية، بِأَنْ يُوصِيَنِي بِمَا يَكُونُ فِيهِ صَلاحُ دِينِي وَدُنْيَايَ، وَيُرْشِدُنِي إِلَى كِتَابٍ يَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادِي فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيُنَبِّهُنِي عَلَى أَفْضَلِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْوَاجِبَاتِ، وَيُبَيِّنُ لِي أَرْجَحَ الْمَكَاسِبِ، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى قَصْدِ الإِيمَاءِ وَالاخْتِصَارِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُ، وَالسَّلامُ الْكَرِيمُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ[١].

- فَأَجَابَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمَّا (الْوَصِيَّةُ) فَمَا أَعْلَمُ وَصِيَّةً أَنْفَعُ مِنْ وَصِيَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَاتَّبَعَهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٢] وَوَصَّى النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٣]، وَكَانَ مُعَاذٌ رضي الله عنه مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ

١- أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الحراني الدمشقي الحنبلي (٦٦١- ٧٢٨هـ) لقب بشيخ الإسلام، ومحيي السنة، وإمام المجتهدين. كان فصيحًا، جهوري الصوت مكثرًا من التصنيف، يؤدي الدرس بتؤدة، ولا يتلعثم. وكان داعية إصلاح في الدين، معظّمًا لحرمات الله، دائم الابتهال، كثير الاستعانة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أذكار وأوراد يديمها، ويحفظ أحاديث الكتب الستة. أفتى وله أقل من تسع عشرة سنة، وكان يكتب على الفتوى في الحال عدة أوصال بخط سريع في غاية التعليق والإغلاق، سجن مرتين بمصر من أجل فتاواه، وشنع عليه بعض العلماء في بعض فتاواه، وقال بعضهم: إنه مخطئ في ذلك خطأ المجتهدين. قال عنه ابن الزملكاني: كان إذا سئل عن فن من العلم ظنّ الرائي والسّامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء. انظر (ابن تيمية، حياته وعصره، آراؤه وفقهه) محمد أبو زهرة. و(ابن تيمية محدثًا) أحمد محمد العليمي، دار ابن حزم. و(شيخ الإسلام ابن تيمية رجل الإصلاح والدعوة) إبراهيم محمد العلي، دار القلم (الأعلام العلية بمناقب ابن تيمية) لعمر بن علي البزار، تحقيق زهير الشاويش.

٢- سورة النساء: ١٣١.

٣- (يَا مُعَاذُ، اتَّقِ اللَّه...) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ»[١]. وَرُوِيَ فِيهِ: «أَنَّهُ أَعْلَم الأُمَّةِ بِالْحَلالِ وَالْحَرَام، وَأَنَّهُ يُحْشَرُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ بِرَتْوَةٍ، أَيْ بِخُطْوَةٍ»[٢]. وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ مُبَلِّغًا عَنْهُ دَاعِيًا وَمُفَقِّهًا وَمُفْتِيًا وَحَاكِمًا إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ، وَكَانَ يُشَبِّهُهُ بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَإِبْرَاهِيمُ إِمَامُ النَّاسِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: «إِنَّ مُعَاذًا كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تَشْبِيهًا لَهُ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ إِنَّهُ ﷺ وَصَّاهُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ، فَعُلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ، وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا، مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ، حَقٌّ لِلّه عَزَّ وَجَلَّ، وَحَقٌّ لِعِبَادِهِ، ثُمَّ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ لا بُدَّ أَنْ يُخِلَّ بِبَعْضِهِ أَحْيَانًا؛ إِمَّا بِتَرْكِ مَأْمُورٍ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اتَّقِ اللّه حَيْثُمَا كُنْت) وَهَذِهِ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، وَفِي قَوْلِهِ (حَيْثُمَا كُنْت) تَحْقِيقٌ لِحَاجَتِهِ إِلَى التَّقْوَى فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: (وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا) فَإِنَّ الطَّبِيبَ متى تَنَاوَلَ الْمَرِيضُ شَيْئًا مُضِرًّا أَمَرَهُ بِمَا يُصْلِحُهُ، وَالذَّنْبُ لِلْعَبْدِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ حَتْمٌ. فَالْكَيِّسُ هُوَ الَّذِي لا يَزَالُ يَأْتِي مِنْ الْحَسَنَاتِ بِمَا يَمْحُو السَّيِّئَاتِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ (السَّيِّئَةَ) وَإِنْ كَانَتْ مَفْعُولَةً؛ لأَنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا مَحْوُهَا لا فِعْلُ الْحَسَنَةِ فَصَارَ كَقَوْلِهِ فِي بَوْلِ الأَعْرَابِيِّ: «صُبُّوا عَلَيْهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ». وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ مِنْ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَحْوِ وَالذُّنُوبُ يَزُولُ مُوجِبُهَا بِأَشْيَاءَ: (أَحَدُهَا) التَّوْبَةُ، وَ(الثَّانِي) الاسْتِغْفَارُ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، فَإِنَّ اللّه تَعَالَى قَدْ يَغْفِرُ لَهُ إجَابَةً لِدُعَائِهِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ التَّوْبَةُ وَالاسْتِغْفَارُ فَهُوَ الْكَمَالُ، (الثَّالِثُ) الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمُكَفِّرَةُ؛ أَمَّا (الْكَفَّارَاتُ الْمُقَدَّرَةُ) كَمَا يُكَفِّرُ الْمُجَامِعُ فِي رَمَضَانَ، وَالْمُظَاهِرُ، وَالْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ، أَوْ تَارِكُ بَعْضِ وَاجِبَاتِهِ، أَوْ قَاتِلُ الصَّيْدِ بِالْكَفَّارَاتِ الْمُقَدَّرَةِ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ: هَدْيٌ، وَعِتْقٌ، وَصَدَقَةٌ، وَصِيَامٌ، وَأَمَّا (الْكَفَّارَاتُ الْمُطْلَقَةُ) كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ لِعُمَرَ:

١- (يَا مُعَاذُ، وَاللّهِ إِنِّي لأُحِبّكَ وَكَانَ يُرْدِفُهُ وَرَاءَهُ) أخرجه أحمد، وأبو داود في كتاب الوتر، والنسائي في كتاب السهو.

٢- (أَنَّهُ أَعْلَم الأُمَّةِ بِالْحَلالِ وَالْحَرَام...) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب.

فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ؛ يُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ وَالأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي التَّكْفِيرِ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالْجُمُعَةِ، وَالصِّيَامِ، وَالْحَجِّ، وَسَائِرِ الأَعْمَالِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: مَنْ قَالَ كَذَا وَعَمِلَ كَذَا غُفِرَ لَهُ أَوْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ لِمَنْ تَلَقَّاهَا مِنَ السُّنَنِ، خُصُوصًا مَا صُنِّفَ فِي فَضَائِلِ الأَعْمَالِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْعِنَايَةَ بِهَذَا مِنْ أَشَدِّ مَا بِالإِنْسَانِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ؛ خُصُوصًا فِي هَذِهِ الأَزْمِنَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ فَكَيْفَ بِغَيْرِ هَذَا، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟. هَذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾[1]، وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ مِنَ الْخَاصَّةِ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمُ ابْنُ عيينة: فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدِ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ، وَكَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَى قَدِ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الدِّينِ، كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الإِسْلامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ، وَكَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ لا بُدَّ أَنْ يُلاحِظَ أَحْوَالَ الْجَاهِلِيَّةِ وَطَرِيقَ الأُمَّتَيْنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَرَى أَنْ قَدِ ابْتُلِيَ بِبَعْضِ ذَلِكَ، فَأَنْفَعُ مَا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ الْعِلْمُ بِمَا يُخَلِّصُ النُّفُوسَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَاتِ وَهُوَ إِتْبَاعُ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ.

١- سورة التوبة: ٦٩.

- وَالْحَسَنَاتُ مَا نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ، وَمِمَّا يُزِيلُ مُوجِبَ الذُّنُوبِ (الْمَصَائِبُ الْمُكَفِّرَةُ) وَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ مِنْ هَمٍّ أَوْ حُزْنٍ أَوْ أَذًى فِي مَالٍ أَوْ عِرْضٍ أَوْ جَسَدٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ، فَلَمَّا قَضَى بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ حَقَّ اللهِ مِنْ عَمَلِ الصَّالِحِ وَإِصْلَاحِ الْفَاسِدِ قَالَ: (وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) وَهُوَ حَقُّ النَّاسِ.

- وَجِمَاعُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ مَعَ النَّاسِ: أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ بِالسَّلَامِ، وَالإِكْرَامِ، وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَالاسْتِغْفَارِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالزِّيَارَةِ لَهُ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ مِنَ التَّعْلِيمِ، وَالْمَنْفَعَةِ، وَالْمَالِ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ، وَبَعْضُ هَذَا وَاجِبٌ وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبٌّ.

- وَأَمَّا الْخُلُقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فَهُوَ الدِّينُ الْجَامِعُ لِجَمِيعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطْلَقًا، هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)، وَحَقِيقَتُهُ الْمُبَادَرَةُ إِلَى امْتِثَالِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى بِطِيبِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ. وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ فَهُوَ أَنَّ اسْمَ تَقْوَى اللهِ يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا، وَهَذَا يَجْمَعُ حُقُوقَ اللهِ وَحُقُوقَ الْعِبَادِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَارَةً يَعْنِي بِالتَّقْوَى خَشْيَةَ الْعَذَابِ الْمُقْتَضِيَةَ لِلانْكِفَافِ عَنِ الْمَحَارِمِ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ، وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ». قِيلَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قَالَ: «الأَجْوَفَانِ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ». وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»، فَجَعَلَ كَمَالَ الإِيمَانِ فِي كَمَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإِيمَانَ كُلَّهُ تَقْوَى اللهِ، وَتَفْصِيلُ أُصُولِ التَّقْوَى وَفُرُوعِهَا لا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ فَإِنَّهَا الدِّينُ كُلُّهُ؛ لَكِنَّ يَنْبُوعَ

الْخَيْرِ وَأَصْلَهُ إِخْلاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عِبَادَةً وَاسْتِعَانَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ بِحَيْثُ يَقْطَعُ الْعَبْدُ تَعَلُّقَ قَلْبِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ انْتِفَاعًا بِهِمْ أَوْ عَمَلا لأَجْلِهِمْ، وَيَجْعَلُ هِمَّتَهُ رَبَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ بِمُلازَمَةِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ، مِنْ فَاقَةٍ وَحَاجَةٍ وَمَخَافَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْعَمَلِ لَهُ بِكُلِّ مَحْبُوبٍ، وَمَنْ أَحْكَمَ هَذَا فَلا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يُعْقِبُهُ ذَلِكَ.

- وَأَمَّا مَا سَأَلْت عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَمَا يُنَاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ، فَلا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابٌ جَامِعٌ مُفَصَّلٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، لَكِنْ مِمَّا هُوَ كَالإِجْمَاعِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ وَأَمْرِهِ أَنَّ مُلازَمَةَ ذِكْرِ اللَّه دَائِمًا هُوَ أَفْضَلُ مَا شَغَلَ الْعَبْدَ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْجُمْلَةِ، وَعَلَى ذَلِكَ دَلَّ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَنْ الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّه كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ». وَفِيمَا رَوَاهُ أَبُو داود عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «ذِكْرُ اللَّه». وَالدَّلائِلُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالإِيمَانِيَّةُ بَصَرًا وَخَبَرًا وَنَظَرًا عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَقَلُّ ذَلِكَ أَنْ يُلازِمَ الْعَبْدُ الأَذْكَارَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ ﷺ كَالأَذْكَارِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَعِنْدَ أَخْذِ الْمَضْجَعِ، وَعِنْدَ الاسْتِيقَاظِ مِنَ الْمَنَامِ، وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَالأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ مِثْلُ مَا يُقَالُ عِنْدَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَاللِّبَاسِ، وَالْجِمَاعِ، وَدُخُولِ الْمَنْزِلِ، وَالْمَسْجِدِ، وَالْخَلاءِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ، وَعِنْدَ الْمَطَرِ وَالرَّعْدِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمُسَمَّاةُ (بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ)، ثُمَّ مُلازَمَةُ الذِّكْرِ مُطْلَقًا، وَأَفْضَلُهُ (لا إِلَهَ إلا الله) وَقَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ يَكُونُ

بَقِيَّةُ الذِّكْرِ مِثْلُ: (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللهِ) أَفْضَلُ مِنْهُ، ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ اللِّسَانُ وَتَصَوَّرَهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ مِنْ تَعَلُّمِ عِلْمٍ وَتَعْلِيمِهِ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، وَلِهَذَا مَنْ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَتَفَقَّهُ أَوْ يُفَقِّهُ فِيهِ الْفِقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ فِقْهًا، فَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللهِ، وَعَلَى ذَلِكَ إِذَا تَدَبَّرْتَ لَمْ تَجِدْ بَيْنَ الأَوَّلِينَ فِي كَلِمَاتِهِمْ فِي أَفْضَلِ الأَعْمَالِ كَبِيرَ اخْتِلافٍ.

- وَمَا اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْعَبْدِ فَعَلَيْهِ بِالاسْتِخَارَةِ الْمَشْرُوعَةِ، فَمَا نَدِمَ مَنْ اسْتَخَارَ اللهَ تَعَالَى، وَلْيُكْثِرْ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْ الدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَلا يُعَجِّلُ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْت فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي، وَلْيَتَحَرَّ الأَوْقَاتَ الْفَاضِلَةَ كَآخِرِ اللَّيْلِ وَأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ وَعِنْدَ الأَذَانِ، وَوَقْتَ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.
- وَأَمَّا أَرْجَحُ الْمَكَاسِبِ: فَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ، وَالثِّقَةُ بِكِفَايَتِهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ.
- وَذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ الرِّزْقِ أَنْ يَلْجَأَ فِيهِ إِلَى اللهِ، وَيَدْعُوهُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِيمَا يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيُّهُ: «كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْته فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْته فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»[١]، وَفِيمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ». وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٣]، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمُعَةِ فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ، وَلِهَذَا -وَاللهُ أَعْلَم- أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك»، وَإِذَا خَرَجَ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ

١- (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي...) رواه مسلم في باب تحريم الظلم.

٢- سورة النساء: ٣٢.

٣- سورة الجمعة: ١٠.

إنِّي أَسْأَلُك مِنْ فَضْلِك»[1]. وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾[2]، وَهَذَا أَمْرٌ، وَالأَمْرُ يَقْتَضِي الإِيجَابَ، فَالاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَاللَّجَأُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ.

- ثُمَّ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمَالَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلا يَأْخُذُهُ بِإِشْرَافٍ وَهَلَعٍ؛ بَلْ يَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْخَلاءِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْقَلْبِ مَكَانَةٌ وَالسَّعْيُ فِيهِ إِذَا سَعَى كَإِصْلاحِ الْخَلاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: «مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ شَتَّتَ اللَّه عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَمَعَ اللَّه عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ». وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْتَ مُحْتَاجٌ إلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ إلَى نَصِيبِك مِنْ الآخِرَةِ أَحْوَجُ، فَإِنْ بَدَأْت بِنَصِيبِك مِنْ الآخِرَةِ مَرَّ عَلَى نَصِيبِك مِنْ الدُّنْيَا فَانْتَظَمَهُ انْتِظَامًا، قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[3].

- فَأَمَّا تَعْيِينُ مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ بِنَايَةٍ أَوْ حِرَاثَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ النَّاسِ، وَلا أَعْلَم فِي ذَلِكَ شَيْئًا عَامًّا، لَكِنْ إذَا عَنَّ لِلإِنْسَانِ جِهَةٌ فَلْيَسْتَخِرْ اللَّه تَعَالَى فِيهَا الاسْتِخَارَةَ الْمُتَلَقَّاةَ عَنْ مُعَلِّمِ الْخَيْرِ ﷺ فَإِنَّ فِيهَا مِنْ الْبَرَكَةِ مَا لا يُحَاطُ بِهِ، ثُمَّ مَا تَيَسَّرَ لَهُ فَلا يَتَكَلَّفُ غَيْرَهُ إلا أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَرَاهَةٌ شَرْعِيَّةٌ.

- وَأَمَّا مَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ فِي الْعُلُومِ؛ فَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، هُوَ أَيْضًا يَخْتَلِفُ

١- «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِك، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِك» رواه مسلم، بَاب اسْتِحْبَابِ تَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ بِرَكْعَتَيْنِ وَكَرَاهَةِ الْجُلُوسِ قَبْلَ صَلاتِهِمَا وَأَنَّهَا مَشْرُوعَةٌ فِي جَمِيعِ الأَوْقَاتِ.

٢- سورة العنكبوت: ١٧.

٣- سورة الذاريات: ٥٦.

باختلاف نَشْءِ الإنْسَانِ فِي الْبِلادِ، قَدْ يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَعْضِ الْبِلادِ مِنَ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ طَرِيقِهِ وَمَذْهَبِهِ فِيهِ مَا لا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِي بَلَدٍ آخَرَ، لكِنَّ جِمَاعَ الْخَيْرِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّه سُبْحَانَهُ فِي تَلَقِّي الْعِلْم الْمَوْرُوثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى عِلْمًا، وَمَا سِوَاهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عِلْمًا فَلا يَكُونَ نَافِعًا، وَإِمَّا أَلا يَكُونَ عِلْمًا وَإِنْ سُمِّيَ بِهِ، وَلَئِنْ كَانَ عِلْمًا نَافِعًا فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مِيرَاثِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُغْنِي عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ، وَلْتَكُنْ هِمَّتُهُ فَهْمَ مَقَاصِدِ الرَّسُولِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَسَائِرِ كَلامِهِ، فَإِذَا اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ أَنَّ هَذَا هُوَ مُرَادُ الرَّسُولِ فَلا يَعْدِلُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلا مَعَ النَّاسِ إِذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ.

- وَلْيَجْتَهِدْ أَنْ يَعْتَصِمَ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْم بِأَصْلٍ مَأْثُورٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِمَّا قَدِ اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ فَلْيَدْعُ بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى قَدْ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْته فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ».

- وَأَمَّا وَصْفُ (الْكُتُبِ وَالْمُصَنِّفِينَ) فَقَدْ سُمِعَ مِنَّا فِي أَثْنَاءِ الْمُذَاكَرَةِ مَا يَسَّرَهُ اللَّه سُبْحَانَهُ، وَمَا فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الْمُبَوَّبَةِ كِتَابٌ أَنْفَع مِنْ (صَحِيح مُحَمَّد بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ، لَكِنْ هُوَ وَحْدَهُ لا يَقُومُ بِأُصُولِ الْعِلْمِ، وَلا يَقُومُ بِتَمَامِ الْمَقْصُودِ لِلْمُتَبَحِّرِ فِي أَبْوَابِ الْعِلْمِ؛ إِذْ لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ أَحَادِيثَ أُخَرَ، وَكَلامُ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الْعِلْم فِي الأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ أَوْعَبَتْ الأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْم إِيعَابًا فَمَنْ نَوَّرَ اللَّه قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إلا حَيْرَةً وَضَلالا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي لَبِيدٍ الأَنْصَارِيِّ:

«أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ».

- فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْهُدَى وَالسَّدَادَ، وَيُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَيَقِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا، وَأَنْ لا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً، إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَصَلَوَاتُهُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ[1].

١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

وصية للنَّحوي

النَّحْويُّ: العالم بالنَّحْوِ، وهو علم يعرف به أحوال أواخر الكلام إعرابًا وبناءً[1].

وواضع علم النحو هو سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويروى في سبب وضعه أن أبا الأسود قال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء -يعني الأعاجم- فأردت أن أضع لهم شيئًا يرجعون إليه، ويعتمدون عليه؛... وبعد أن عرض عليه ما وضعه قال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت! فلذلك سمي النحو نحوًا[2].

قال القلقشندي في وصية النَّحْويِّ:

- النَّحْويُّ هو زيدُ الزَّمانِ الذي يُضرَبُ به المَثلُ، وعمرُو الأوانِ وقد كَثُرَ من سيبويه المللُ، ومازِنيُّ الوقتِ ولكنه الذي لم يُسْتَبَحْ منه الإبلُ، وكسائيُّ الدَّهرِ الذي لو تقدَّم لما اختارَ غَيْرَهُ الرَّشيدُ للمأمونِ، وذو السُّؤددِ، لا أبو الأسودَ، مع أنَّهُ ذو السَّابقةِ والأجرِ الممنونِ، وهو ذو البرِّ المأثورِ، والقَدْرُ المرفوعِ، ولواؤُهُ المنصوبُ، وذيلُ فخَارِهِ المجرورُ.
- والمعروفُ بما لا ينكرُ لمثله من الحَـزْمِ، والذَّاهبُ عَمَلُهُ الصَّالحُ بكل العوامل التي لم يُبْقِ منها لِحَسُودِهِ إلا الجزمَ.
- وهو ذو الأبنيةِ التي لا يُفْصِحُ عن مثلِها الإعراب، ولا يُعرَفُ أفصحُ منها فيما أخِذَ عن الأعراب.

1- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية (مادة ن ح ا).

2- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات الأنباري.

- والذي أصبحتْ أهدابُه فوق عمائم الغمائم تُلاثُ، ولم يزلْ طولَ الدَّهْرِ يُشْكَرُ منه أمسُهُ ويومُه وغَدُه، وإنما الكلماتُ ثلاثٌ.
- فليتصدَّ للإفادة، وليعلمْهُم مثلَ ما ذُكرَ فيه من علم النَّحوِ نَحْوَ هذا وزيادة.
- وليكنْ للطلبةِ نجمًا به يُهتدى، وليرفع بتعليمه قدر كل حَبْرٍ يكون خَبَرًا لَهُ وهو المبتدا.
- وليقدِّمْ منهم كلَّ من صلَحَ للتَّبْريزِ، واستحقَّ أن يُنصب إمامًا بالتمييزِ.
- وليوردْ من موارده أعذبَ النِّطافِ، وليجرَّ إليه كل مضاف إليه ومضاف.
- وليوقِفْهم على حقائقِ الأسماء، ويعرفهم دقائق البحوث حتى اشتقاق الاسم هل هو من السموِّ أو من السِّمَّاء.
- وليبينْ لهم الأسماءَ الأعجميةَ المنقولةَ والعربيةَ الخالصةَ، وليَدُلَّهم على أحسنِ الأفعال، لا ما يُشْتَبه فيه بصفاتِ كان وأخواتِها من الأفعالِ النَّاقصة.
- وليحفِّظْهُم المثلَ وكلماتِ الشُّعراءِ، ولينصِّبْ نفسَهُ لحدِّ أذهانِ بَعضِهِمْ ببعضٍ نصبَ الإغراءِ. وليعاملْ جماعةَ المستفيدينَ منه بالعطفِ، ومع هذا كلِّه فليرفُق بِهِم فما بلغَ أحدٌ علمًا بقوةٍ ولا غايةً بِعَسْفٍ[1].

١- صبح الأعشى: ١١/ ٢٤٩.

وصية للمقرئ

المقرئ: هو الذي يقرىء القرآن العظيم، وقد غلب اختصاصه في العرف على مشايخ القراءة المجيدين المتصدين لتعليم علم القراءة.

- ولْيَدُمْ على ما هو عليه من تلاوةِ القرآنِ، فَإِنَّهُ مصباحُ قلبِهِ وصلاحُ قُرْبِهِ، وصباحُ القبول المؤذِنِ لَهُ برِضا ربِّهِ.
- وَلْيَجْعَلْ سُورَهُ لَهُ أسوارًا، وآياتِهِ تُظْهِرُ بين عينيه أنوارًا.
- وليتلُ القرآنَ بحروفِهِ وإذا قرأ استعاذَ، وليجمعْ طُرُقَه وهي التي عليها الجمهورُ، ويترك الشَّواذّ.
- ولا يرتدَّ دونَ غايةٍ لإقصارٍ، ولا يقفْ فبعد أن أتمَّ لم يبقَ بحمد الله إحصار، وليتوسع في مذاهبه، ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار.
- وليبذلْ للطلبةِ الرِّغابَ، وليُشبِعْ فإنَّ ذوي النَّهْمةِ سِغابٌ، وليُرِ الناسَ ما وهبَهُ الله من الاقتدارِ، فَإِنَّهُ احتضنَ السَّبُعَ ودخلَ الغَابَ.
- وليتمَّ مبانيَ ما أتَمَّ ابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو لَهُ التَّعميْر، ولفَّهُ الكسائي في كسائِهِ ولم يقلْ جَدّي ابن كثير.
- وحُمَّ به لحمزة أن يعودَ ذاهب الزمان، وعلم أَنَّهُ لا عاصمَ من أمر الله يُلجأ معه إليه وهو الطوفان.
- وطفِقَ يتفجَّرُ علمًا وقد وَقَفَتْ السُّيولُ الدَّوافعُ، وضَرَّ أكثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم، وهو نافع.
- وليُقبِلْ على ذوي الإقبالِ على الطلبِ، وليأخذْهم بالتربيةِ، فما منهم إلا من هو إليه قد انتسب.

- وهو يعلمُ ما منَّ اللّهُ عليه بحفظِ كتابهِ العزيزِ من النَّعماءِ، ووصلَ سببَهُ منه بحبلِ اللّهِ الممتدِّ من الأرضِ إلى السماءِ.
- فليقْدُرْ حقَّ هذه النعمةِ بحسنِ إقبالِهِ على التَّعليمِ، والإنصافِ إذا سئل، فعِلْمُ اللّهِ لا يتناهى، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ[1].

١- صبح الأعشى: ١١/ ٢٤٧. ونسبها لكتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) للمقر الشهابي، أحمد بن فضل الله العدوي العمري (٧٣٧ هـ) ووصفه بالفاضل الألمعي، والمصقع اللوذعي، ملك الكتابة وإمامها وسلطان البلاغة ومالك زمامها.

وصية للخطيب

كان من أشهر الخطباء العرب: سحبان بن وائل، وهو خطيب جاهلي، أسلم في زمن النبي ﷺ ولَم يجتمع به، يضرب به المثل في البيان، كان إذا خطب يسيل عرقًا، ولا يعيد كلمة، ولا يتوقف، ولا يقعد حتى يفرغ.

قال القلقشندي في (وصية خطيب) بتوقيع التكليف بالخطابة:

- وَلْيَرْقَ هذه الرُّتبةَ التي رَفَعَتْ لَهُ ذُرَى أعوادِها، وقَدِّمتْ لَهُ من المنابر مُقَرَّباتِ جيادِها[١].
- وليصعَدْ منها على أعلى درجة؛ وليَسْعَدْ منها بصهوةٍ كأنما كانت لَهُ من بُكرة يومه المشرِقِ مُسْرَجة.
- وليَرْعَ حقَّ هذه الرُّتبةِ الشَّريفة، والذِّروةِ التي ما أُعِدَّتْ إلا لإمامٍ فَرْدٍ مثلِه أو خليفة.
- وليقفْ حيثُ تَخْفِقُ على رَأْسِهِ الأعلام، ويتكلَّمُ فتخرَسَ الألسنةُ وتَجِفُّ في فمِ الذُّرى الأقلام.
- وليقرَعِ المسامعَ بالوعدِ والوعيدِ، ويذكِّرْ بأيام الله مَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، ويُلَيِّنُ القلوبَ القاسيَةَ، وإن كان منها ما هو أشدُّ قسوةً من الحجارةِ والحديدِ.
- وليكنْ قد قدّمَ لنفسِهِ قبلَ أن يتقدَّمَ، وليُسْبِلْ عليه دِرْعَ التَّوبةِ قبلَ أن يتكلَّمَ.
- وَلْيَجْعَلْ لكلِّ مقام مقالا يقومُ به على رؤوسِ الأشهادِ، ويُفَوِّقُ منه سهمًا لا يخطئُ موقِعُهُ كلَّ فؤادٍ.
- وليقُمْ في المحرابِ مقامَ من يخشَى ربَّهُ، ويخافُ أن يَخْطَفَ الوَجَلُ قلبَهُ.

١– ذِرْوَةُ كلِّ شَيءٍ وذُرْوَتُه: أَعْلاهُ، والجَمْع الذُّرَى بالضم.

- وليعلَمْ أنَّ صَدَفَةَ ذلك المحرابِ ما انفلقَتْ عن مثلِ دُرَّتِـهِ المكنونةِ، وصناديقَ الصُّدورِ ما أطبقتْ على مثلِ جوهرتِهِ المخزونةِ.
- ولْيؤمّ بذلك الجمَّ الغفيْرَ، وليتقدَّمْ بينْ أيديهم فَإِنَّهُ السَّفيرُ.
- وليؤدّ هذه الفريضةِ التي هي من أعظمِ الأركانِ، وأوَّلِ الأعمالِ التي توضَعُ في الميزانِ، وأقربِ القُرَبِ التي يجمع إليها داعي كلِّ أذان.
- وليَقُمْ بالصَّلاةِ في أوقاتِها، وليُرِحْ بها النَّاسَ في أوِّلِ ميقاتِها.
- وليُخفِّفْ مع الإتمام، وليتحمَّلْ عمَّنْ وراءَه فَإِنَّهُ الإمام.
- وعليه بالتَّقوى في عقدِ كلِّ نِيَّةٍ، وأمامَ كلِّ قضيَّةٍ، واللّه تَعَالَى يجعلُهُ ممن ينقلبُ إلى أهلِهِ وهو مسرور ويُنْصَبُ لَهُ مع الأئمَّةِ المقسطينِ يومَ الْقِيَامَةِ عن يَميْنِ الرَّحْمنِ منـابِرُ من نور، بمنِّهِ وكَرَمِهِ [1].

١- صبح الأعشى: للقلقشندي ١١/ ٢٢٥. ونسبها لكتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) للمقر الشهابي، أحمد بن فضل اللّه العدوي العمري.



الفصل الرابع

وصايا في العلاقات الأسرية

في الحَدِيثِ الشريف: «ثلاثٌ من السَّعادةِ: المَرْأةُ تراها تُعْجِبُكَ وتغيبُ فتأمَنَها عَلَى نَفْسِهَا ومالِكَ، والدَّابَّةُ تَكُونُ وطيَّةً فتلحقك بأصْحَابِك، والدَّارُ تَكُونُ واسعةً كَثِيرَةَ المرافق...»[١]، ولذلك فإنه مَا اتُّفِقَ في حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ مِثْلَ مَا اتُّفِقَ في النِّكَاحِ مِنَ اجْتِمَاعِ دَوَاعِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالطَّبْعِ، فَأَمَّا دَوَاعِي الشَّرْعِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ فَظَاهِرَةٌ، وَأَمَّا دَوَاعِي الْعَقْلِ: فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يُحِبُّ أَنْ يَبْقَى اسْمُهُ وَلا يَنْمَحِيَ رَسْمُهُ، وَمَا ذَلِكَ غَالِبًا إِلا بِبَقَاءِ النَّسْلِ، وَأَمَّا دَوَاعِي الطَّبْعِ: فَإِنَّ الطَّبْعَ الْبَهِيمِيَّ مِنَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَى يَدْعُو إِلَى تَحْقِيقِ مَا أُعِدَّ مِنَ الْمُبَاضَعَاتِ الشَّهْوَانِيَّةِ وَالْمُضَاجَعَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلا مَزْجَرَةَ فِيهَا إِذَا كَانَتْ بِأَمْرِ الشَّرْعِ وَإِنْ كَانَتْ بِدَوَاعِي الطَّبْعِ، بَلْ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ[٢].

قال بعض الحكماء: جعل الله لكل شيء كمالا ينساق إليه طبعًا، وقد هداه إلى التخصيص به تسخيرًا، كما نبه الله عليه بقوله تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (سورة طه:٥٠). وللإنسان سعادات أتيحت له، وهي النعم المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان: ضرب دائم لا يبيد ولا يحول وهو النعم الأخروية، وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية... وما أحد إلا وهو فازع إلى السعادة يطلبها بجهد، ولكن كثيرًا ما يخطيء فيظن ما ليس بسعادة في ذاته أنه سعادة فيغتر بها[٣].

ومن كلام أرسطوطاليس: السعادة ثلاثة؛ إما في النفس: فالحكمة، والعفة، والشجاعة. وإما في البدن: فالصحة، والجمال والقوة. وإما خارج النفس والبدن: وهي المال والجاه والنسب[٤].

١- (ثلاث من السعادة...) رواه الحاكم.

٢- الموسوعة الفقهية: إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت.

٣- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: الراغب الأصفهاني (١/ ١٣).

٤- الكشكول: لبهاء الدين العاملي، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، طبعة عيسى البابي الحلبي.

وَصِيَّةٌ لنيل أعلى درجات السعادة

قال بعض الحكماء: حتَّى يستحقَّ الإنسان أنْ يكون في أكملِ المَراتِبِ الإنسانيَّةِ، وفي أعلى دَرَجَاتِ السَّعادَةِ الأبَدِيَّةِ، فلا بدَّ من اجْتِمَاعِ هَذِهِ الفَضَائلِ، وهي:

- الأولى: أنْ يَكُوْنَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى جَوْدَةِ التَّحْصِيْلِ، لِكُلِّ ما يَعْمَلُهُ من أعمالِ السَّعَادَةِ.
- الثَّانيةُ: أنْ يَكُوْنَ صحيحَ الأعضاءِ، تُواتيْهِ عَلَى ما يُرِيدُهُ من أعمالٍ بدنيَّةٍ.
- الثالثة: أنْ يَكُوْنَ جَيِّدَ الفَهْمِ والتَّصَوُّرِ لِما يقالُ له، عالِمًا بكتابِ الله، عاملا بِهِ.
- الرابعة: أنْ يَكُوْنَ جَيِّدَ الحِفْظَ لما يراهُ ويَسْمَعُهُ لا ينسى ما يدركُهُ من العِلْمِ.
- الخامسة: أنْ يَكُوْنَ جَيِّدَ الفطنةِ ذكيًّا، إِذا رأى عَلَى الشئِ أدنى دليلٍ يفطنُ لَهُ.
- السادسة: أنْ يَكُوْنَ حَسَنَ العِبارة، يواتيه لسانُهُ عَلَى إبانةِ جَمِيْعِ ما في ضَميْرِهِ.
- السابعة: أنْ يَكُوْنَ مُحِبًّا للتَّعلُّمِ والاستفادةِ، مُنْقَادًا، سَهْلَ القَبُولِ لمن يؤلِمُهُ فقدُ التَّعلم.
- الثامنة: أنْ يَكُوْنَ مُحِبًّا للصدقِ وَأَهْلِهِ، كارهًا للكذب وَأَهْلِهِ، طبعًا لا تكلُّفًا.
- التاسعة: أنْ يَكُوْنَ غيْرَ شَرِهٍ عَلَى الشَّهَوَاتِ، مُبغضًا لِمَا ساءت عاقبتُهُ من اللَّذاتِ.

- العاشرة: أَنْ يَكُوْنَ كبيرَ النَّفْسِ، مُحِبًّا للكرامة، يَفْطِمُ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ ما يُشِيْنُ من الأُمُوْر.
- الحادي عشر: أَنْ يَكُوْنَ مُحِبًّا للعدلِ والصِّدْق وأَهْلِهما، مبغضًا للجَوْرِ.
- الثَّاني عشر: أَنْ يَكُوْنَ قويَّ العزيمةِ عَلَى ما يبتغي غَيْرَ خائفٍ من المَوْتِ وَلا ضَعيفَ النَّفْسِ.
- الثالث عشر: أَنْ يهونَ عِنْدَه الدِّيْنارُ والدِّرهمُ، وسائرُ الأعراضِ الدُّنيويةِ الفانيةِ[1].

١- سلوك المالك في تدبير الممالك: لابن أبي الربيع، وقد لَفَتَ انتباهي أنَّه ذكر الفضائل التي تؤدي للسعادة دون أن يعرّف السَّعَادَة، وقد يكون عذره في ذلك أنه يصعبُ تعريف ماهية السعادة بحدٍّ جامعٍ مانعٍ.

وإن كَانَت هَذِهِ من وَصِيَّةِ الكندي فَقَدْ صَدَقَ ما حكاه عَنْهُ ابنُ النَّديم البغدادي في كتابِهِ، فَإِنَّه قال: إنَّ الكندي كَانَ بخيلا[1].

وَصِيَّةُ الكندي لوَلَدِهِ أبي العَبَّاسِ

قال الذهبيُّ: يَعْقُوبُ بنُ إسحاقَ ابن الصباح، الكندي الأشعثي الفيلسوف، صَاحِبُ الكُتُبِ، من ولد الأشعث بن قيس، أميرِ العَرَبِ، كَانَ رأسًا في حِكْمَةِ الأوائل ومنطق اليونان والهيئة والتنجيم والطب وغَيْرِ ذَلِكَ، لا يلحق شأْوُه في ذَلِكَ العِلْمِ المَتروك، وله باعٌ أطولُ في الهندسة والموسيقى، كَانَ يقال له: فيلسوفُ العَرَبِ، وكَانَ مُتَّهمًا في دِيْنِهِ بخيلا، ساقطَ المُرُوءَةِ، وله نظم جيد وبلاغة وتلامذة[2].

ومن كلامه مِمَّا أَوْصَى بِهِ لوَلَدِهِ أبي العَبَّاسِ:

- يا بُنَيَّ، الأبُ ربٌّ، والأخُ فخٌّ، والعمُّ غَمٌّ، والخالُ وَبالٌ، والوَلَدُ كَمَدٌ، والأقاربُ عَقَاربُ، وقولُ لا يصرفُ البلاءَ، وقولُ نَعَمْ يزيلُ الغمَّ.
- وسَماعُ الغناء برسامٌ حادٌّ، لأن الإنسانَ يَسْمَعُ فيطرب، وينفق فيسرف، فيفتقر فيغتم، فيعتلُّ فيَمُوتَ، والدِّيْنارُ مَحْمومٌ فإن صرفتَه مات، والدرهمُ محبوسٌ، فإن أخرجتَه فرّ[3].
- والنَّاسُ سُخْرَةٌ، فَخُذْ شِيَتَهُمْ، واحْفَظْ شيئَك[4].
- ولا تقبلْ مِمَّنْ قالَ اليمينَ الفاجرةَ، فَإِنَّها تَدَعُ الدِّيارَ بَلاقِعَ[5].

١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة (ص: ١٩٠)، طبعة دار الحياة، بيروت.

٢- سير أعلام النبلاء: للذهبي.

٣- البِرْسامُ: علَّةٌ معروفةٌ، وقد بُرْسِمَ الرجل، فهو مُبَرْسَمٌ، وكأنه معرَّب.

٤- السُّخْرَةُ: الضُّحْكَةُ. والسُّخْرَةُ: ما تسَخَّرْتَ من دابَّة أو خادم بلا أجر ولا ثمن.

٥- قلت: وأوردت هَذِهِ الوصية لأنها من أغرب الوصايا، وتدلُّ عَلَى جشع مقيت، ونَزْعة للتشاؤم، ونظرةٍ للحياةِ غَيْرِ متوازنة، ولأعقد مقارنة بينها وبين الوصية الثانية، وبضدها تتميز الأشياء.

وأين قول هَذا الكنديِّ في (الأقارب) من قول المُقَنَّع الكِنْدِي في (أقاربِه):

والمُقَنَّع الكِنْدِي هو، محمد بن عُمَيْرة، شاعر إسلاميّ، قال الهيثم بن عديّ كان المقنّع أحسن الناس وجهًا فإذا سفر لقع، أي أصابته العين فيمرض ويلحقه عنت، فكن لا يمشي إلاّ مقنّعًا.

يُعاتِبُني في الدِّيْنِ قَوْمي، وإنَّما ... دُيُونيَ في أَشْياءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدا

أَسُدُّ به ما قَدْ أَخَلُّوا وضَيَّعُوا ... ثُغُورَ حُقُوقٍ ما أطاقُوا لها سَدّا

وفي جفنةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دونَها ... مُكَلَّلَة لَحْمًا مُدَفَّقَةٍ ثَرْدًا

وفي فَرَسٍ نَهْدٍ عتيقٍ جَعَلْتُهُ ... حجابًا لبيتي ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدا

وإنَّ الَّذي بَيْنَي وبَيْنَ بنِي أبي ... وبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدّا

أَرَاهُمْ إلى نَصْرِي بطاءً، وإنْ هُمُ ... دَعَوْني إلى نَصْرٍ أَتَيْتُهُمُ شَدّا

فإنْ أَكَلُوا لَحْمي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وإنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا

وإنْ ضَيَّعُوا غَيْبَي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوِيتُ لَهُمْ رَشْدًا

وإن زَجَروا طَيْرًا بنحْسٍ تَمرُّ بي ... زَجَرْتُ لَهُمْ طيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدا

ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عليهمُ ... ولَيْسَ رئيسُ القوم من يَحْمِلُ الحقْدَا

وإنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دام ثاوِيًا ... وما شِيَمةٌ لي غَيْرَها تُشْبِه العَبْدا[1]

١- شرح ديوان الحماسة: للمرزوقي، وقال: أنشد يعقوب ابن السكيت هذا الشعر لحاتم.

وصية بعضهم لولده لما أراد التزوّج

قال الفراء: سمعت الكلابيّ يقول: قال بعضهم لولده: يا بنيّ، لا تتّخذها حنّانةً ولا أنّانة، ولا منّانة، ولا عشبة الدّار، ولا كَيّة القفا.

والحنّانةُ: التي لها ولد من سواه، فهي تحنّ عليهم. والأنّانةُ: التي مات عنها زوجها فهي إذا رأت الزوج الثاني أنّت، وقالت: رحم الله فلانًا، لزوجها الأوّل. والمَنّانةُ: التي لها مال، فهي تمنّ على زوجها كلما أهوى إلى شيء من مالها. وعُشْبةُ الدار: يريد الهجينة. وكَيَّةُ القفا: هي التي يأتي زوجها أو ابنها القوم، فإذا انصرف من عندهم قال رجل من جبناء القوم: قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولّي أو أمه أمرٌ[1].

وَصِيَّةُ أحدِ الحُكَمَاءِ للأزواج

قال ابن أبي الربيع: ويَنْبَغِي أن يستعمل صاحبَ المرأة (يريد زوجها) هَذِهِ الأحوال السِّتَّة:

- الأول: أن يبدأ بتفهيمها أَنَّهُ لَمْ يُرِدْها للولدِ، دُوْنَ العنايةِ بِمَنْزِلِهِ وتَدْبِيْرِهِ.
- الثَّانيةُ: أن يَأْمُرَها بحِفْظِ مَنْزِله في حضورِهِ وغيبتِهِ، وصِحَّتِهِ ومرضِهِ، وسائرِ أحْوَالِهِ.
- الثالثة: أن لا يُمَكِّنَها من رأسِ مالِهِ، وَلا يظهرَ لَها ولوعًا وعشقًا مفرطًا.
- الرابعة: أن يكتمَ أسرارَهُ عَنْهَا، وَلا يُطْمِعْهَا في مطاوعتِهِ إيَّاهَا، وَلا يستشيْرُها في شيء.
- الخامسة: أن لا يقتصرَ عَلَى الواحدةِ ما أمكنَ، فهو أدعى للنِّظام.
- السادسة: إذَا ابتلى بصَاحِبَةِ سوءٍ رديّةٍ فليحتَلْ في الخلاصِ مِنْهَا بأسرع ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ[2].

١- الأمالي: للقالي (٢/٢٥٦).

٢- سلوك المالك في تدبير الممالك: لابن أبي الربيع، ص ١٥٥.

وَصِيَّةُ عامر بن الظَّرِب لابنته

عامرُ بنُ الظَّرِبِ العَدْوَاني: إمامُ مُضَرَ وحَكَمُها وفارسُها وخطيبُها، كَانَ يقال لَهُ ذو الْحِلْمِ، وهو أول من قُرِعَتْ لَهُ العَصَا، لا تَعْدِل بفهمِهِ فهمًا وَلا بحكمِهِ حكمًا، فلما طَعَنَ في السِّنِّ أنكر من عقله شيئًا، فقال لبَنِيْهِ: إنَّهُ قَدْ كبرَتْ سِنِّي وعرض لي سَهْو، فإذا رأيتموني خرجْتُ من كلامي وأخذتُ في غَيْرِهِ فاقرعوا لي المِجَنَّ بالعَصَا[1].

زوّجَ عامرُ بنُ الظَّرِبِ ابنتَهُ (فعمةَ بنتَ عامر) من ابن أَخِيْه عامر بن الحارث، وقال لأمها، وهي ماوية بنت عوف، حِيْنَ أرادَ البناءَ بِهَا أن توصيها بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ.

- يا هذه، مُري ابنتَك فلا تَنْزِلنَّ فلاةً إلا ومعها ماء.
- وأن تُكْثِرَ استعمالَ الماء، فلا طيبَ أطيب مِنْهُ.
- وإنَّ الماء جُعل للأعلى جلاءً، وللأسفل نقاءً.
- وإيَّاكِ أن تِميلي إلى هواكِ ورأيِك، فَإِنَّهُ لا رأيَ للمرأةِ.
- وإياي ووصيتَك، فَإِنَّهُ لا وَصِيَّةَ لك.
- أخبِري ابنتَكِ أنَّ العِشْقَ حُلوٌ، وأنَّ الكرامةَ المؤاتاةُ [2].
- فلا تستكرهنَّ زوجَها من نَفْسِهَا، وَلا تَمْنَعْهُ عِنْدَ شهوتِهِ.
- فَإِنَّ الرِّضَا الإتيانُ عِنْدَ اللَّذَّةِ، ولا تُكْثِرْ مضاجعتَهُ، فَإِنَّ الجسدَ إِذَا مَلَّ ملَّ الْقَلْبُ.
- ومُرِيْها فلا تَمْزَحَنّ مَعَهُ بنَفْسِهِ، فَإِنَّ ذلِكَ يكونُ مِنْهُ الانقباضُ.

١- الأعلام: للزركلي. ومجمع الأمثال: للميداني (إن العصا قرعت لذي الحلم). الظَّرِبُ (بكسر الراء): كلُّ ما نَتأَ من الحجارة (لسان العرب).

٢- الْمواتيةُ: الموافقةُ، وهي صفةُ مَدْحٍ للمرأةِ، وعن قتادة أنَّ النبي داود قال: (وأربعٌ من أعطيهن فقد أعطيَ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ: لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وبدنٌ صابرٌ، وامرأةٌ موافقةٌ أو قال: مواتيةٌ) رَواهُ عبد الرَّزاقِ.

- ومُرِيْها فَلتَخبَأ سَوْءَتَهَا مِنْهُ، فَإنَّه وإن كَانَ لا بدَّ من أنْ يراها، فَإنَّ كَثْرَةَ النَّظَرِ إلَيْها استهانةٌ وخِفَّةٌ[1].

فلمَّا أُدْخِلتْ الجاريةُ عَلَيْهِ نفرتْ مِنْهُ ولَم تُرِدْهُ، فأتى الـزَّوْجُ إلى عمِّهِ فشكا إلَيْهِ. فقال لَهُ عمه: يا ابن أَخِي، إنها وإن كَانَت ابنتي، فَإنَّ لَكَ نصيبًا مِنِّي، فاصدقني، فَإنَّه لا رأي لمكذوب، فإن صدقتني صدقتك، إن كُنْت نفرتها فذعرتها، فاخفض عصاك عَنْ بكرتك تسكن، وإن كَانَت نفرت مِنْكَ من غَيْرِ إنفار، فذَلِكَ الدَّاءُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ دواءٌ، وإلاَّ يكن وماق (أي وفاق) ففراق، وأجْمَلُ القَبِيْحِ الطلاقُ، ولم نترَك أهلك ومالك، وقد خلعتها مِنْكَ بما أعطيتها، وهي فعلت ذَلِكَ بنَفْسِهَا، فزعمت علماء العَرَبِ أن هَذا أول خُلع كَانَ فِي العَرَبِ، وثبت فِي الإسلام.

قال أبو بكر بن دريد فِي أماليه: إن أول خُلع كَانَ فِي الدُّنْيَا أن عامر بن الظرب زوَّج ابنته من ابن أَخِيْه.

أمَّا أول خلع فِي الإسلام: فَقَدْ أتت امْرَأَةُ ثابتِ بنِ قيسٍ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله ﷺ، ثابت بن قيس ما أعتب عَلَيْه فِي خلق وَلا دين، ولكني أكره الكفرَ فِي الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أتردِّيْنَ عَلَيْهِ حديقتَهُ؟ قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: (اقبلْ الحديقةَ وطلِّقْها تطليقةً)[2].

١- المعمرون والوصايا، للسجستاني: ص ٦٠.

٢- رواه البخاري (فتح الباري: ٩/٣٩٥)، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه.

وَصِيَّةُ أمامةَ ابنةِ الحارثِ لابنتها

بعثَ الحارثُ بن عَمْرو الكِندي، وكَانَ من ملوكِ اليمنِ، إلى امْرأَةٍ من قومه، ذاتِ عقلٍ وبيانٍ وأدبٍ، يقالُ لَهَا عصام. فقال: إنَّهُ بَلَغَني عَنْ بنتِ عَوْفِ بنِ مُحَلم الشَّيباني جَمالٌ وكمالٌ، فاذهبي وَاعْلَمِي لي عَلَيْها، فمضتْ حَتَّى انتهتْ إلى أمِّها، وهي (أمامةُ ابنةُ الحارثِ) فأعلمتْها بما قَدَّمَتْ له. فأرْسَلَتْ أمامةُ إلى ابنتها، وقالت:

- أي بُنَيَّة: هَـذِهِ خالتُك أَتَتْكِ لتنظرَ إليْكِ، فلا تَسْتُري عَنْهَا شيئًا إن أرادتْ النَّظرَ من وجهٍ أو خَلْقٍ، وناطقيها إن استنطقتكِ.
- فدخلت إِلَيْها فنظرت إلى ما لَمْ تَرَ قَطُّ مِثْلَه، فخرجت من عِنْدَها وهي تقول: تركَ الخِداعَ من كشفَ القناع، فأرْسَلَتْها مثلا.
- ثُمَّ انطلقت إلى الحارث، فلَمَّا رآها مقبلةً قال لها: ما وَرَاءكِ يا عصامُ؟
- قالت: صَرَّحَ المَخْضُ عَنْ الزُّبْدِ، ثُمَّ وَصَفَتْها لَهُ فبعث الحارث إلى أبيها فخطبها إِلَيْهِ، فزوَّجَهُ إيَّاها، فبعثَ إِلَيْها من الصَّداقِ بمِثْلِ مهورِ نساءِ المُلوكِ، مائةَ ألفِ دِرْهَمٍ، وألفًا من الإبل.
- فلَمَّا حان أن تحمل إِلَيْهِ، دخلت أمُّها إِلَيْها لتوصيَها، فقالت لها:
- أيْ بُنَيَّة: إنَّ الوَصيَّةَ لو تُرِكَتْ لعقلٍ أو أدبٍ أو مَكْرُمةٍ أو حَسَبٍ لتركتُ ذَلِكَ مِنْكِ، ولَزَوَيْتُهُ عَنْكِ، ولكنَّ الوصيَّةَ تذكرةٌ للعاقلِ، ومَنْبَهَةٌ للغافلِ.
- أيْ بُنَيَّة: إنَّهُ لو استغنتْ المَرْأةُ عَنْ زَوْجها بغِنَى أبويْها وشدَّةِ حاجتها إِلَيْهِ لكُنْتِ أغنى النَّاسِ عَنِ الزَّوْجِ، ولَكِنْ للرِّجالِ خُلِقَ النِّساءُ كما لهنَّ خُلِقَ الرِّجالُ.
- أيْ بُنَيَّة: إنَّكِ فارقتِ الجَوَّ الَّذي مِنْهُ خَرَجْتِ، والوَكْرَ الَّذي فِيهِ دَرَجْتِ، إلى وَكْرٍ لَمْ تعرفيهِ، وقَرِيْنٍ لَمْ تألفيهِ، فأصبحِ بملكهِ عَلَيْكَ مَلِكًا، فكوني

لَهُ أمةً يكنْ لكِ عبدًا، وَاحْفَظِي عَنِّي خِصَالا عَشْرًا تكُنْ لكِ دَرَكًا وذُخْرًا.

- فأمَّا الأوْلى والثَّانيةُ: فالمعاشرةُ لَهُ بالقناعةِ، وحسنُ السَّمعِ لَهُ والطَّاعَةِ، فَإِنَّ فِي القناعةِ راحةَ القَلْبِ، وحسنُ السَّمْعِ والطَّاعَةِ رأفةُ الرَّبِّ.
- وأما الثَّالثةُ والرَّابعةُ: فلا تقعُ عيناهُ منكِ عَلَى قبيحٍ، وَلا يشمُّ أنفُهُ إلا أطيبَ ريْحٍ.
- وَاعْلَمِي أيْ بُنَيَّة أنَّ المـاءَ أطيبُ الطِّيْبِ المفقودِ، وأنَّ الكُحْلَ أحسنُ الْحَسَنِ الموجودِ.
- وأمَّـا الخامسةُ والسَّادسةُ: فالتَّعهُّدُ لوقتِ طعامِهِ، والهدوءُ عِنْدَ منامِهِ، فإنَّ حرارةَ الجوعِ مَلْهبةٌ، وتنغيصَ النَّومِ مغضبةٌ.
- وأمَّـا السَّابعةُ والثَّامنةُ: فالاحتفاظُ بمالِهِ، والرِّعايةُ عَلَى حشمِهِ وعيالِهِ، فإنَّ الاحتفاظَ بالمالِ من حُسْنِ التَّقديرِ، والرِّعايةَ عَلَى الحَشَمِ والعيالِ من حُسْنِ التَّدبيْرِ.
- وأمَّـا التَّاسعةُ والعاشرةُ: فلا تفشي لَهُ سرًّا، وَلا تعصي لَهُ أمرًا، فَإنَّك إن أفشيتِ سِرَّهُ لَمْ تأمني غَدْرَهُ، وإن عصيتِ أمرَه أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ، واتَّقي الفرحَ لديه إن كَانَ تَرِحًا، والاكتئاب إِذَا كَانَ فرحًا، فَإنَّ الأولى من التَّقْصِيْرِ، والثَّانيةُ من التَّكديْرِ.
- وَاعْلَمِي أنَّكِ لَنْ تَصِلِي إلى ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى تُؤْثري هـوَاهُ عَلَى هَواكِ، ورِضَاهُ عَلَى رِضاكِ فيما أَحْبَبْتِ أو كَرِهْتِ، واللّه يَخِيْرُ لك بِخِيْرَتِهِ، ويصنعُ لك برحْمَتِهِ.
- فلمَّا حُملَتْ إِلَيْهِ، عَظُمَتْ موقِعُهَا مِنْهُ، وغَلَبَتْ عَلَى أَمْرِهِ، وَوَلَدَتْ لَهُ المُلُوكَ السَّبْعَةَ الذينَ مَلَكوا بَعْدَهُ اليمنَ[1].

١- مجمع الأمثال: لأبي الفضل، أحمد بن محمد النيسابوري الميداني.

وَصِيَّةُ أبي جفنة بالتحذير من المرأةِ السَّوء

نافرَ أبو جَفْنَةَ امرأته أمّ عَقَارٍ يَوْمًا فقالَ -وهوَ مُغَاضِبٌ لها-:

- إِذَا كُنْتَ ناكحًا، فإيَّاكَ وكلَّ مُجْفِرَةٍ مُبْخِرَةٍ[1].
- مُنْتَفِخَةِ الوريدِ، كلامُها وَعِيْدٌ، وبصرُها حديدٌ (الوريد: كل عرقٍ ينبضُ ينتفخ لفرط الغضب).
- سَفْعاءُ، فَوْهاءُ، مَلِيْلَةُ الإرْغاءِ، دائمةُ الدُّعاءِ[2].
- فَقْمَاءُ سَلْفَعُ، لا تُرْوِيْ وَلا تُشْبِعُ (فَقْماءُ: مائلةُ الحنَكِ. وسَلْفَعٌ: بَذيَّةٌ فَحَّاشةٌ).
- دائمةُ القُطُوْبِ، عَارِيةُ الظُّنْبُوْبِ، طَوِيْلَةُ العُرْقُوْبِ[3].
- حَدِيْدةُ الرُّكْبةِ، سَرِيْعةُ الوَثْبَةِ (ورُوِيَ قصيرةُ الرَّقَبَةِ).
- شَرُّها يَفِيْضُ وخَيْرُهَا يَغِيْضُ.
- فُضُلٌ مِئْناثٌ، كأنَّها بَغَاثٌ (البَغَاثُ طائرٌ أَبيض، بطيءُ الطيرانِ).
- لا ذاتِ رَحِمٍ قريبةٍ وَلا غريبةٍ نجيبةٍ، إمساكُها مُصِيْبَةٌ وطلاقُها حريبةٌ.
- واغِرَةُ الضَّمِيْرِ، عاليةُ الهَرِيْرِ (الوَغْرُ: احتراق الغيظ).
- شَثْنَةُ الكفِّ، غليظةُ الخُفِّ. لا تعْذُرُ من عِلَّةٍ، وَلا تأوي من قِلَّةٍ، تأكلُ لَمًّا، وتُوْسِعُ ذَمًّا. تؤدِّيْ الأخبارَ، وتُفْشِيَ الأسرارَ، وهي من أهلِ النَّارِ[4].

١- مُجْفِرَة: أي مُتَغَيِّرة ريح الْجَسدمُبْخِرَةً: ذات بَخَر (الرَّائحةُ المتغيِّرةُ من الفم).

٢- السَّفَعُ: سُفْعَةُ سَوادٍ وشُحوب في الخدَّيْن من المرأة الشاحبَة. وامرأةٌ فَوْهاءُ شَوْهَاءُ: واسعةُ الفم قبيحتُه. (مَلِيْلَةُ الإرْغاءِ): أيْ مَمْلولةُ الصَّوتِ يَصفُها بكثرة الكلام ورَفْع الصَّوت حتى تُمِلَّ السَّامعين، من إرغاءِ اللَّبَن، أومن الرُّغَاء. وروي (مَلِيْلَةُ الإزباد) يرادُ به إزْبادُ شَفَتيها لكثرة كلامها. ورُوِيَ (بَلِيْلَةُ الإرْعاد): من بَلِّ اللِّسان، والإرْعادُ: التَّهْديدُ. ورُوِيَ (قليلةُ الارْعِواءِ): أيْ لا تكفُّ عنْ شَئٍ ولا تَرْتَدِعُ.

٣- القُطوبُ: تَزَوِّي ما بين العينين عند العُبوس. عارية الظُّنْبوب: هوحَرْفُ العظم اليابسُ من السَّاقِ أي عَرِيَ عَظْمُ ساقِها من اللَّحْم لهُزالها. والعُرْقُوب: العَصَبُ الغليظُ، المُوَتَّرُ، فوق عَقِبِ الإنسان.

٤- بلاغات النساء: أحمد بن طيفور الخراساني، والفائق في غريب الحديث: للزَّمَخْشَري.

وصية مروان بن زِنْباعٍ العبسي بالتحذير من التزويج في بيوتات السوء

قالَ مروانُ بنُ زِنْباعٍ العَبْسيُّ (وهو مروانُ القَرَظُ): يا بني عَبْسٍ، احفظوا عَنِّي ثلاثًا:

- اعلموا أنه لَم ينقلْ أحدٌ إليكم حديثًا إلا نقلَ عنكم مثلَهُ.
- وإيَّاكمْ والتَّزويجَ في بيوتاتِ السُّوءِ؛ فإن له يومًا ناجثًا[1].
- واستكثروا من الصَّديقِ ما قَدَرْتُمْ، واستقلّوا من العَدوِّ، فإنَّ استكثارَهُ مُمْكِنٌ[2].

وصية نساء العرب بناتهن باختبار الأزواج

وكانتْ نساءُ العربِ تعَلِّمْنَ بناتَهنَّ اختبارَ الأزواجِ، فكانتْ المرأةُ تقولُ لابنتها:

- اخْتَبِري زَوْجَكِ قَبْلِ الإقْدامِ والجُرْأةِ عَلَيْهِ.
- انْزِعِي زُجَّ رُمْحِهِ (زُجُّ الرُّمْحِ: الحديدةُ التي تَرْكَبُ سافِلَةَ الرُّمْحِ).
- فإنْ سَكَتَ فقطِّعي اللَّحْمَ على تُرْسِهِ.
- فإنْ سَكَتَ فكسِّري العِظامَ بسيْفِهِ.
- فإنْ سَكَتَ فاجْعَلِي الإكافَ على ظَهْرِهِ وامْتَطِيْهِ، فإنَّما هُوَ حِمَارُكِ[3].

١- النَجيثَةُ: ما أخرجَ من تراب البئر، مثل النَبيثَة. ونَجيثَةُ الخبر: ما ظهر من قبيحه.

٢- الأمالي: للقالي (٢/١٨٧) وفي المثل: (أعزُّ من مروان القرظ).

٣- نَثْرُ الدُّرّ: لمنصور بن الحُسين الآبي، دار الكتب العلمية - لبنان (٦/٢٥٠).

وصايا الآباء ليلة الهداء

الهَديُّ والهدّية: العروس، يقال هَدَى العروس إلى بعلها هِداءً، وهي مَهْديّة، وهذه مجموعة من الكلمات التي أوصى بها بعض الآباء أبناءهم ليلة الدخول.

- قال الفرافصة الكلبيّ لابنته حين جهّزها إلى عثمان رضي الله عنه:
- يا بنيّة، إنك تقدمين على نساء قريشٍ، وهنّ أقدر على الطّيب منك، فلا تغلبي على خصلتين: الكحل والماء، تطهّري حتى يكون ريحك ريح شنّ أصابَهَ المطر[١]. (الشَّنُّ والشَّنَّةُ: الخَلَقُ من كل آنية صُنِعَتْ من جلد، وجمعها شِنَانٌ).
- وكان الزّبرقان بن بدر إذا زوّج ابنةً له دنا من خدرها وقال:
- أتسمعين؟ لا أعرّفنّ ما طلبتِ، كوني له أمةً يكن لك عبدًا[٢].
- أوصى أبو الأسود الدؤلي ابنته ليلة البناء بها فقال[٣]:
- يا بُنَيَّة: كان النساء أحق بأدبك مني، ولكن لا بد لي منه.
- يا بُنَيَّة: إن أطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الدُّهن، وأحلى الحلاوة الكُحل.
- يا بُنَيَّة: لا تُكثري مباشرةَ زوجِكِ فَيَمَلَّكِ، ولا تَبَاعدي عنه فيجفوَكِ، ويعتلَّ عليك، وكوني كما قلتُ لأمّك:

خُذي العفو منِّي تستديمي موَّدتي ولا تنطقي في سَوْرتي حين أَغضبُ

١- عيون الأخبار: لابن قتيبة – وصايا الأولياء للنساء عند الهداء.

٢- المرجع السابق

٣- أبو الأسودِ الدُّؤلي: ظالَم بن عمرو الكناني، كان معدودًا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء، والفرسان والحاضري الجواب، من التّابعين، ولي البصرة أيام عليٍّ رضي الله عنه، ولما تمَّ الأمرُ لمعاويةَ قصده فبالغ معاوية في إكرامه.

فإنِّي رأَيتَ الحبَّ في الصَّدر والأذى   إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ[1].

- أوصتْ أعرابيَّةٌ من عبدِ القيسِ ابنتها عند هدائها فقالت:

لا تُهْجِري في القولِ للبَعْلِ ولا   تُغرِيْهِ بالشَّرِّ إذا ما أقبلا

فأوّلُ الشَّرِّ يكونُ جَللا   مُحتَقَرًا ثم يصيْرُ مُعْضِلا

ولا تَنُثِّي ما عليه بَخِلا   لتكشفي من أمْرِهِ ما جَمُلا

الهُجْرُ: القبيح من الكلام والفُحش في المنطق والخنا.

لا تنثي: لا تفشي ولا تنشري خبره.

- أنكحَ ضِرارُ بنُ عمروٍ الضبيُّ ابنتَهُ من معبد بن زرارة، فلما أخرجها إليه قال: يا بُنَيَّة: أمْسِكي عليكِ الفَضْلَيْنِ: فَضْلَ الغُلمةِ، وفَضْلَ الكلامِ[2].

وصية بإكرام الزوجة

قالَ عثمانُ بنُ عنبسةَ ابنِ أبي سفيانَ: أرسَلني أبي إلى عمي لأخطبَ إليهِ ابنَتَهُ، فأقعَدَني جَنْبَهُ وقالَ: مَرْحَبًا بابْنٍ لَم ألِدْهُ، أقربَ قريبٍ، خطبَ إليَّ أحبَّ حبيبٍ، لا أستطيعُ لَهُ رَدًّا، ولا أجِدُ من تشفيعِهِ بُدًّا، قد زوجتُكُما وأنتَ أعزُّ عليَّ منها، وهيَ أنْوَطُ بقلبي.

- فأكرِمْها يعذُبْ على لساني ذكرُكَ، ولا تُهِنْهَا فَيَصْغُرَ عندي قَدْرُكَ.
- وقد قرَّبْتُكَ مع قُرْبِكَ، فلا تباعدْ قلبي من قلبِكَ[3].

١- المعمرون والوصايا: لأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٠ هـ)، ص ١٤٧.

٢- نَثْرُ الدُّرّ: لمنصور بن الحُسين الآبي، دار الكتب العلمية – لبنان، (٦/٢٤٦).

٣- محاضرات الأدباء: الراغب الأصفهاني.



الفصل الخامس

وصايا في السِّيَاسَةِ وتدبير الملك

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ رضي الله عنه لبعض قواده

كَانَ سيِّدُنا أبو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ رضي الله عنه أحَدَ أعاظم العَرَبِ، وكَانَت العَرَبُ تلقبه بعالم قريش، وكَانَ موصوفًا بالْحِلْم والرَّأفة بالْعَامَّةِ، وكَانَ خطيبًا لَسِنًا، شجاعًا بطلا، افتتحت في أيامِهِ بلادُ الشَّام، وقسمٌ كبيْرٌ من العراق، واتَّفقَ لَهُ قوَّادٌ أمناءُ، كخالدِ بن الوَلِيْدِ، وعَمْرِو بن العاص، وأبو عبيدةَ بن الجراحِ، والعلاءِ بن الحضرميِّ، ويزيدِ بن أبي سُفْيَانَ، والمثنى بن حارثة[1].

ركبَ يزيدُ بنُ أبي سُفْيَانَ[2]، وربيعةُ بن عامرٍ، وأقبلا بقومهما إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه فأقبلَ يمشي مَعَ القوم، فقالَ يزيدُ: يا خليفةَ رسولِ الله، الناجي من غضبِ الله من رضيتَ عَنْهُ، لا نكُنْ عَلَى ظهورِ خيولنا، وأنتَ تمشي، فإما أن تركبَ وإما أن ننزلَ. فقال: ما أنا براكبٍ وما أَنْتُمْ بنازلِيْنَ، وسارَ إلى أن وصلَ إلى ثنيَّةِ الوداعِ فوقف هناك، فتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يزيد فقال: يا خليفةَ رسول اللهِ أوصِنَا، فقال:

- إِذَا سِرْتَ فلا تُضَيِّقْ عَلَى نَفْسِكَ وَلا عَلَى أصْحَابِكَ في مَسِيْرِكَ، وَلا تغضب عَلَى قَوْمِكِ، وَلا عَلَى أصْحَابِكَ، وشاورْهُم في الأَمْرِ، واستعملْ الْعَمَلَ، وباعدْ عَنكَ الظُّلْمَ والْجَوْرَ؛ فَإنَّه لا أفلحَ قومٌ ظلموا، وَلا نُصِروا عَلَى عدوِّهم، وإِذَا لقيتم القومَ فلا تولُّوهُمُ الأدبارَ ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3].

١- كانت فتوح الشام سنة ١٣هـ حيث وجه أبو بكر الجنود إلى الشام بعد عوده من الحج، وأمّر يزيد بن أبي سفيان على جيش عظيم، وشيَّعه ماشيًا، وأوصاه.

٢- يزيد بن أبي سفيان، أخو معاوية من أبيه، ويقال له يزيد الخير، كان من العقلاء الألبّاء، والشجعان المذكورين، وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، توفي بالطاعون سنة ١٨ هـ (سير أعلام النبلاء: للذهبي).

٣- سورة الأنفال: الآيتان ١٥- ١٦.

- وإِذَا نُصِرْتُم عَلَى عدوِّكم فلا تَقْتُلُوا ولدًا وَلا شَيْخًا وَلا امْرَأَةً وَلا طفلا. ولا تَعْقِرُوا بَهِيمةً إلا بَهيمةَ المأكولِ. ولا تَغْدِروا إِذَا عَاهَدْتُم، وَلا تنقُضُوا إِذَا صَالحتُم.
- وستمرُّونَ عَلَى قوم فِي الصَّوامِع رُهبانًا يزعمونَ أنَّهم ترقَّبوا فِي اللّهِ، فدَعُوهم وَلا تَهدِموا صوامِعَهم[1].
- قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر.

وصية أبي بكر ليزيد

ومن وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان قوله:

- إني قد ولّيتكُ لأبلوَك وأجرّبك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك.
- فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربًا إليه بعمله.
- وقد وليتك عمل خالد فإياك وعبيّة الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها.
- وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا.
- وأصلح نفسك يصلح لك الناس.
- وصلِّ الصَّلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشُّع فيها.
- وإذا قدم عليك رُسُل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من

١- فتوح الشام: للواقدي.

عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينّهم فَيَروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم.

- ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك.
- وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك.
- واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار.
- وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحقِّ، ولا تلجنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تخذلها مدفعًا.
- ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتفِ بعلانيتهم.
- ولا تجالس العابثين، وجالس أهل الصّدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس.
- واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له[1].

١- الكامل في التاريخ: لابن الأيثرَ.

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للجند

اتسعت الفتوحاتُ أيام سَيِّدِنَا عمرَ بنِ الخَطَّابِ، حَيْثُ تَمَّ فِي أيامِهِ فتحُ الشَّام، والعراقِ، والقدسِ، والمدائِنِ، ومصرَ، والجزيرةِ، حَتَّى قيل: انتصبَ فِي مُدَّتِهِ اثنا عَشَرَ ألف منبر فِي الإسلام.

كَتَبَ سيدُنا عمرُ بنُ الخَطَّابِ إلى سعدِ ابنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ومن مَعَهُ من الأجناد فقال:

- أمَّـا بَعْدُ: فَإِنِّي آمُرُكَ ومن معكَ من الأجنادِ بِتَقْوَى اللّهِ عَلَى كُلِّ حالٍ، فَإِنَّ تقوى اللّهِ أفضلُ العُدَّةِ عَلَى العدوِّ، وأقوى المكيدةِ فِي الحَرْبِ.
- وآمُـرُكَ ومن معك أَنْ تَكُونُوا أشدَّ احتراسًا من المعاصي مِنْكُمْ من عدوِّكم، فَـإِنَّ ذنـوبَ الجيشِ أخـوفُ عَلَيْهِم من عدوِّنا، وإِنَّمَـا يُنْصَـرُ المُسْلِمَونَ بمعصيةِ عدوِّهم للّهِ، ولولا ذَلِكَ لَمْ تكُنْ لنا بِهِمْ قُـوَّةٌ، لأَنَّ عَدَدَهُم لَيْسَ كعدوهم، وَلا عدُّتنا كعدَّتِهم فإنْ استوينا فِي المَعْصِيَةِ كَانَ لَهُمْ الفَضْلُ علينا فِي القُوَّةِ، وإلا ننصر عَلَيْهِم بفضلنا لَمْ نغلبهم بقوتنا.
- وَاعْلَمُوا أن عَلَيْكُمْ فِي مسيرتكم حفظةً من اللّهِ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ، فاستحيوا مِنْهُم وَلا تَعْمَلُوا بمعاصي اللّه وأَنتُمْ فِي سبيلِ اللّه، وَلا تقولوا إن عدوَّنا شرٌّ منَّا فلن يسلَّطَ علينا وإن أسأنا، فربَّ قوم قَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِم شَرٌّ مِنْهُم كما سلّطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَمَّا عملوا بمساخطِ اللّه، كفَّارَ المجوسِ ﴿ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدًا مَّفۡعُولًا ﴾ [1].
- واسألوا اللّه العونَ عَلَى أَنفُسِكُمْ كما تسألونَهُ النَّصرَ عَلَى عدوكم.
- وترفَّقْ بالمُسْلِمِيْنَ فِي مسيرِهم، وَلا تُجشمْهُم مسيرًا يتعبُهم، وَلا تقصر بِهِمْ عَنْ مَنْـزِلٍ يرفقُ بهم، حَتَّى يَبْلُغُوا عدوَّهم والسَّفَرُ لَمْ يُنقِصْ قوَّتَهم، فَإِنَّهم سائرونَ إلى عدوٍّ مقيمٍ حامي الأنفسَ والكُراعَ [2].

١- سورة الإسراء: ٥.

٢- الكُراعُ: اسم يجمع الخيل والسلاح.

- وأقمْ بِمَنْ معكَ في كُلِّ جمعةٍ يَوْمًا وليلةً حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ راحةٌ يُحيونَ فِيهَا أنفسَهم ويَرْمُونَ أسلحتَهم وأمتعتَهم.
- ونحِّ منازِلَهم عَنْ قُرى أهلِ الصُّلحِ والذِّمَّةِ فلا يدخُلها من أصْحَابِكَ إلا من تثقُ بدِيْنِه.
- وَلا يرزأ أحدًا من أهلها شيئًا، فَإِنَّ لَهُمْ حُرمةً وذمَّةً ابتليتم بالوفاءِ بِهَا كما ابتلوا بالصَّبْرِ عَلَيْها، فما صبروا لَكُمْ فتولوهم جبرًا.
- ولا تستنصروا عَلَى أهلِ الحَرْبِ بظلم أهلِ الصُّلحِ.
- وإِذَا وطئتَ أرضَ العدوِّ فأَذْكِ العيونَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ وَلا يَخْفَ عَلَيْكَ أمْرُهُم.
- وليكُنْ عِنْدَك من العَرَبِ أو أهلِ الأَرْضِ من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فَإِنَّ الكذوبَ لا يَنفعُكَ خَبَرُهُ وإن صدقَكَ في بعضِه، والغاشُّ عينٌ عَلَيْكَ ولَيْسَ عينًا لك.
- وليكُنْ مِنْكَ عِنْدَ دُنُوِّكَ من أرضِ العدوِّ أَنْ تُكْثِرَ الطَّلائعَ وتَبُثَّ السَّرايا بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ، فتقطعَ السَّرايا إمدادَهم ومرافِقَهم، وتَتَّبِعُ الطَّلائعُ، عَوْرَاتِهِمْ، وانْتَقِ للطلائع أهلَ الرَّأيِ والبأسِ من أصْحَابِكِ، وتَخيَّرْ لَهُمْ سوابقَ الخيلِ، فإنْ لَقُوا عدوًّا كَانَ أوَّلَ ما تلقاهُمْ القُوَّةُ من رَأيِك، وَاجْعَلْ أمْرَ السَّرايا إلى أهلِ الجهادِ والصَّبْرِ عَلَى الجلادِ، وَلا تَخُصَّ بِهَا أحدًا بهوى، فيضيعَ من رَأيِكَ وأمرِك أكثرُ مِمَّا حابيت بِهِ أهل خاصَّتِكَ، وَلا تبعثَنَّ طليعةً وَلا سريَّةً في وجهٍ تتخوَّفُ عَلَيْها فِيهِ غلبةٍ، أو ضيعةٍ ونكايةٍ، فإِذَا عاينتَ العدوَّ فاضمم إِلَيْكَ أقاصيك، وطلائعَكَ وسراياك، واجمع إِلَيْكَ مكيدتك وقوتك، ثُمَّ لا تُعاجلْهم المناجزةَ ما لَمْ يستكرِهْكَ قتالٌ، حَتَّى تُبْصِرَ عورةَ عدوِّكَ ومَقَاتِلَهُ.
- وتعرَّفِ الأَرْضَ كلَّها كَمَعْرِفَةِ أهلها بها، فتصنعَ بعدوك كصُنْعِهِ بكَ، ثُمَّ إِذْكِ حُرَّاسك عَلَى عسكرك، وتيقَّظْ من البيات جهدك.

- ولا تـأتِ بأسيرٍ لَـهُ عقدٌ إلا ضربتَ عنقَهُ، لترهبَ بذَلِكَ عـدوَّ اللّهِ وعدوَّك، واللّه وليُّ أمرِكَ ومن معك، ووليُّ النصرِ لَكُمْ عَلَى عدوِّكم، واللّه المستعان[1].

وكانَ إِذَا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بِتَقْوَى اللهِ، ثُمَّ قال عِنْدَ عقد الألوية:

- بسم الله، وعلى عون الله، وامضوا بتأييد الله بالنصر ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[2].
- وبلـزُوْم الْحَـقِّ والصَّبْرِ ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[3].
- ولا تَجْبُنُوا عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلا تُمَثِّلوا عِنْدَ القُدرةِ، وَلا تُسْرِفُوا عِنْدَ الظُّهورِ.
- ولا تَقْتُلُواْ هَـرِمًا، وَلا امْرَأَةً، وَلا وليدًا.
- وتوقَّوا قتلهم إِذَا التقى الزحفان، وعِنْدَ حُمة النهضات، وفي شنِّ الغارات.
- ولا تغلُّوا عِنْدَ الغنـائم.
- ونزِّهوا الجهاد عَنْ عَرَضِ الدُّنْيَا.
- وَأَبْشِرُواْ بالرَّبَاحِ بالبَيْعِ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[4].

(الرَّباحُ: النَّماء في التَّجْر، والعربُ تقول للرجل إِذا دخل في التجارة: بالرَّباح والسَّماح).

١- العقد: لابن عبد ربه.

٢- سورة آل عمران: ١٢٦.

٣- سورة البقرة: ١٩٠.

٤- عيون الأخبار: لابن قتيبة. والعقد: لا بن عبد ربه.

عهد سيدنا علي رضي الله عنه
إلى مَالِك بن الحَارِثِ الأشتر النَّخَعِيّ

قال القلقشندي: ولم أرَ فيما طالعته من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشمل من عهدٍ كتبه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاّه مصر، فأحببت أن أورده على طوله، وآتي على جملته وتفصيله؛ لأن مثل هذا العهد لا يهمل، وسبيل فضله لا يجهل.

مَالِكُ بنُ الحَارِثِ النَّخَعِيّ: أَحَدُ الأَشْرَافِ وَالأَبْطَالِ المَذْكُوْرِيْنَ، كَانَ شَهْمًا، مُطَاعًا، زَعِرًا[1]، أَلَّبَ عَلَى عُثْمَانَ، وَقَاتَلَهُ، وَكَانَ ذَا فَصَاحَةٍ وَبَلاَغَةٍ، شَهِدَ صِفِّيْنَ مَعَ عَلِيٍّ، وَتَمَيَّزَ يَوْمَئِذٍ، وَكَادَ أَنْ يَهْزِمَ مُعَاوِيَةَ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ عَلِيٍّ لَمَّا رَأَوْا مُصْحَفَ جُنْدِ الشَّامِ عَلَى الأَسِنَّةِ يَدْعُوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ، وَمَا أَمْكَنَهُ مُخَالَفَةُ عَلِيٍّ، فَكَفَّ.

وَلَمَّا رَجَعَ عَلِيٌّ مِنْ مَوْقِعَةِ صِفِّيْنَ جَهَّزَ الأَشْتَرَ وَالِيًا عَلَى دِيَارِ مِصْرَ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيْقِ مَسْمُوْمًا، فَقِيْلَ: إِنَّ عَبْدًا لِعُثْمَانَ عَارَضَهُ، فَسَمَّ لَهُ عَسَلا.

وَقَدْ كَانَ عَلِيٌّ يَتَبَرَّمُ بِهِ، لأَنَّهُ صَعْبُ المِرَاسِ، فَلَمَّا بَلَغَهُ نَعْيُهُ، قَالَ: إِنَّا للّهِ، مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ! وَهَلْ مَوْجُوْدٌ مِثْلُ ذَلِكَ؟! لَوْ كَانَ حَدِيْدًا لَكَانَ قَيْدًا، وَلَوْ كَانَ حَجَرًا لَكَانَ صَلْدًا، عَلَى مِثْلِهِ فَلْتَبْكِ البَوَاكِي[2].

نص العهد:

- هذا ما أمرَ به عبدُ الله؛ عليّ أمير المؤمنين، إلى مَالِكِ بنِ الحَارِثِ الأشتر، في عهدِهِ إليه حين ولاّه مصر؛ جباية خَراجِها، وجهادَ عدوِّها، واستصلاحَ أهلِها، وعمارةَ بلادِها.
- أمَرَهُ بتقوى اللهِ، وإيثارِ طاعتِهِ، واتِّباعِ ما أمرَهُ به في كتابِهِ، من فرائضِهِ وسننِهِ التي لا يسعَدُ أحدٌ إلا باتباعها، ولا يشقى إلا بالعدولِ عنها.

١- الزَّعارَّةُ: شراسة في خلق الرجل؛ لا يكاد ينقاد ولا يلينُ.

٢- سير أعلام النبلاء للذهبي.

- وأن يَنْصُرَ اللّه تعالى بيده وقلبه ولسانه، فإنه جلّ اسمه قد تكفل بنصر مَنْ نصره وإعزازِ مَنْ أعزَّه.

- وأمره أن يكسر نفسه عند الشَّهوات، ويَزَعُها عند الجَمَحات، فإن النفس لأمارةٌ بالسُّوءِ[1].

- ثم اعلم يا مالك، أني قد وجَّهتُكَ إلى بلادٍ قد جَرَتْ عليها دُوَلٌ من قبلك من عدلٍ وجَوْرٍ، وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظرُ فيه من أمرِ الولاةِ قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم.

- وإنما يُستَدَلُّ على الصَّالحينَ بما يُجري اللّهُ لهم على ألسُنِ عبادهِ، فليكنْ أحبَّ الذخائرِ إليك ذخيرةُ العملِ الصالحِ.

- فاملُكْ هـواكَ، وشُحَّ بنفسك عما لا يَحِلُّ لك؛ فإن الشُّحَّ بالنفسِ الإنصافُ منها فيما أحبَّتْ أو كرِهَتْ.

- وأشْعِرْ قلبَكَ الرَّحمةَ للرَّعيةِ، والمحبةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تكوننّ عليهم سَبُعًا ضاريًا تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إما أخٌ في الدين، وإما نظيرٌ لك في الخلق، يَفْرُطُ منهم الزَّللُ[2] وتعرِضُ لهم العِلَلُ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ؛ فأعطهم من صفحِك وعفوِك مثلَ الذي تحب أن يعطيك اللّه من عفوه وصفحه، فإنك فوقَهم، ووالي الأمر عليك فوقك، واللّه فوق مَنْ ولاّك، وقد استكفاك أمرَهم وابتلاك بهم، فلا تُنَصِبَنَّ نفسَكَ لحربِ اللّه، فإنه لا قوة لك بنقمته، ولا غنى بك من عفوه ورحمته.

- ولا تَنْدَمَنّ على عفْوٍ، ولا تبجحنّ بعقوبة، ولا تُسرعنّ إلى بادرة وجدت منها مندوحةً، ولا تقولنّ: مؤمّر آمر فأطاع؛ فإن ذلك إدغالٌ في القلبِ،

١- فلان جَموح وجامح: أي راكب لهواه.

٢- فَرَطَ في الأمْرِ يَفْرُطُ فَرْطًا: قصَّرَ به.

ومنهكةٌ للدين، وتقرُّبٌ من الغِيَرِ[1].

- فإذا أحدثَ لكَ ما أنتَ فيه مِنْ سلطانك أبّهةً أو مخيلةً، فانظر إلى عِظَمِ ملك اللّه تعالى فوقك، وقدرته مِنْكَ على ما لا تقدر عليه مِنْ نفسك، فإن ذلك يطامن إليك مِنْ طِماحك، ويكفّ عنك مِنْ غربك، ويفيءُ إليك بما عزُبَ عنك مِنْ عقلك[2].

- وإياك ومساماةَ اللّه في عظمته، والتشبُّهَ به في جبروته، فإن اللّه يذّل كل جبّار، ويُهينُ كلَّ مختال[3].

- أنصفِ اللّهَ، وأنصفِ الناسَ مِنْ نفسك، ومِنْ خاصّة أهلك، وممن لك فيه هوىً مِنْ رعيتك، فإنك إلاّ تفعل تظلم، ومن ظلم عبادَ اللّه كان خصمَه دون عباده، ومَنْ خاصمه اللّه أدحضَ حجَّتَهُ، وكان للّه حربًا حتى ينـزعَ ويتوبَ.

- وليس شيءٌ أدعى إلى تغييّرِ نعمةِ اللّه، وتعجيلِ نقمتِهِ مِنْ إقامةٍ على ظلم، فإن اللّه سميعٌ دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

- وليكن أحبَّ الأمورِ إليك أوسطُها في الحقِّ، وأعمُّها في العدلِ، وأجمعَها لرضا الرعية فإنَّ سخطَ العامة يُجحِفُ برضا الخاصَّةِ، وإن سخط الخاصة يُغْتَفَرُ برضا العامَّةِ.

- وليس أحدٌ مِنَ الرعية أثقلَ على الوالي مؤنةً في الرخاء، وأقلَّ معونةً في البلاء، وأكرَهَ للإنصاف، وأسألَ بالإلحاف، وأقلَّ شكرًا عند العطاء، وأبطأَ عذرًا عند المنع، وأضعفَ صبرًا عند ملمات الدهرِ مِنْ أهل الخاصة، وإن عمودَ الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة؛ فليكن صَغْوُكَ لهم ومَيْلُكَ معهم.

١- إدغالٌ في القلب: أي فساد.

٢- يطامن إليك: أي يوطئ. مِنْ طِماحك: أي من جماحك. غرَب يغرُب: تنحّى.

٣- سَامَاهُ مُساماةً: فاخَرَهُ.

- وليكن أبعدُ رعيتك منك، وأشنؤُهم عندَك أطلبَهم لعيوب الناس، فإن في الناس عيوبًا الوالي أحقّ بسترها، فلا تكشفنّ عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، واللّه حكمٌ على ما غابَ عنك منها.
- فاسترِ العورةَ ما استطعتَ، يستر اللّه ما تحبُّ سِتْرَهُ مِنْ عيبك.
- أطلقْ عن الناسِ عقدةَ كلِّ حقدٍ، واقطع عنهم سببَ كل وتر، وَتَغَابَ عن كل ما لا يصلحُ لك.
- ولا تعجلنّ إلى تصديقِ ساعٍ، فإنَّ الساعيَ غاشٌّ؛ وإن تشبَّهَ بالنَّاصحينَ.
- ولا تُدخلنّ في مشورتك بخيلا؛ فيعدلَ عن الفضلِ، ويعدك الفقر، ولا جبانًا فيضعفك عن الأمور، ولا حريصًا فيزين لك الشَّرَهَ بالجور؛ فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتّى، يجمعها سوء الظن باللّه.
- واعلم أن شرَّ وزرائِك مَنْ كان للأشرارِ قبلَك وزيرًا، ومَنْ شركهم في الآثام، فلا يكوننّ لك بطانةً، فإنهم أعوانُ الأَثَمَةِ، وإخوانُ الظّلمةِ، وأنتَ واجدٌ منهم خيْرَ الخلف مِمَّنْ له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمه ولا آثمًا على إثمه، أولئك أخف عليك مؤنةً وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفًا وأقلّ لغيرك إلفًا، فاتخذْ أولئكَ خاصَّةً لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم للحق وأقلّهم مساعدةً فيما يكون منك مما كره اللّه تعالى لأوليائه واقعًا مِنْ هواك حيث وقع.
- ثم رضّهم على ألاّ يطروك، ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني إلى العزة.
- ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ واحدةٍ؛ فإن في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه.

- واعلمْ أنه ليسَ شيءٌ أدعى إلى حُسْنِ ظنّ والٍ برعيته مِنْ إحسانه إليهم، وتخفيف المؤنات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلَهُمْ.

- وليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمعُ لك به حُسْنُ الظَّنِّ برعيتك، فإنَّ حُسْنَ الظنِّ يقطعُ عنك نصبًا طويلا.

- وإن أحقَّ مَنْ حَسُنَ ظنك به مَنْ حَسُنَ بلاؤُك عنده، وإن أحق مَنْ ساء ظنك به لمَنْ ساء بلاؤُك عندَهُ.

- ولا تَنْقضْ سنَّةً صالحةً عَمِل بها صدورُ هذه الأمة، واجتمعتْ بها الألفةُ، وصلُحتْ عليها الرعيةُ، ولا تُحْدِثنَّ سنةً تضرُّ بشيء مِنْ ماضي تلك السنن، فيكون الأجر لمن سنَّها، والوزرُ عليك بما نقضتَ منها.

- وأكثِرْ مدارسةَ العلماء، ومناقشةَ الحكماء، في تثبيتِ ما صلُحَ عليه أمرُ بلادِك، وإقامةُ ما استقامَ به الناسُ قبلك.

- واعلم أن الرعيةَ طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غِنَى ببعضها عن بعض، فمنها جنودُ الله، ومنها كتّابُ العامةِ والخاصةِ، ومنها قضاةُ العدل، ومنها عُمَّالُ الإنصافِ والرفقِ، ومنها أهلُ الجزيةِ والخَراجِ مِنْ أهلِ الذِّمةِ ومُسلِمةِ الناس، ومنها التُّجارُ وأهلُ الصناعات، ومنها الطبقةُ السُّفلى مِنْ ذوي الحاجةِ والمسكنةِ، وكلٌّ قد سمّى اللّه سهمَهُ، ووضعَ على حدّه فريضتَهُ في كتابِهِ وسنةِ نبيِّهِ ﷺ عهدًا منه محفوظًا.

- فالجنودُ بإذنِ الله حصونُ الرّعية، وزينُ الولاة، وعزُّ الدين، وسبلُ الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوامَ للجنودِ إلا بما يُخرجُ اللّه لهم مِنَ الخَراجِ الذي يقوون به في جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون مِنْ وراء حاجتهم.

- ثم لا قوامَ لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث؛ مِنَ القضاة، والعُمَّال،

والكُتَّابِ، لما يحكمون مِنَ المعاقد، ويجمعون من المنافع، ويُؤتَمنون عليه من خواصِّ الأمور وعوامِّها.

- ولا قوامَ لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات، فيما يجتمعون عليه مِنْ مرافقهم، ويقومون به في أسواقهم، ويكفونهم مِنَ الرفقِ بأيديهم ما لا يبلغُهُ رِفْقُ غيرِهم.
- ثم الطبقةُ السُّفلى مِنْ أهلِ الحاجة والمسكنة، الذين يحقُّ رفدهم ومعونتهم، وفي الله لكلٍ سعةٌ، ولكلٍ على الوالي حقٌ بقَدْرِ ما يصلِحُهُ.
- وليس يَخْرُجُ الوالي مِنْ حقيقةِ ما ألزمَهُ اللهُ مِنْ ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطينِ نفسِهِ على لزومِ الحقِّ والصبْرِ عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ.
- فولِّ مِنْ جُنودِكَ أنصَحَهم في نفسِكَ للهِ تعالى ولرسولِهِ ولإمامِكَ، وأنقاهم جيبًا، وأفضلَهم حِلمًا، ممن يُبْطئ عن الغضبِ، ويستريحُ إلى العُذرِ، ويَرْفُقُ بالضعفاءِ، وينبو عن الأقوياءِ، وممن لا يثيره العنف، ولا يَقْعُدُ به الضَّعفُ.
- ثم ألْحِقْ بذوي الأحسابِ وأهلِ البيوتاتِ الصالحةِ والسَّوابقِ الحسنةِ أهلَ النجدةِ والشجاعةِ والسَّخاءِ والسَّماحةِ، فإنهم جِماعُ الكرَم، وشِعَبُ العَرْفِ[1]؛ ثم تفقد مِنْ أمورهم ما يتفقده الوالدان مِنْ ولدهما.
- ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به؛ ولا تحقرنّ لطفًا تعاهدهم به وإن قلّ، فإنه داعيةٌ لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك.
- ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها، فإن لليسير مِنْ لطفك موضعًا ينتفعون به، وللجسيم موقعًا لا يستغنون عنه.
- وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم

١- الشُّعبة من الشيء: ما تَشَعَّب منه أي تفرّع؛ كَغُصْن الشجرة. والعَرْف: الرائحة الطَّيِّبة.

مِنْ جدته بما يسعهم ويسع مِنْ وراءهم مِنْ خلوف أهليهم حتى يكون همّهم همًّا واحدًا في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف عليك قلوبهم؛ وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية؛ وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدرهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم، فافسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن فعالهم تهز الشجاع وتحرض الجبان إن شاء الله.

- ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضمّن بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه؛ ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم مِنْ بلائه ما كان صغيرًا، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر مِنْ بلائه ما كان عظيمًا.

- واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك مِنَ الخطوب، ويشتبه عليك مِنَ الأمور؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1]، فالرادُّ إلى الله هو الآخذ بمحكم كتابه، والرادُّ إلى الرسول الآخذ بسنته الجامعة غير المتفرقة.

- ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم[2]، ولا يتمادى في الذلة، ولا يحصر مِنَ الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم

١- النساء: ٥٩.

٢- تَمَحّكَ: لَجّ في المنازعة.

عند إيضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء؛ وأولئك قليل.

- ثم أكثر تعاهد قضائه؛ وافسح له في البذل ما يريح علته وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه مِنَ المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره مِنْ خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك.
- فانظر في ذلك نظرًا بليغًا؛ فإن هذا الدين قد كان أسيرًا في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا.
- ثم انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختبارًا ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهما جماعٌ مِنْ شعب الجور والخيانة.
- وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء مِنْ أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة؛ فإنهم أكرم أخلاقًا، وأصح أعراضًا، وأقل في المطامع إسرافًا، وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا.
- ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجةٌ عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك.
- ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون مِنْ أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوةً لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية.
- وتحفظ مِنْ الأعوان، فإن أحدٌ منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدًا، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصاب مِنْ عمله، ثم نصبته بمقام الذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة.
- وتفقد أمر الخَراج بما يصلح أهله، فإن صلاحهم وصلاحه صلاحٌ

لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله.

- وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ مِنْ نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة؛ ومن طلب الخراج بغير عمارة أخربَ البلاد، وأهلكَ العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا؛ فإن شكوا ثقلا أو علةً أو انقطاع شرب أو بالةٍ أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم؛ ولا يثقلنّ عليك شيء خففت به المؤنة عنهم، فإنه ذخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمدًا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم مِنْ إجماحك لهم والثقة منهم بما عودتهم مِنْ عدلك عليهم ورفقك بهم، فربما حدث مِنَ الأمور ما إذا عولت فيه عليهم مِنْ بعد احتملوه طيبةً أنفسهم به، فإن العمران يحتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض مِنْ إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.
- واستعمل مَنْ يحب أن يدخر حسن الثناء مِنَ الرعية، والمثوبة مِنَ اللّه عز وجل، والرضا مِنَ الإمام.
- ثم انظر في حال الكتاب فولّ أمورك خيرهم؛ واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلافٍ لك بحضرة ملأ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جوابها على الصواب منها عنك، وفيما يأخذ لك ويعطى منك ولا يضعف عقدًا اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل.

- ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك[1]، وحسن الظن منك؛ فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك مِنَ النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرًا، وأعرفهم بالأمانة وجهًا، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره، واجعل لرأس كل أمر مِنْ أمورك رأسًا منه لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها، ومهما كان في كتابك مِنْ عيبٍ فتغابيت عنه ألزمته.
- ثم استوصِ بالتُّجارِ وذوي الصناعات، وأوصِ بهم خيرًا المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم موادّ المنافع، وأسباب المرافق وجلاّبها مِنَ المباعد والمطارح في برّك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها، فإنهم سلمٌ لا تخاف بائقته، وصلحٌ لا تخشى غائلته؛ وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك.
- واعلم أن في كثير منهم ضيقًا فاحشًا، وشحًا قبيحًا، واحتكارًا للمنافع في المبايعات، وذلك باب مضرة للعامة، وعيبٍ على الولاة، فامنع مِنَ الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ منع مِنْه.
- وليكن البيع بيعًا سمحًا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقبه مِنْ غير إسراف.
- ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى مِنَ الذين لا حيلة لهم، والمساكين المحتاجين وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعًا ومعترًا، فاحفظ الله ما استحفظك فيهم، واجعل لهم قسمًا مِنْ بيت مالك، وقسمًا مِنْ غلاّت صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى.

١- استنام فلانٌ إلى فلانٍ: إذا أنس به واطمأنّ إليه، فهو مُستنيم إليه، واستنام أيضًا: إذا تناوم شهوةً للنَّوْم.

- وكلٌّ قد استرعيت حقه فلا يشغلنّك عنهم بطر فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لأحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همّك عنهم ولا تصعر خدّك لهم؛ وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك مِنْ أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم؛ ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه وتعالى في تأدية حقه إليه.
- وتعهَّدْ أهل اليتم وذوي الرّقة في السنّ ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه. وذلك على الولاة ثقيل؛ والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.
- واجعل لذوي الحاجات منك قسمًا تفرغ لهم في شخصك، وتجلس لهم فيه مجلسًا عامًا فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتبعد عنهم جندك وأعوانك مِنْ حراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: (لن تقدّس أمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقه مِنَ القوي غير متعتع) [1].
- ثم احتمل الخَرِقَ منهم والعيّ، ونحّ عنك الضيق والأنف، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئًا، وامنع في إجمال وإعذار.
- ثم أمورٌ مِنْ أمورك لا بدّ لك مِنْ مباشرتها؛ منها إجابة عمالك بما لا يغني عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك.
- وأمض لكل يوم عمله؛ فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية.

---

١ - «كَيْفَ تُقَدَّسُ أَمَّةٌ لاَ تَأْخُذُ لِضَعِيفِهَا مِنْ شَدِيدِهَا حَقَّهُ وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ» رواه الطبراني.

- وليكن في خاصة ما تخلص للّه به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط اللّه مِنْ بدنك في ليلك ونهارك، ووفّ ما تقربت به إلى اللّه تعالى مِنْ ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص بالغًا مِنْ بدنك ما بلغ.

- وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكوننّ منفرًا ولا مضيعًا، فإن في الناس مَنْ به العلة وله الحاجة؛ وقد سألت رسول اللّه ﷺ حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيمًا.

- وأما بعد، هذا فلا يطولنّ احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة مِنَ الضيق، وقلة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل.

- وإنما الوالي بشر، لا يعرف ما يوارى عنه الناس مِنَ الأمور؛ وليست على الحق سماتٌ تعرف بها ضروب الصدق مِنَ الكذب.

- وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك مِنْ واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه؟ وإما امرؤ مبتلًى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا يئسوا مِنْ ذلك مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤنة فيه عليك مِنْ شكاة مظلمةٍ أو طلب إنصافٍ في معاملة.

- ثم إن للوالي خاصةً وبطانة فيهم استئثارٌ وتطاول وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة ذلك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعنّ لأحد مِنْ حاشيتك وخاصتك قطيعة، ولا يطمعنّ منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها مِنَ الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

- وألزم الحق مَنْ لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرًا

محتسبًا، واقعًا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع؛ وابتغِ عاقبته بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة.

- وإن ظنت الرعية بك حيفًا فأصحر لهم بعذرك، واعدلْ عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك إعذارًا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق[1].

- ولا تدفعنّ صلحًا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضًا، فإن في الصلح دعةً لجنودك، وراحةً من همومك، وأمنًا لبلادك، ولكن احذر كل الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن.

- فإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة وألبسته منك ذمة؛ فحِطْ عهدك بالوفاء وارْعَ ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنّة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشدّ عليه اجتماعًا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود؛ وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر.

- فلا تغدرنّ بذمتك، ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهلٍ شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا قضاه بين العباد برحمته، وحرمًا يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره، فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه.

- ولا تعقد عقدًا تجوز فيه العلل، ولا تعولنّ على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونّك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيقٍ ترجو انفراجه، وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله طلبة، فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك.

١- ومن المجاز: أصحر بالأمر وأصحره: أظهره ولا تصحر أمرك.

- إياك والدماء وسفكها بغير حلّها، فإنه ليس شيءٍ أدعى لنقمةٍ ولا أعظم تبعةٍ ولا أحرى بزوال نعمةٍ وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقّها، واللّه سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة؛ فلا تقوينّ سلطانك بسفك دمٍ حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله فلا عذر لك عند اللّه ولا عندي في قتل العمد، لأن فيه قود البدن؛ فإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة؛ فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحنّ بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

- وَإِيَّاكَ والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

- وَإِيَّاكَ والمنّ على رعيتك بإحسانك، والتزيُّدَ فيما كان من فعلك، وأن تعدهم فتتبع موعدك بخلف، فإن المنّ يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند اللّه والناس، قال اللّه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

- وَإِيَّاكَ والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التسقط فيها عند إمكانها أو اللجاجة فيها إذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه.

- وَإِيَّاكَ والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما يعنى به مما قد وضح لعيون الناظرين، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليلٍ تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك المظلوم.

- املك حميّة أنفك، وسَوْرة حدّك، وسطوة يدك، وغرب لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك

١- سورة الصف: ٣.

فتملك الاختيار، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

- والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة، أو أثرٍ عن نبينا ﷺ أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرّع نفسك إلى هواها.

- وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل ذي رغبة أن يوفقني وَإِيَّاكَ لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنّا لله وإنّا إليه راجعون[1].

١- نهج البلاغة. والتذكرة الحمدونية: نشر مكتبة الخانجي ١٩٢٧، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري: (٦ / ٣٠).

وَصِيَّةٌ باختيار صاحب الجند

الجُنْدُ: العسكر، قال تَعَالَى: ﴿ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ ﴾[1].

والجندُ هم حَمَلَةُ السِّلاحِ، بِهِمْ تدفعُ الأعداءُ وتؤخذُ المدنُ؛ قالَ ابْنُ أبي الرَّبِيْعِ:

- ويَجِبُ أن يَكُوْنَ لَهُ صَاحِبٌ من التُّقاةِ والكُفَاةِ والْهُدَاةِ، العَارفينَ بمكايدِ الحروبِ.
- ويَجِبُ أن يَكُوْنَ أيضًا مطيعًا قابلا لِما يشارُ إِلَيْهِ، باذلا جهدَه في نُصحِ المَلِكِ.
- ويَنْبَغِي أن لا يتَّخذَ من الجندِ من كَانَ معتادًا للرِّقةِ والرَّاحةِ والتَّنعيمِ.
- ويُمنعونَ من اتِّخاذِ الصَّنائعِ، ويُؤخذونَ دائمًا بالرِّياضةِ والفروسيةِ.
- ويَتَفَقَّدُ أحْوَالَهُم في كُلِّ وَقْتٍ، ويوفُّونَ أرزاقَهم ليشتغلوا بما يُؤمرونَ بِهِ.
- ويَجِبُ أن يَكُوْنُوا مُتيقِّظِيْنَ، سريعي الغَضَبِ، قليلي النَّـوْمِ، كَثِيْرِي الحركةِ.
- وأن يكونوا ذَوِي بأسٍ ونَجدةٍ، مؤتلفي القُلُوبِ عَلَى طاعةِ ملكِهِمْ.
- وليؤمَرْ رُؤوسُهم وقُوَّادُهم، بعرضِهم في كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً، ويعتبرُ عَدَدَهُم.
- ولتكُنْ قوَّادُهم من أكابرِهم قَدْرًا، وأعرفِهم بالوقائعِ والحروبِ.
- وأن يَجْعَلَ عَلَى كُلِّ عشرةٍ قائدًا، وعلى كُلِّ عَشْرَةٍ من القوَّادِ رئيسًا، حَتَّى ينتهي إلى ربِّ الجيش.

١- سورة الأحزاب: ٩.

- وأن يَقُومَ بكفايتهم حَتَّى لا يحتاجوا فتدعوهم الحاجةُ إلى أمورٍ ثلاثةٍ: إما أن يتسلَّطوا عَلَى الرَّعيةِ، وإمَّا أن يعدلوا إلى من يَقُومُ لَهُمْ بالكفايةِ، وإمَّا أن يشتغلوا بالكسبِ فلا يُنْتَفَعُ بِهِمْ عِنْدَ الحاجةِ.

كَتَبَ أرسطو إلى الإسكندرِ: تَفَقَّدْ جندَك فَإنَّهم أعداءٌ تنتقمُ بِهِمْ من أعداء[1].

١- سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٢٠٢.

وَصِيَّةُ سَيِّدِنَا عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري بالقضاء

القاضي: هو من يتولى فصل الأمور بين المتداعيين في الأحكام الشرعية، وهي وظيفة قديمة كانت في زمن النبي ﷺ فقد ذكر القضاعي: أنه ولي القضاء باليمن عليّ بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وأن أبا بكر رضي الله عنه ولى القضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

فكَانَ سَيِّدُنَا عمرُ رضي الله عنه يقضي بين النَّاسِ حَيْثُ أدركَهُ الخصومُ.

وأبو موسى الأشعري هو عبد الله بن قيس، أحد الصحابة الشجعان الفاتحين، استعمله رسول الله ﷺ على اليمن، وولاه سَيِّدُنَا عمر رضي الله عنه على البصرة سنة ١٧ هـ، وكَتَبَ إليه بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ التي تعدُّ دستور القضاء، فقال:

- من عبدِ الله عمرَ أميرِ المُؤْمِنِيْنَ، إلى عبد الله بن قيس... سلام عَلَيْكَ، أمَّا بَعْدُ:
- إِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ لا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لا نَفَاذَ لَهُ[2].
- وَآسِ « سَوِّ » بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَقَضَائِكَ، حَتَّى لا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ.
- الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ.
- وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إلا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلالا.
- وَمَنِ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً فَاضْرِبْ لَهُ أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ بَيَّنَهُ أَعْطَيْتَهُ بِحَقِّهِ، وَإِنْ أَعْجَزَهُ ذَلِكَ اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ، فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ أَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ وَأَجْلَى لِلْعَمَاءِ.

١- صبح الأعشى.

٢- أدلى فلان بحجته: أحضرها واحتج بها (المعجم الوجيز).

- وَلا يَمْنَعَنَّكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَ فِيهِ الْيَوْمَ فَرَاجَعْتَ فِيهِ رَأْيَكَ فَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ فِيهِ الْحَقَّ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ لا يُبْطِلُهُ شَيْءٌ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ[١].
- وَالْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إلا مَجْلُودٌ فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبٌ عَلَيْهِ شَهَادَةُ زُورٍ، أَوْ ظَنِينٌ فِي وَلاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ، فَإِنَّ اللّه تَعَالَى تَوَلَّى مِنَ الْعِبَادِ السَّرَائِرَ، وَسَتَرَ عَلَيْهِمُ الْحُدُودَ إِلا بِالْبَيِّنَاتِ وَالأَيْمَانِ[٢].
- ثُمَّ الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ مِمَّا وَرَدَ عَلَيْكَ مِمَّا لَيْسَ فِي قُرْآنٍ وَلا سُنَّةٍ.
- ثُمَّ قَايِسِ الأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ وَاعْرِفِ الأَمْثَالَ ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللّه فِيمَا تَرَى وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ.
- وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ وَالْقَلَقَ وَالضَّجَرَ، وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاسِ وَالتَّنَكُّرَ عِنْدَ الْخُصُومَةِ (أَوِ الْخُصُوم)، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يُوجِبُ اللّه بِهِ الأَجْرَ وَيُحْسِنُ بِهِ الذِّكْرَ.
- فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللّه مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِي نَفْسِهِ شَانَهُ اللّه، فَإِنَّ اللّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يَقْبَلُ مِنَ الْعِبَادِ إِلا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابٍ عِنْدَ اللّه فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ[٣].

١- أي: في دعوى أخرى مثلها، أما التي صدر فيها الحكم وصار حقًا مكتسبًا لصاحبه، فلا يبدل الحكم فيها؛ وذلك معنى قول عمر لما سئل عن اختلاف حكمين له في دعويين متشابهتين: تلك كما قضينا وهذه كما نقضي.

٢- الظَّنِينُ: المُتَّهم الذي تُظَنُّ به التهمة.

٣- ذكر هذه الوصية: الجاحظ في البيان والتبيين، وابن قتيبة في عيون الأخبار، والقلقشندي في صبح الأعشى، والنويري في نهاية الأرب، وشرحها ابْنُ الْقَيِّمِ في (إِعْلام الْمُوَقِّعِينَ) شرحًا وافيًا مستفيضًا. وانظرها في الموسوعة الفقهية (قضاء).

وَصِيَّةٌ باختيار القاضي

قال ابن أبي الربيع: وأمَّا القاضي فهو ميزانُ المَلِكِ من رَعيَّتِهِ، وَصِفَتُهُ:

- يَجِبُ أن يَكُوْنَ ذا وقارٍ، وورعٍ، وأناةٍ، وزُهْدٍ.
- وأن يَكُوْنَ ذكيًا، فطنًا، عالمًا، عاقلا، عارفًا بأَدَبِ القضاءِ.
- وأن لا يَعْجَلَ فِي الحكمِ قَبْلَ ثبوتِهِ، وَلا يتوقَّفُ عِنْدَ التَّبَيُّنِ.
- وأن يَكُوْنَ فقيهًا، نزيهًا، عفيفًا، خبيرًا بمذاهبِ النَّاسِ.
- وأن يَكُوْنَ ممارسًا للأُمُوْرِ، مستمرًا فِي التَّسويةِ بَيْنَ الخصومِ.
- وأن يَكُوْنَ صادعًا بالْحَقِّ عَلَى من وجبَ عَلَيْهِ غَيْرَ مراقبٍ.
- وألاّ يقبلَ هديةً، وَلا يسمعَ قولَ شفيعٍ فِي شيءٍ من أُمُوْرِ الحكمِ.
- وألاّ يأخذَ لأحدِ الخصمينِ دُوْنَ الآخرِ بَلْ يخصمها سواء.
- وأن يَكُوْنَ قليلَ التَّبَسُّمِ، طويلَ الصَّمْتِ، شديدَ الاحتمالِ.
- وألا يكلِّفَ أحدَ الخصومِ حاجةً، ويصفحَ عَنْ سقطاتِهِمْ وزلاتِهِمْ.
- ويَجِبُ عَلَيْهِ أن يَجْعَلَ عَلَى أموالِ الأيتامِ والوقوفِ والمصالحِ حافظًا.
- وأن يبالغَ فِي التَّفتيشِ عَلَى الشُّهودِ والوكلاءِ، ويَعْرِفَ أَحْوَالَهُم.
- ويَجِبُ أن يَكُوْنَ راهبَ الأمَّةِ، وناشدَ البَرِيَّةِ، وعالِمَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ[١].

١- سلوك المالك في تدبير الممالك: لابن أبي الربيع، ص ٢٠٠.

وَصِيَّةُ قيس بن عاصمٍ المِنقريّ في مجالسة السلطان[1]

دَخَلَ الأَحْنَفُ بنُ قيسٍ عَلَى مُعَاوِيَةَ ابنِ أبي سُفْيَانَ، فأشار لَهُ إلى الوِساد، فقال له: اجلِسْ، فجلسَ عَلَى الأَرْضِ. فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ: وما مَنَعَكَ يا أَحنَفُ من الجلوسِ عَلَى الوِسادِ؟ فقالَ: يا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ، إنّ فيما أَوْصَى بِهِ قيسُ بنُ عاصمٍ المِنْقَرِيُّ وَلدَه أنْ قالَ:

- لا تَغْشَ السُّلْطَانَ حتَّى يَمَلَّكَ، وَلا تَقْطَعْهُ حتَّى ينساكَ.
- ولا تَجْلِسْ لَهُ في فِراشٍ وَلا وِسادٍ.
- وَاجْعَلْ بَيْنَك وبَيْنَه مَجْلِسَ رَجُلٍ أو رَجُلَيْنِ؛ فإنَّه عَسَى أنْ يأتِيَ مَن هُوَ أولى بذَلِكَ المَجْلِسِ مِنْكَ فتُقامَ له، فيَكُوْنَ قيامُك زيادةً له، ونُقصانًا عَلَيْكَ.
- حَسْبي بهذا المَجْلِسِ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ، لعلَّهُ أنْ يأتِيَ مَن هُوَ أولى بذَلِكَ المَجْلِسِ مِنِّي.
- فقالَ مُعَاوِيَةُ: لقد أُوتِيَتْ تَمِيْمُ الحِكْمَةَ، مَعَ رِقَّةِ حواشي الكَلِمِ[2].

ولما حضرت قيسَ بنَ عاصمٍ الوفاة دعا بنيه فقال:

- يا بَنِيَّ، احْفَظُوا عَنِّي، فلا أحدَ أَنْصَحُ لَكُمْ مِنِّي.
- إذَا أنا مِتُّ فسَوِّدوا كبارَكم وَلا تُسَوِّدوا صغارَكم؛ فَيَسفَهَ النَّاسُ كبارَكُمْ وتَهونوا عَلَيْهِمْ.
- وعَلَيْكُمْ بإصلاح المَالِ؛ فَإِنَّه منبهةٌ للكَرِيْمِ، ويُسْتَغْنَى بِهِ عَنِ اللَّئِيْمِ.
- وإيَّاكُمْ ومَسْأَلَةَ الناس؛ فإنَّها شرُّ كَسْبِ المرء[3].

١- قيسُ بنُ عاصم بن سنانٍ التَّمِيْمِيّ، أبو عليٍّ، أحدُ أمراءِ العَرَبِ وعقلائهم والموصوفينَ بالحِلْمِ والشَّجَاعَةِ فيهم، كَانَ شاعرًا، اشتهرَ وسادَ في الجَاهليَّة، وهو ممَّنْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الخمرَ فيهَا، وفدَ عَلَى النَّبيِّ ﷺ في وفد تَمِيْم فأسلم، وقال النَّبيُّ ﷺ لَمَّا رآه: هَذا سيدُ أهلِ الوبَرِ. قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري

٢- البيان والتبيين: للجاحظ (١/٥٣)، طبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٤٨،

٣ البيان والتبيين: للجاحظ (٢/٨٠).

وَصِيَّةُ معاوية بن أبي سفيان إلى ناسٍ من بني أمية

لَمَّا اشتكى مُعَاوِيَةُ من شكاته التي مات فِيهَا، أَرْسَلَ إلى ناسٍ من بني أمية، فخصَّ ولم يعم، فقال[١]: يا بني أمية: إنَّهُ لَمَّا قَرُبَ ما لَمْ يكُنْ بعيدًا، وخِفْتُ أن يسبقَكُمُ المَوْتُ إليَّ، سبقتُهُ بالموعظةِ إِلَيْكُمْ، لا لأَرُدَّ قَدَرًا، ولَكِنْ لأُبْلِغَ عذرًا.

- لو وُزِنتُ بالدُّنْيَا لَرَجَحْتُ بها، ولكني وُزِنتُ بالآخِرَةِ فَرَجَحَتْ بي، إنَّ الَّذي أُخَلِّفُ لَكُمْ من الدُّنْيَا أَمْرٌ سَتُشاركونَ فيهِ، أو تُغْلَبونَ عَلَيْه، والذي أُخَلِّفُ لَكُمْ من رأيي أَمْرٌ مَقْصُورٌ عَلَيْكُمْ نَفْعُهُ إنْ فعلتُمُوهُ، مَخُوفٌ عَلَيْكُمْ ضَرَرُهُ إنْ ضَيَّعْتُمُوهُ، فاجْعَلُوا مكافأتي قَبُوْلَ وَصِيَّتِي.
- إنَّ قريشًا شاركَتْكُمْ في نَسَبِكُمْ، وبِنْتُمْ مِنْهَا بفعالكم، فَقَدَّمَكُمْ ما تقَدَّمْتُمْ فيه، إذْ أَخَّرَ غَيْرَكم ما تأَخَّروا له.
- وباللّهِ لقد جُهِرَ لي فعلِمْتُ، ونُغِّمَ لي ففهِمْتُ، حَتَّى كأني أنظرُ إلى أبنائِكم بَعْدَكم نظري إلى آبائِهم قَبْلَهم[٢]. إنَّ دولَتَكم ستطولُ، وكلُّ طويلٍ مَمْلولٌ مَخْذُوْلٌ.
- فإِذَا انقضَتْ مُدَّتُكُمْ، كَانَ أول تجادلكم فيما بَيْنَكم، واجتماع المختلفِينَ عَلَيْكُمْ، فَيُدَبَّرُ الأَمْرُ بضِدِّ الْحُسْنِ الَّذِي أقبلَ بهِ، فلستُ أَذْكُر عظيمًا يُرْكَبُ مِنْكُمْ، وَلا حُرْمَةً تُنْتَهَكُ إلاّ والذي أكفُّ عَنْ ذكْرِهِ أعظمُ؛ فلا مُعوَّلَ عَلَيْهِ عِنْدَ ذلِكَ أفضل من الصَّبْرِ، وتوقع النصر، واحتسابِ الأجرِ، فيُمادُّكم القومُ دولتَهم امتدادَ العِنانينِ في عُنُقِ الجوادِ. فإِذَا بَلَغَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ بالأَمْرِ مَدَاهُ، وجاءَ الوَقْتُ المحتومُ كَانَت الدَّولةُ كالإناءِ المَكْفُوِّ[٣]، فعِنْدَها أُوْصِيْكُم بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي لَمْ يَتَّقِهِ غَيْرُكم فِيْكُم، فجعلَ العاقبة فِيْكُم وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ[٤].

١- مُعَاوِيَةُ ابنُ أبي سُفْيَانَ: من كتاب الوحي، قال عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ: (اللَّهُمَّ علِّمْ مُعَاوِيَةَ الكتابَ وقِهِ العذابَ)، وكَانَ عمرُ رضي الله عنه إِذَا رآه قال: (هذا كسرى العَرَبِ) وهو أحد دُهاة العَرَبِ.

٢- نغَّم: تكلم بكلام خفي.

٣- المكفوّ: المقلوب الذي لا يعلم ما بداخله.

٤- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: ٢/ ٣٩٤.

وصية معاوية لعبيد الله بن زياد

لما ولى معاويةُ عبيدَ الله بن زياد على خراسان، أوصاهُ فقال:

- اتقِ الله ولا تؤثرن على تقواهُ شيئًا، وقِ عرضك من أن تدنسهُ.
- وإذا أعطيت عهدًا ففِ به، ولا تبيعن كثيرًا بقليل.
- وخذ لنفسك من نفسك، ولا يخرجن منك أمرٌ حتى تبرِمه، فإذا خرج فلا يُرَدَّنَّ عليك.
- وإذا لقيتَ عدوك فغلبك على ظهرِ الأرضِ فلا يغلبنك في بطنها.
- وإن احتاج أصحابك أن تواسيهم بنفسك فواسهم، ولا تُطمِعنَّ أحدًا في غير حقِّه، ولا تؤيِسَنَّ أحدًا من حقٍّ هو له[1].

١- نثر الدر (١٠/٣) عبيد الله بن زياد بن أبيه (٢٨ - ٦٧ هـ): ولاه «عمه» معاوية خراسان، وأقام بخراسان سنتين، ونقله معاوية إلى البصرة، أميرًا عليها، فقاتل الخوارج واشتد عليهم.

وَصِيَّةُ زياد بن أبيه إِذَا وَلَّى رَجُلاً عملاً

زِيَادُ بنُ عُبَيْدِ الثَّقَفِيُّ: وَهُوَ زِيَاد ابْنُ سُمَيَّةَ، وَهُوَ زِيَادُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ الَّذِي اسْتَلْحَقَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّهُ أَخُوهُ يُكْنَى: أَبَا الْمُغِيْرَةِ، وُلِدَ عَامَ الهِجْرَةِ، وَأَسْلَمَ زَمَنَ الصِّدِّيْقِ وَهُوَ مُرَاهِقٌ، وَكَانَ مِنْ نُبَلاَءِ الرِّجَالِ رَأْيًا، وَعَقْلا، وَحَزْمًا، وَدَهَاءً، وَفِطْنَةً. وكَانَ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي النُّبْلِ وَالسُّؤْدُدِ، (ت: ٥٣هـ)[١].

كَانَ زيادُ إِذَا وَلَّى رَجُلا عَمَلا قالَ له:

- خُذْ عهْدَك، وسِرْ إلى عَمَلِكَ.
- وَاعْلَمْ أَنَّكَ مصروفٌ رأسَ سَنَتِكَ، وأنَّكَ تَصِيْرُ إلى أَرْبَعِ خلالٍ، فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ.
- إنَّا إنْ وجدناكَ أمينًا ضعيفًا، استبدلنا بِكَ لضعفِكَ، وسَلِمَتْ من مَعَرَّتِنَا أمانَتُكَ.
- وإن وجدناكَ قويًّا خائنًا استهنَّا بقوَّتِك، وأحسنَّا عَلَى خيانَتِكَ أَدَبَك، وأوجعنا ظهرَك، وثقَّلْنا غُرْمَكَ[٢].
- وإنْ جَمَعْتَ علينا الْجُرْمَيْنِ جَمَعنا عَلَيْكَ الْمَضَرَّتَيْنِ.
- وإن وجدناكَ أمينًا قويًّا زِدْنا فِي عَمَلِكَ ورفعنا ذِكرَكَ وكثَّرْنا مالَكَ وأوْطأنا عَقِبَكَ[٣].

١- سير أعلام النبلاء: ٣/٤٩٧.

٢- الغُرْمُ: ما يلزمُ أداؤه، وكذلك المَغْرَمُ.

٣- الجليس الصالح الكافي: ٢/١٣٤. الأمالي للقالي: ٢/٨٠. أوطأنا عقبك: أي نشرفك، وننوه بك، ونرفع من قدرك، فيكثر أتباعك، ويطأ الرجال عقبك، باتباعهم إياك، وازدحامهم في موكبك.

وصية عبد الملك بن مروان للشعبي

روى المسعودي في مروج الذهب أنه: لما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان تاقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف في أخبار الناس، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبي، فلما حمل إليه ونادمه قال له:

- يا شعبي، لا تساعدني على ما قبُحَ، ولا ترد على الخطأ في مجلسي، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى، وكلمني بقدر ما استطعمك، واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني.
- واعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول.
- وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتنك منه شيء.
- وأرني فهمك من طرفك وسمعك، ولا تجهد نفسك في نظر صوابي، ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي، فإن أسوأ الناس حالا من استكدَّ الملوك بالباطل، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم.
- واعلم يا شعبيُّ أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان، ويسقط حق الحرمة؛ فإن الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من النطق في موضعه وعند إصابته وفرصته[1].

١- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت، نشر المكتبة العلمية، بيروت (١٩٨/٢).

وصية عُمَرَ بنِ هُبَيْرَةَ : لعامله مسلم بن سعيد

قالَ عُمَرُ بنُ هُبَيْرَةَ الفَزارِيُّ أَمِيْرُ العِرَاقَيْنِ وَوَالِدُ أَمِيْرِهَا يَزِيْدَ، لمسلم بن سعيد، حِيْنَ ولاّهُ خُراسان:

- ليكنْ حاجبك من صالح مواليك؛ فَإِنَّهُ لسانُك والمعبر عنك.
- وحثَّ صاحبَ شرطتك على الأمانة.
- وعَلَيْكَ بعُمَّالِ العَذْرِ.
- قَالَ: وما عُمَّالُ العَذْرِ؟
- قَالَ: مُرْ أهلَ كل بلد أن يختاروا لأنفسهم، فإذا اختاروا رجلاً فولِّه، فإن كان خيراً كان لك، وإن كان شرًّا كان لهم دونك، وكنت معذورًا[١].

وقال عُمَرُ بنُ هُبَيْرَةَ، وهو يؤدّبُ بعضَ بنيه:

- لا تكوننّ أوّلَ مُشيْرٍ، وإيَّاكَ والرَّأيَ الفَطِيْرِ، وتَجنَّبْ ارتجالَ الكلام[٢].
- ولا تُشِرْ على مستبدٍّ[٣]، ولا على وَغْدٍ[٤]، ولا على متلوِّن، ولا على لَجوج.
- وخَفِ الله في موافقةِ هوى المستشير؛ فإنّ التماس موافقته لؤمٌ، وسوءَ الاستماع منه خِيانة[٥].

١- تاريخ الطبري (حوادث سنة ١٠٦ هـ).

٢- يقال: شَرُّ الرَّأْيِ الفَطِيرُ، والرَّأْيُ الفَطِيرُ: الذي يبدو قبل إنعام النظر.

٣- استبدّ بالأمر: إذا تَفَرَّد به. يقال: هو جحيش وحده؛ في ذم المستبد برأيه والمستأثر بكسبه.

٤- الوَغْدُ : الأَحْمَقُ الضَّعيفُ الرَّذْلُ الدَّنيءُ أو الضَّعيفُ جِسْماً.

٥- البيان والتبيين: الجاحظ.

وَصِيَّةُ العَبَّاسِ بن الحسن رضي الله عنه في اغتنام الوقت

العباس بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب (ت:١٩٣هـ) (أبوالفضل) أخو محمد وعبيد الله والفضل وحمزة بني الحسن، وهو من أهل مدينة رسول الله ﷺ، قدم بغداد في أيام هارون الرشيد وأقام في صحابته، وصحب المأمون بعده. كَانَ عالِمًا شاعرًا فصيحًا.

قال أبو العبَّاسُ العَلَوِيُّ (الفَضْلُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ الفَضْلِ): قالَ عَمِّيَ العبَّاسُ بنُ الْحَسَنِ بنِ عبيدِ اللَّهِ بنِ العبَّاسِ بن علي بن أبي طالب:

- اعْلَمْ أنَّ رَأيَكَ لا يتَّسِعُ لِكُلِّ شيء، ففرِّغْهُ للمُهِمِّ.
- وأنَّ مالَكَ لا يُغْنِي النَّاسَ كلَّهم، فَخُصَّ بِهِ أهلَ الْحَقِّ.
- وأنَّ كرامتَكَ لا تطيقُ العامَّةَ، فَتَوَخَّ بِهَا أهلَ الفَضْلِ.
- وأنَّ ليلَكَ ونَهارَكَ لا يستوعبانِ حاجَتَكَ وإنْ دأبْتَ فيهما، فأحسنْ قسمتَهُما بَيْنَ عَمَلِكَ وَدَعَتِكَ من ذَلِكَ.
- فَإنَّ ما شغلكَ من رَأيِكَ في غَيْرِ المُهِمِّ إزراءٌ بالمُهِمِّ.
- وما صرفتَ من مالِكَ في الباطلِ فَقَدْتَّهُ حِيْنَ تُرِيْدُه للحقِّ.
- وما عمدتَ من كرامتِكَ إلى أهلِ النَّقْصِ أضرَّ بِكَ في العَجْزِ عَنْ أهلِ الفَضْلِ.
- وما شغلتَ من ليلكَ ونهارِكَ في غَيْرِ الحاجةِ أزرى بِكَ في الحاجةِ[1].

١- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، بيروت، دار الكتب العلمية، (باب ذكر من اسمه العباس). والأعلام للزركلي.

وصية الجَاحِظِ إِلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِالملك

الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) أبو عثمان، عمرو بن بحر، كبير أئمة الأدب. قال ابن سَيَّار: الملوك عيال على عمر إذا ساس، والفقهاء عيال على أبي حنيفة إذا قاس، والمحدثون عيال على أحمد إذا أسند، والبلغاء عيال على الجاحظ إذا انتخب وأعرب. وقال المسعودي: وكتبُ الجاحظ- مع انحرافه المشهور- تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أَحْسَنَ نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أَجْزَلَ لفظ، وكان إذا تخوَّفَ مَلَلَ القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب حسان: منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغُرَر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به[1].

وَمِنْ كَلاَمِ الجَاحِظِ إِلَى مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ:

- المَنْفَعَةُ تُوْجِبُ المَحبَّةَ، وَالمَضَرَّةُ تُوْجِبُ البغْضَةَ، وَالمُضَادَّةُ عَدَاوَةٌ، وَالأَمَانَةُ طُمَأْنِيْنَةٌ، وَخِلاَفُ الهَوَى يُوْجِبُ الاسْتِثْقَالَ، وَمُتَابَعَتُهُ تُوْجِبُ الأُلْفَةَ.
- العَدْلُ يُوْجِبُ اجْتِمَاعَ القُلُوْبِ، وَالجَوْرُ يُوْجِبُ الفُرْقَةَ.
- حُسْنُ الخُلُقِ أُنْسٌ، وَالانْقِبَاضُ وَحْشَةٌ، التَّكَبُّرُ مَقْتٌ، وَالتَّوَاضُعُ مِقَةٌ، الجُوْدُ يُوْجِبُ الحَمْدَ، وَالبُخْلُ يُوْجِبُ الذَّمَّ، التَّوَانِي يُوْجِبُ الحَسْرَةَ، وَالحَزْمُ يُوْجِبُ السُّرُوْرَ، وَالتَّغْرِيْرُ نَدَامَةٌ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ إِفْرَاطٌ وَتَقْصِيْرٌ، وَإِنَّمَا تَصِحُّ نَتَائِجُهَا إِذَا أُقِيْمَتْ حُدُوْدُهَا.
- فَإِنَّ الإِفْرَاطَ فِي الجُوْدِ تَبْذِيْرٌ، وَالإِفْرَاطَ فِي التَّوَاضُعِ مَذَلَّةٌ، وَالإِفْرَاطَ فِي الغَدْرِ يَدْعُو إِلَى أَنْ لاَ تَثِقَ بِأَحَدٍ، وَالإِفْرَاطَ فِي المُؤَانَسَةِ يَجْلِبُ خُلَطَاءَ السُّوْءِ[2].

١- سير أعلام النبلاء : للذهبي (٢١/ ٢٠٦).

٢- ابْنُ الزَّيَّاتِ: مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بن أَبَانِ الوَزِيْرُ، الأَدِيْبُ، العَلاَّمَةُ، كَانَ وَالِدُهُ زَيَّاتاً سُوقِيّاً، فَسَادَ هَذَا بِالأَدَبِ وَفُنُوْنِه، وَبَرَاعَةِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ، وَوَزَرَ لِلْمُعْتَصِمِ وَلِلْوَاثِقِ.

وَصِيَّةُ الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز بالعدل

كَتَبَ عمرُ بنُ عبدِالعزيز رضي الله عنه، لَمَّا وَلِيَ الخلافةَ إلى الْحَسَنِ البَصْرِيِّ أن يَكْتُبَ لَهُ بصفةِ الإمامِ العادلِ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ[1]:

- اعْلَمْ يا أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ: أَنَّ اللهَ جَعَلَ الإمامَ العادلَ قِوامَ كُلِّ مائلٍ، وقَصْدَ كُلِّ جائرٍ، وصَلاحَ كُلِّ فاسدٍ، وقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيْفٍ، ونَصَفَةَ كُلِّ مظلومٍ، ومَفْزَعَ كُلِّ مَلْهوفٍ[2].
- والإمامُ العَادلُ يا أميْرَ الْمُؤمنينَ:كالرَّاعي الشَّفيق عَلَى إبِلِهِ، الرَّفيق الَّذِي يرتادُ لَهَا أطيبَ المراعي، ويذودها عَنْ مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحرِّ والقرِّ.
- والإمامُ العَادلُ يا أميرَ الْمُؤْمِنِيْنَ: كالأبِ الحاني عَلَى وَلَدِهِ، يَسْعَى لَهُمْ صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ، ويدخر لَهُمْ بَعْدَ مماته.
- والإمامُ العَادلُ يا أميْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ: كالأم الشفيقة البَرَّةِ الرَّفيقةِ بوَلَدِها حَمَلَتْهُ كُرْهًا وربَّتْهُ طفلا تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارةً وتفطمه أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.
- والإمامُ العَادلُ يا أميْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ: وصيُّ اليتامى وخازنُ الْمَسَاكِينِ، يربي صغيرهم، ويَمُونُ كبيرَهم.
- والإمامُ العَادلُ يا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ:كالْقَلْبِ بَيْنَ الجوانح تصلحُ الجوانحُ بصلاحِهِ وتفسدُ بفسادِهِ.

١- الْحَسَنُ البصري بن يسار (٢١-١١٠هـ) أبو سعيد، تابعي، حبر الأمة فِي زمانه، وهو أحد الْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ الفُصَحَاءِ الشُّجْعَانِ النُّسَّاك، ولد بالمدينة، وشب فِي كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسكن البصرة، وعظمت هيبته فِي الْقُلُوبِ، فكَانَ يدخل عَلَى الولاة يَأْمُرُهُم ويَنْهَاهُمْ وَلا يخاف فِي الْحَقِّ لومة لائم. انظر ترجمته فِي (طبقات ابن سعد) و(حلية الأولياء) و(الحسن البصري: لإحسان عباس).

٢- فلانٌ مَفْزَعُ النَّاسِ: معناه إذا دَهَمَنا أَمرٌ فَزِعْنا إليه، أي لَجَأنا إليه واستغثنا به.

- والإمامُ العادلُ يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: هُوَ القائمُ بَيْنَ الله وبَيْنَ عِبَادِهِ، يَسْمَعُ كلام الله ويسمعهم، وينظرُ إلى الله ويريهم، وينقادُ إلى الله ويقودُهم.
- فلا تكنْ يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المَالَ، وشرَّد العيالَ، فأفقرَ أهلَهُ وفرَّقَ مالَه.
- وَاعْلَمْ يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: أن الله أنزل الحدود ليزجر بِهَا عَنِ الخبائث والفواحش، فَكَيْفَ إِذَا أتاها من يليها، وأن الله أنزل القصاص حياة لِعِبَادِهِ، فَكَيْفَ إِذَا قتلهم من يقتص لهم.
- واذكرْ يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: المَوْتَ وما بَعْدَه، وقلة أشياعك عِنْدَه، وأنصارك عَلَيْهِ، فتزود له، ولِمَا بَعْدَه من الفزع الأَكْبَرِ.
- وَاعْلَمْ يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: أن لَكَ مَنْزِلا غَيْرَ مَنْزِلك الَّذِي أَنتَ فيه، يطول فِيهِ ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا، فتزود لَهُ ما يَصْحَبُكَ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ، وأمه وأبيه، وصَاحِبَتُهُ وبَنِيْهِ.
- واذْكُرْ يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة وَلا كبيرة إلا أحصاها.
- فالآن يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ: وأنتَ في مهل قَبْلَ حلولِ الأَجَلِ، وانقطاعِ الأَمَلِ.
- لا تحكم يا أمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ في عباد الله بحكم الجَاهِلِيْنَ، وَلا تسلك بِهِمْ سبيل الظالمين، وَلا تسلط المستكبرين عَلَى المستضعفين، فَإِنَّهم لا يرقبون في مؤمن إلا وَلا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مَعَ أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالا مَعَ أثقالك، وَلا يغرنك الذين يتنعمون بما فِيهِ بؤسك، ويأكلون الطَّيِّبَاتِ في دُنْيَاهُم بإذهاب طيباتك في آخِرَتِكَ، وَلا تنظر إلى قدرتك اليَوْمَ، ولَكِنْ انظر إلى قدرتك غدًا، وأنت مأسور في حبائل المَوْتِ، وموقوف بَيْنَ يدي الله في مجمع من المَلائِكَةِ والنَّبِيِّينَ والمُرْسَلِيْنَ، وقد عنت الوجوه للحيِّ القَيُّومِ.

- إني يا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ وإن أبلغ بعظتي ما بَلَغَه أولو النهى من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحًا، فأنزل كتابي إلَيْكَ كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة، لِما يرجو لَهُ فِي ذَلِكَ من العافيةِ والصِّحَّةِ، والسَّلامُ عَلَيْكَ يا أمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ ورحمة الله وبركاته[١].

وَصِيَّةُ يزيد بن عبد المَلِكِ المهلبي ابنه حِيْنَ استخلفه عَلَى خراسان

أَوْصَى يَزِيدُ بن عبد المَلِكِ بن مخلد بن الْحُسَيْنِ المهلبي ابنه بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ حِيْنَ استخلفه عَلَى خراسان[٢] فقال:

- انظر صنائع أبِيْكَ فلا تفسدها، فَحَسْبُ الرَّجُلِ من الخيبةِ أن يهدمَ ما بَنَى أبوه.
- وإيَّاكَ والدماءَ، فلا بقيةَ بَعْدَها.
- واكففْ عَنْ أعراضِ الأحرارِ، فلا يُرضي الحرَّ من عرضِهِ شيءٌ.
- واجْتَنِبْ العقوبةَ فِي الأجسادِ، فَإنَّه وترٌ مطلوبٌ وعارٌ باقٍ[٣].
- ولا يَمْنَعُكَ من ذي فَضْلٍ تصطنعه أن يَكُوْنَ غَيْرُك قَدْ سبقكَ إِلَيْهِ.
- وليكُنْ جلساؤُك غَيْرَ ذي سنِّكَ.
- وإذا كتبتَ كتابًا فأكثِرْ فِيهِ النَّظَرَ، فالكتابُ مَوْضِعُ عقلِ الرَّجُلِ ورسولُهُ مَوْضِعُ رأيِهِ[٤].

١- العقد: ١/ ١٢.

٢- يَزِيدُ بن عبد المَلِكِ بن مخلد بن الْحُسَيْنِ المهلبي: قائد من شجعان آل المهلب بن أبي صفرة، زحف بعشرة آلاف مقاتل للتوغل فِي بلاد الرُّوم فاعترضوه فِي أحد المضائق، ودارت بَيْنَهما معركة حاسمة قتل فيهَا قرب طرسوس سَنَةَ ١٩١ هـ.

٣- وتَرَ فلانًا يَتِرُهُ: قتل حميمه وأدركه بمكروه.

٤- الشهب اللامعة فِي السياسة النافعة: عبد الله بن يوسف المالقي، تحقيق د.سليمان الرفاعي، نشر مكتبة المدار الإسلامي.

وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله

قالَ ابنُ كَثِيرٍ حِيْنَ ذكر ولاية عبد الله بن طاهر: وقد كَتَبَ إِلَيْهِ أبوه من خراسان بكتابٍ تداولـه النَّاسُ بَيْنَهم واستحسنوه وتَهادوه فيما بَيْنَهم[1].

وقال ابن الأثير ولما استعمله المأمون كتب إليه أبوه طاهر كتابًا فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك، وقد أثبت منه أحسنه، لما فيه من الآداب والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، لأنه لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة[2].

وقال ابن خلدون: وحدّث الإخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس، واتصل بالمأمون فلما قرئ عليه قال: ما أبقى أبو الطيب -يعني طاهرًا- شيئًا من أمور الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به، ثم أمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه، هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة، والله أعلم.

الموصَى له: عبد الله بن طاهر، من أشهر الولاة بالعصر العباسي، قال ابن خلكان: كان عبد الله سيدًا نبيلا عالي الهمة شهمًا، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه.

الموصِي: طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي: أبو الطيب، من كبار الوزراء والقواد، أدبًا وحكمةً وشجاعةً، وهو الذي وطّد الملك للمأمون، ولد في خراسان، وسكن بغداد، فاتصل بالمأمون بصباه، وكانت لأبيه منـزلة عند الرشيد، لقب بذي اليمينين؛ لأنه ولي العراق وخراسان، مات مقتولا، وقيل مسمومًا، سنة ٢٠٧ هـ.

١- البداية والنهاية: لابن كثير.

٢- الكامل: لابن كثير.

نص الوصية:

- أمَّا بعدُ: فعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللّهِ وحدَهُ لا شَريكَ له، وخشيتِهِ، ومراقَبَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، ومزايلةِ سخطِهِ، وحِفْظِ رعيتك في اللَّيْلِ والنهارِ.
- والْزَمْ ما ألبسَكَ اللّهُ من العافيةِ بالذِّكْرِ لِمَعادِك وما أنتَ صائرٌ إِلَيْهِ، وموقوفٌ عَلَيْهِ، ومسؤولٌ عَنْهُ، والْعَمَلُ في ذَلِكَ كله بما يعصمُك اللّه عَزَّ وَجَلَّ وينجيك يَوْمَ الْقِيَامَةِ من عذابِهِ وأليم عقابِهِ.
- فَإِنَّ اللّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى قَدْ أحسنَ إِلَيْكَ، وأوجبَ عَلَيْكَ الرَّأفةَ بمن استرعاكَ أمرَهم من عِبَادِهِ، وألزَمَكَ العَدْلَ فيهم، والقيامَ بحقِّهِ وحدودِهِ عَلَيْهِم، والذَّبَّ عنهم، والدَّفْعَ عَنْ حريمِهِمْ وبَيْضَتِهم، والْحَقْنَ لدمائهم، والأمنَ لسبيلهم، وإدخالَ الرَّاحةِ عَلَيْهِم في معايشهم، ومُؤَاخِذُكَ بما فَرَضَ عَلَيْكَ من ذَلِكَ، ومُوَقِفُكَ عَلَيْهِ، وسائِلُكَ عَنْهُ، ومُثيبُك عَلَيْهِ بما قدَّمتَ وأخَّرْتَ، ففرِّغْ لذَلِكَ فكرَك وعَقْلَكَ ونظرَك، وَلا يَذْهَلُك عَنْهُ ذاهلٌ، وَلا يَشغلكَ عَنْهُ شاغلٌ، فَإِنَّه رأسُ أمرِك، ومَلاكُ شأنِك، وأوّلُ ما يوفِّقُكَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ بِهِ لرُشْدِك.
- وليكُنْ أوَّلَ ما تُلزمُ بِهِ نَفْسَكَ، وتَنْسِبُ إِلَيْهِ أفعالَك: المواظبةُ عَلَى ما افترضَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ من الصَّلواتِ الخمسِ، والجماعةِ عَلَيْها بالنَّاس قبلك في مواقيتها، وتوقيعها عَلَى سننها؛ من إسباغ الوضوء لها، وافتتاحِ ذكر اللّه عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا، ورتِّلْ في قراءتك، وتَمَكَّنْ في ركوعِك وسجودِك وتَشَهُّدِك، ولتصدقْ فِيهَا لربك نيَّتَكَ، واحضضْ عَلَيْها جماعةَ من معك، وتحتَ يدِك، وادْأبْ عَلَيْها، فَإِنَّها كما قال اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].
- ثُمَّ أتْبِعْ ذَلِكَ بالأخذِ بِسُنَنِ رسولِ اللّه ﷺ والمثابرةِ عَلَى خلائقه، واقتفاءِ آثارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ من بَعْدِه، وإذا وَرَدَ عَلَيْكَ أمرٌ فاستعنْ عَلَيْهِ باستخارةِ

١- الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

اللّه عَزَّ وَجَلَّ وتقواه، ولُزُوْم ما أنزلَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ فِي كتابِه من أمرِه ونَهْيِه وحلالِه وحرامِه، وإتمام ما جاءتْ بِهِ الآثارُ عَنْ رسولِ اللّه ﷺ ثُمَّ قمْ فِيه بما يحقُّ للّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ.

- ولا تَميلنَّ عَنْ العَدْلِ فِي ما أَحْبَبْتَ أو كرهتَ، لقريبٍ من النَّاسِ أو لبعيدٍ، وآثِرِ الفِقْهَ وأهلَهُ، والدِّيْنَ وحَمَلتَهُ، وكتابَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ، والعاملينَ بِهِ، فإنَّ أفضلَ ما تَزَيَّنَ بِهِ المَرْءُ الفِقْهُ فِي دينِ اللّه، والطلبُ له، والحثُ عَلَيْه، والمَعْرِفَة بما يتقرب بِهِ إلى اللّه عَزَّ وَجَلَّ، فَإنَّه الدليلُ عَلَى الخَيْرِ كله، والقائدُ إِلَيْه، والأَمْرُ بِهِ والناهي عَنِ المعاصي والموبقات كلها، وبِهَا مَعَ توفيق اللّه عَزَّ وَجَلَّ يزدادُ العَبْدُ مَعْرِفَةً باللّه عَزَّ وَجَلَّ وإجلالا له، ودركًا للدرجات العُلى فِي المعادِ، مَعَ ما فِي ظهوره لِلنَّاسِ من التَّوقيرِ لأمرك، والهَيْبَةِ لسلطانك، والأَنَسَةِ بك، والثِّقَةِ بِعَدْلك.
- وعَلَيْكَ بالاقتصادِ فِي الأُمُوْرِ كلها، فلَيْسَ شيءٌ أبينَ نفعًا، وَلا أحضرَ أمنًا، وَلا أجمعَ فَضْلا مِنْهُ، والقَصْدُ داعيةٌ إلى الرُّشْدِ، والرُّشْدُ دليلٌ عَلَى التَّوفيقِ، والتوفيقُ قائدٌ إلى السَّعادةِ، وقوامُ الدِّيْنِ والسننِ الهادية بالاقتصادِ، فآثِرْهُ فِي دُنياكَ كلها.
- ولا تقصرْ فِي طلبِ الآخِرَةِ والأجرِ والأعمالِ الصَّالِحَةِ والسننِ المَعْرُوفَةِ ومعالم الرُّشْدِ، فلا غايةَ للاستكثار من البرِّ والسعي إِلَيْهِ إِذَا كَانَ يَطْلُبُ بِهِ وجهُ اللّه تَعَالَى ومرضاتُهُ ومرافقةُ أوليائه فِي دارِ كرامته.
- وَاعْلَمْ أنَّ القَصْدَ فِي شأن الدُّنْيَا يُورِثُ العزَّ، ويحصِّنُ من الذُّنُوبِ، وإنك لن تحوطَ نَفْسَكَ ومن يَلِيْكَ وَلا تستصلحُ أُمُوْرَك بأفضلَ مِنْهُ، فَأْتِهِ، واهْتَدِ بِهِ تتمُّ أمُورُك، وتَزْدَدْ مقدرتُك، وتصلح خاصتك وعامتك.
- وأحسنْ الظَّنَّ باللّه عز وجل تستقمْ لَكَ رعيتُك، والتمسْ الوسيلةَ إِلَيْهِ فِي الأُمُوْرِ كلها تستدمْ بِهِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ.

- ولا تتهمنَّ أحدًا من النَّاسِ فيما تولِّيهِ من عَمَلِكَ قَبْلَ أن تكشفَ أمرَه بالتُّهمةِ، فَإنَّ إيقاعَ التُّهم بالبرآء، والظنونَ السَّيِّئَةِ بِهِمْ مأثم، فاجْعَلْ من شأنك حُسْنَ الظَّنِّ بأصْحَابك، واطردْ عَنكَ سوءَ الظَّنِّ بهم، وارفضْه فيهم يُعِنْكَ ذَلِكَ عَلَى اصطناعهم ورياضتهم، وَلا يجدنَّ عدوُّ اللّه الشَّيْطَانُ فِي أمرك مغمزًا، فَإنَّه إنَّمَا يكتفي بالقَلِيْلِ من وهنك، فيدخل عَلَيْكَ من الغم بسوءِ الظَّنِّ بِهِمْ ما ينغصك لَذَاذَةَ عيشك.
- وَاعْلَمْ أَنَّكَ تجد بحسن الظَّنِّ قوةً وراحةً، وتكتفي بِهِ ما أَحْبَبْتَ كفايته من أُمُوْرِك، وتدعو بِهِ النَّاسَ إلى محبتك والاستقامة فِي الأُمُوْرِ كلها لك.
- ولا يمنعنَّكَ حُسْنُ الظَّنِّ بأصْحَابك والرَّأفةُ برعيتكَ أن تستعملَ المَسْأَلَةَ، والبَحْثَ عَنْ أُمُوْرِك، والمباشرةَ لأُمُوْرِ الأولياءِ، والحياطةَ للرعيةِ، والنَّظَرَ فيما يقيمها ويصلحُها، بَلْ لتكُنْ المباشرةُ لأُمُوْرِ الأولياءِ، والحياطةُ للرَّعيةِ، والنَّظَرُ فِي حوائجهم وحملُ مؤوناتِهِمْ آثَرُ عِنْدَك مِمَّا سوى ذَلِكَ، فَإنَّه أقومُ للدِّيْنِ، وأحيا للسُّنةِ.
- واخلصْ نيتك فِي جَمِيْعِ هذا، وتفرّد بتقويم نَفْسِكَ تفرُّد من يَعْلَمُ أَنَّهُ مسؤول عَمَّا صنع، ومجزيّ بما أحسن، ومأخوذٌ بما أساءَ؛ فَإنَّ اللّه عز وجل جَعَلَ الدِّيْنَ حرزًا وعزًا، ورفع من اتبعه وعززه، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدِّيْنِ وطريقة الهدى.
- وأقمْ حدودَ اللّه عَزَّ وَجَلَّ فِي أَصْحَابِ الجرائم عَلَى قدر منازلهم وما استحقوه، وَلا تعطِّلْ ذَلِكَ، وَلا تتهاونْ بِهِ، وَلا تؤخِّرْ عقوبةَ أهل العقوبةِ، فَإنَّ فِي تفريطك فِي ذَلِكَ ما يفسد عَلَيْكَ حسن ظنك، واعزم عَلَى أمرك ذَلِكَ بالسنن المَعْرُوفَةِ، وجَانِبِ البِدَعَ والشُّبُهَاتِ يسلمْ لَكَ دِيْنُكَ، وتقمْ لَكَ مُروءَتك.
- وإذَا عاهدتَ عهدًا فَفِ بِهِ، وإذَا وعدتَ خَيْرًا فأنجزْه، واقبلِ الْحَسَنَةَ وادفعْ بها، وأغمضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ ذي عَيْبٍ من رعيتك، واشددْ لِسَانَكَ

عَنْ قول الْكَذبِ والـزور، وأبغضْ أهله، وأقْصِ أهلَ النَّميْمَةِ، فَإِنَّ أول فساد أُمُوْرِك فِي عاجلها وآجلها: تقريبُ الكذوب، والجرأة عَلَى الْكَذِبِ؛ لأنّ الْكَذِبَ رأسُ المآثم، والزُّورُ والنَّميْمَةُ خاتِمَتُها، لأَنَّ النَّميْمَةَ لا يسلمُ صَاحِبُها، وقائلها لا يسلم لَهُ صَاحِبٌ، وَلا يَسْتَقِيمُ لمطيعها أمرٌ.

- وأحبَّ أهلَ الصَّلاحِ والصِّدْقِ، وأعِنْ الأشرافَ بالحقِّ، وواصلْ وأعِنْ الضعفاءَ، وصلِ الرَّحِمَ، وابتغِ بذَلِكَ وجهَ اللّه تَعَالَى وإعزازَ أَمْرِهِ، والتمسْ فِيهِ ثوابَه والدَّارَ الآخِرَةَ.
- واجْتَنِبْ سوءَ الأهواءِ والجور، واصرف عَنْهُمَا رَأْيَكَ، وأظهر براءَتَك من ذَلِكَ لرعيّتك، وأنعِمْ بالعَدْلِ سياستهم، وقمْ بالحقِّ فيهم، وبالمَعْرِفَةِ التي تنتهي بِكَ إلى سبيلِ الهدى.
- واملكْ نَفْسَكَ عِنْدَ الغَضَبِ، وآثِرْ الوقارَ والْحِلْمَ، وإيَّاكَ والحدَّةَ والطيشَ والغرورَ فيما أَنتَ بسبيله، و إيَّاكَ أن تقول: أنا مُسلَّطٌ أفعل ما أشاء، فَإِنَّ ذَلِكَ سريعٌ فِيْكَ إلى نقصِ الرَّأيِ، وقلةِ اليقين باللّه عز وجل.
- وأخلصْ للّه وحده لا شريك لَهُ النِّيَّةَ فيه، واليقين بِهِ، وَاعْلَمْ أنّ الملكَ للّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى يؤتيه مَنْ يشاء، وينزعه مِمَّنْ يشاء، ولن تجد تغير النِّعْمَةِ وحلول النِّقْمَةِ إلى أحدِ أسرع مِنْهُ إلى حملة النِّعْمَةِ من أَصْحَابِ السُّلْطَانِ والمبسوط لَهُمْ فِي الدولة، إِذَا كَفَرُواْ نعم اللّه عز وجل وإحسانه، واستطالوا بما آتاهم اللّه عز وجل من فضله.
- ودَعْ عَنكَ شَرَهَ نَفْسِكَ، ولتكُنْ ذخائِرَكَ وكنوزَكَ التي تدَّخِرُ وتَكْنِزُ البرُّ والتَّقْوَى والعَدْلُ، واستصلاحُ الرَّعيَّةِ، وعمارةُ بلادِهم والتَّفَقُّدُ لأُمُوْرِهم، والحِفْظُ لدمائهم، والإغاثةُ لملهوفهم.
- وَاعْلَمْ أنَّ الأموالَ إِذَا كثرتْ وادُّخِرتْ فِي الخزائن لا تنمو، وإِذَا كَانَت فِي صلاحِ الرَّعيةِ، وإعطاءِ حقوقهم، وكَفِّ المؤنة عَنْهُمْ نَمَتْ وزَكَتْ وَرَبَتْ، وصَلُحَتْ بِهِ العامَّةُ، وتزينت بِهِ الولاية، وطاب بِهِ الزَّمَانِ،

واعتقد فِيهِ العز والمنعة، فليكُنْ كنْزُ خزائنك تفريقَ الأموالِ فِي عمارةِ الإسلام وَأَهْلِهِ، وفرّق مِنْهُ عَلَى أولياءِ أَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ قِبَلَكَ حقوقهم، وأوفِ رعيتك من ذَلِكَ حصصهم، وتعهَّد ما يُصْلِحُ أُمُوْرَهم ومعاشَهم، فَإِنَّك إِذَا فعلت ذَلِكَ قرَّتْ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ، واستوجبت المزيد من اللّه عَزَّ وَجَلَّ، وكُنْت بذَلِكَ عَلَى جبايةِ خراجِك، وجمْع أموالِ رعيتك وعَمَلِكَ أقدَرَ، وكَانَ الجَمِيْعُ لِما شملهم من عدلك وإحسانك أسلسَ لطاعتك، وأطيبَ أنفسًا لِكُلِّ ما أردت. فاجهد نَفْسَكَ فيما حددت لَكَ فِي هَذا الباب ولتعظم حسبتك فيه، فَإِنَّما يبقى من المَالِ ما أنفق فِي سبيل اللّه، واعْرِفْ للشاكرين شكرهم وأثبهم عَلَيْهِ.

- وإِيَّاكَ أن تُنسيك الدُّنْيَا وغرورُها هولَ الآخِرَةِ، فتتهاون بما يحق عَلَيْكَ، فَإِنَّ التَّهاونَ يُورِثُ التَّفريطَ، والتفريطُ يُورِثُ البوارَ. وليكُنْ عَمَلُكَ للّه وفيه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وارْجُ الثوابَ مِنْهُ، فَإِنَّ اللّه سُبْحَانَهُ قَدْ أسبغَ عَلَيْكَ نعمته فِي الدُّنْيَا، وأظهرَ لديك فضله، وقَضَى الحقَّ فيما حمل من النعم، والبِسْ من الكرامة، واعتصمْ بالشُّكر، وعَلَيْهِ فاعتمد، يزدك اللّه خَيْرًا وإحسانًا، فَإِنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ يثيب بقدر شكرِ الشاكرينَ وسيرةِ المحسنين.
- ولا تحقرنَّ ذنبًا، وَلا تُمالئنَّ حاسدًا، وَلا ترحمنَّ فاجرًا، وَلا تصلنَّ كفورًا، وَلا تداهننَّ عدوًا، وَلا تُصدِّقنَّ نمامًا، وَلا تأمننَّ غدارًا، وَلا توالينَّ فاسقًا، وَلا تتبعنَّ غاويًا، وَلا تحمدنَّ مرائيًا، وَلا تحقرنَّ إنسانًا، وَلا تردنَّ سائلا فَقيرًا، وَلا تحسننَّ باطلا، وَلا تلاحظنَّ مضحكًا، وَلا تخلفنَّ وعدًا، وَلا ترهبن فاجرًا، ولا تعملن غضبًا، ولا تباينن رجاءً، وَلا تأتين بذخًا، وَلا تمشين مرحًا، وَلا تركبن سفهًا، وَلا تفرطن فِي طلب الآخِرَةِ، وَلا ترفعن للنمام عينًا، وَلا تغمضن عَنْ ظالم رهبة مِنْهُ أو محاباة، وَلا تطلبن ثواب الآخِرَةِ بالدُّنْيَا.
- وأكثرْ مُشَاوَرَةَ الْفُقَهَاءِ، واستعملْ نَفْسَكَ بالْحِلْمِ، وخُذْ عَنْ أهل التَّجارب وذوي العَقْلِ والْحِكْمَةِ، وَلا تدخلن فِي مشورتك أهل الذمة والنِّحل،

وَلا تسمعن لَهُمْ قولا، فَإِنَّ ضررهم أكثر من نفعهم، ولَيْسَ شيء أسرع فسادًا لِما استقبلت فِيهِ أَمْرَ رعيتك من الشُّحِّ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْت حريصًا كُنْتَ كَثِيرَ الأخذ قليلَ العطية، وإِذَا كُنْت كذَلِكَ لَمْ يستقم لَكَ أمرك إلا قليلا، فَإِنَّ رعيتك إِنَّمَا تعقد عَلَى محبتك بالكفِّ عَنْ أموالهم، وترك الجور عَلَيْهِم.

- ويدوم صفاءُ أوليائك لَكَ بالإفضال عَلَيْهِم، وحسنِ العطيّة لَهُمْ، فاجْتَنِبْ الشُّح، وَاعْلَمْ أَنَّهُ أول ما عصى الإنسان بِهِ ربه، وأنَّ العاصي بِمَنْزِلَةِ خِزْي، وهو قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

- فسهّل طريقَ الجودِ بالْحَقِّ، وَاجْعَلْ للمسلمين كلهم من فيئك حظًا ونصيبًا، وأيقنْ أن الجودَ من أفضلِ أعمالِ العباد، فاعدده لِنَفْسِكَ خلقًا وارضَ بِهِ عملا ومذهبًا.

- وتفقدْ أُمُوْرَ الجندِ فِي دواوينهم ومكاتبهم، وأدرَّ عَلَيْهِم أرزاقهم، ووسِّعْ عَلَيْهِم فِي معايشِهِمْ، ليُذْهِبَ الله عز وجل بذَلِكَ فاقَتَهُم، فيَقْوَى لَكَ أَمْرُهم، وتزيدَ بِهِ قلوبَهم فِي طاعتِكِ وأمرك خلوصًا وانشراحًا.

- وحَسْبُ ذوي السُّلْطَانِ من السَّعادةِ أن يَكُوْنَ عَلَى جنده ورعيته ذا رحمةٍ فِي عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته، فزايلْ مكروه إحدى البليتين باستشعار فضيلة الباب الآخر، ولُزُوْمِ الْعَمَلِ بِهِ تلقَ -إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى- بِهِ نجاحًا وصلاحًا وفلاحًا.

- وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك، والسَّلام[2].

١- سورة الحشر: ٩. وسورة التغابن: ١٩.

٢- تاريخ الأمم والملوك: الطبريُّ. الكامل فِي التاريخ: لابن الأثير. مقدمة ابن خلدون: الفصل الحادي والخمسون، العمران البشري. مع اختلافات بسيطة فِي الوصية.

وَصِيَّةُ أمٍّ مَلِك

أوصتْ امْرَأَةٌ ابنَها، وكَانَ ملكًا، فقالت: يا بُنَيَّ يَنْبَغِي للملكِ أن يَكُوْنَ لَهُ ستة أشياء:

- وَزِيْرٌ يثقُ برأيِهِ ويُفْضِي إِلَيْهِ بأسرارِهِ.
- وحِصْنٌ يَلجَأُ إِلَيْهِ إِذَا فَزِعَ.
- وسَيْفٌ إِذَا نازلَ الأقرانَ لَمْ يخفْ أن يخونَهُ.
- وذَخِيْرةٌ خفيفةُ الحملِ إِذَا نابتْهُ نائبةٌ كَانَت معَهُ.
- وامْرَأَةٌ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ أذهبتْ هَمَّهُ.
- وطبَّاخٌ إِذَا لَمْ يَشْتَهِ الطَّعَامَ صَنَعَ لَهُ ما يَشْتَهِيْهِ[1].

وَصِيَّةٌ لمن يَصْحَبُ الملوك

ابن حمدون، مُحَمَّدُ بن الْحَسَنِ، أبو المعالي، بهاء الدِّيْنِ البغدادي (ت:٥٦٢هـ)، عالمٌ بالأدَبِ والأخبار من أهل بغداد، اختص بالمستنجد العباسي، ونادَمُهُ، فولاه (ديوان الزِّمام[2]) ولقّبَهُ (كافي الكُفَاة) ثم وقف المستنجد على حكايات لابن حمدون رواها في التذكرة، تُوهِمُ غضاضةً من الدولة، فقبض عليه، قال ابن قاضي شهبة: وأُخِذَ من دَسْتِ منصبه[3]، وحبس ولَم يزل محبوسًا إلى أن توفي، قالَ ابنُ حمدون:

- قالوا: من صَحِبَ المُلُوكَ وقرب مِنْهُم، يَنْبَغِي أن يَكُوْنَ جامعًا للخلال المحمودة.

١- الشهب اللامعة في السياسة النافعة: عبد الله بن يوسف المالقي، تحقيق د.سليمان الرفاعي، نشر مكتبة المدار الإسلامي. وقال: انظر سراج الملوك للطرطوشي.

٢- ديوان الزمام: يُعْنَى بالشئون المالية المدنية والعسكرية وفيه تُحفظُ السّجلات، وهو من التراتيب الإدارية في الدولة الإسلامية في ذلك الوقت.

٣- الدَّسْتُ: المُهْمَلة لغةٌ في (الدَّشْت) بالمُعْجَمة أَو هو الأَصلُ، ثم عُرِّب بالإِهمال واستعمله المتأَخِّرون بمعنى الدِّيوان ومجلِس الوِزارة والرئاسة.

- فأولها: العَقْلُ؛ فإنَّه رأس الفَضَائِل.
- والعلمُ؛ فإنَّه من ثمار العَقْلِ وَلا تليق صُحْبةُ المُلُوكِ بأهل الجهل.
- والودُّ؛ فإنَّه خُلُقٌ من أخلاق النَّفْسِ يولِّدُهُ العَدْلُ في الإنسان لذوي ودّه.
- والنَّصِيْحَةُ؛ وهي تابعة للودِّ وهو الَّذِي يبعث عَلَيْها.
- والوفاءُ؛ فإنَّه شيمةٌ لا تتم الصُّحبةُ إلا بها.
- وحِفْظُ السّر؛ وهو من صدقُ الوفاء.
- والعفَّةُ عَنِ الشَّهَوَاتِ والأموال.
- والصرامةُ؛ وهي شدة القَلْبِ، فإنَّ المُلُوكَ لا يجوز أن يَصْحَبُهم أولو النكول، وَلا ينال الجسيم من الأُمُوْرِ إلا الشُّجاع النَّجِدُ[1].
- والصِّدْقُ؛ فإنَّه من لا يصدق يكذب، ومضرة الكَذِبِ لا تُتَلافَى.
- وحُسْنُ الزِّي والهيئة؛ فإنَّ ذَلِكَ يزيد في بهاء الملك.
- والبِشْرُ في اللِّقَاءِ؛ فإنَّه يتألف بِهِ قلب من يلاقيه، وفي الكلوح تنفير عَنْ غَيْرِ ريبةٍ.
- والأَمَانَةُ فيما يُسْتَحفَظ.
- ورعايةُ الحَقِّ فيما يستودع.
- والعَدْلُ والإنصاف؛ فإنَّ العَدْلَ يُصْلِحُ السَّرائرَ ويجمل الظواهر، وبِهِ يخاصم الإنسان نَفْسَهُ إِذَا دعته إلى أَمْرٍ لا يحسن ركوبُهُ.
- ويَنْبَغِي لَهُ أن يجانب أضداد هَذِهِ الخلال.
- وألا يَكُوْنَ حسودًا؛ فإنَّ الحَسَدَ يفسد ما بَيْنَه وبَيْنَ النَّاسِ، وليفرقْ بَيْنَ الحَسَدِ والمنافسة، فإنهما يشتبهان عَلَى من لا يعقل.

١- رجلٌ نَجِدٌ: ماضٍ فيما لا يستطيعه سواه.

- وأن يخلو من اللَّجَاج والمَحْك، فإنَّ ذَلِكَ يَضُرُّ بالأفعال إِذَا وَقَعَ فِيهَا اشتراك[1].
- وأن لا يَكُوْنَ بذّاخًا، وَلا مُتكبِّرًا؛ فإنَّ البَذْخَ من دلائل سُقوطِ النَّفْسِ، والكِبْرَ من دواعي المَقْتِ.
- وأن لا يَكُوْنَ حريصًا؛ فإنَّ الحرصَ من ضيقِ النَّفْسِ، وشدَّةِ الطَّيْشِ، والبعدِ عَنِ الصَّبْرِ[2].
- ويَنْبَغِي أن لا يَكُوْنَ فدمًا وخمًا وَلا ثقيل الرُّوح؛ فَإنَّها صفة لا تليقُ بمن يلاقي المُلُوكَ، وأبدًا تَكُونُ سببًا للمَقْتِ من غَيْرِ جرم[3].
- وبالجملة: فالفَضَائِلُ والأَخْلاقِ المحمودة كَثِيرَة، وأولى النَّاسِ بطلب غاياتها المُلُوكُ كما هم الغاية، ثُمَّ أتباعهم، ثُمَّ سائر الرَّعية.

١- اللَّجَاج: التَّمادي، والمَحْكُ: اللَّجَاج في المنازعة.

٢- الحرْصُ: شدَّةُ الإرَادَةِ والشَّرَهِ إلَى المَطْلُوْب.

٣- الفَدْمُ: العَيِيُّ عن الحجّةِ والكلام مع ثقلٍ ورخاوةٍ وقلةِ فهمٍ، وهو أيضًا الغليظُ السَّمينُ الأحمقُ الجافي، وخُمَ الأمر: ثَقُل وصار رديئًا.

وصية للوزير

قال القلقشندي: الوزير وهو المتحدث للملك في أمر مملكته، واختلف في اشتقاقه؛ فقيل: مشتق من الوَزَر بفتح الواو والزاي، وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى: (كَلاَّ لا وَزَرَ) سمي بذلك لأن الرعية يلجأون إليه في حوائجهم. وقيل: مشتق من الأوزار، وهي الأمتعة، ومنه قوله تعالى: (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ) سمي بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك. وأمتعته. وقيل: مشتق من الوزر بكسر الواو وإسكان الزاي، وهو الثقل، ومنه قوله تعالى: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) سمي بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك وقيل مشتق من الأزر وهو الظهر، سمي بذلك لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر...

قال القضاعي في (عيون المعارف في أخبار الخلائف): وأول من لقب بالوزارة في الإسلام أبو سلمة، حفص بن سلمان الخلال، وزير السفاح، قال: وإنما كانوا قبل ذلك يقولون كاتب، ثم هو إما وزير تفويض، وهو الذي يفوض الإمام إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده، كما كانت الوزراء بالديار المصرية من لدن وزارة بدر الجمالي وإلى حين انقراضها، وإما وزير تنفيذ وهو الذي يكون وسيطًا بين الإمام والرعايا معتمدًا على رأي الإمام وتدبيره[1].

- يُوصَى الوزير بتقوى اللّهِ فَإِنَّهُ عليه رقيبٌ، وإليه أقربُ من كلِّ قريبٍ.
- فَلْيَجْعَلْهُ أمامَه، وليطْلُبْ منه لكلِّ ما شَرَعَ فيه تَمامَه.
- وليُجِلْ رأيَه في كلِّ ما تشدُّ به الدولةُ أَزْرَها، وتُسْنِدُ إليه ظهْرَها.
- وَلْيَجْعَلِ العدلَ أصلا يبني على أُسِّهِ، والعملَ في أمورِهِ كلها لسلطانِهِ لا لنفسِهِ.
- وَلْيَدَعْ منه الغَرَضَ جانبًا، وحظَّ النفسِ الذي لا يبدو إلا من العدوِّ ليُصْدِقَ من دعَاهُ صاحبًا.

١- صبح الأعشى: للقلقشندي.

- وليُبْصِرْ كيف يُثمِّرُ الأموالَ من جهاتِها، وكيف يخلِّصُ بيوتَ الأموالِ بالاقتصارِ على الدِّراهمِ الحلالِ من شُبُهاتِها.
- وليُنَزِّهْ مطاعمَ العساكرِ المنصورةِ عن أكلِ الحرام، فَإِنَّهُ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ، ولا يُرى به من العَيْنِ إلا ما يُحرِّمُ الْهُجُوعَ.
- وليحذرْ من هذا؛ فإنَّ المفاجىء به كالمُخاتِلِ، وليتجنَّبْ إطعامَ الجندِ منه، فإنَّ آكلَ الدِّرهمِ الحرامِ ما يُقاتِل.
- وليُحسنْ كيف يُولِّي ويعزِل، ويُسَمِّنُ ويُهزِل.
- وعليه بالكُفَاةِ الأمناءِ، وتَجَنُّبِ الخونةِ وإن كانوا ذوي غَنَاء.
- وإيَّاهُ والعَاجِزَ، ومن لو رأى المصلحةَ بين عينيهِ ألفى بينه وبينها ألفَ حاجز.
- وليطهِّرْ بابَهُ، ويسهِّل حجَّابَهُ.
- ويفكِّر فيما بَعُدَ أكثرَ مما قَرُبَ مقدِّمًا للأهمِّ فالأهمِّ من المصالحِ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر المُمَاسي والمُصابِح.
- ولا يستبدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبتتْ عندَه خيانَتُهُ، ولا يَدَعْ من جميل نظره من صحَّتْ لديه كفايتُهُ أو تحققت عنده أمانته.
- وليسلك أقصدَ الطُّرُقِ في أمرِ الرَّواتبِ التي هي من صدقاتنا الشريفةِ وصدقات من تقدَّم من الملوك، وهي إما لمن وجب له حقٌّ وإن كان غنيًا أو عرف صلاحه وهو صعلوكٌ.
- وكذلك ما هو لأيتام الجند الذين ماتوا على الطاعة، وأمثالهم ممن خدم دولتنا القاهرة بما استطاعه؛ فإن غالب من مات منهم لم يخلِّف لهم إلا ما نسمح لهم له من معروف، ونُجريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلفه الآباء للأبناء من المال المتملَّكِ والوقف الموقوف.
- وليصرفْ اهتمامَه إلى استخلاص مال اللّه الذي نحن أمناؤه، وبه يشغل أوقاتَه وتمتلىء كالإناء آناؤُه.

- فلا يدعُ شيئًا يجبُ لبيتِ المال المعمور من مستحقه، ولا يسمح في تخلية شيءٍ منه، كما أننا نوصيه أنه لا يأخذ شيئًا إلا بحقه.
- ولْيُبْقِ لأيامنا الزّاهرة بتواقيعه ذكرًا لا يَفْنَى، وبِرًّا لا يزال ثَمرُهُ الطيب من قلمه يُجْنَى.
- ليكون من رياح دولتنا التي تغتنم ما يثيره من سحابها المطير، وحسنات أيامنا التي ما ذكرنا وذكر معنا إلا وقيل: نعم الملكُ ونعمَ الوزير[١].

وقالَ ابْنُ أبِي الرَّبِيْعِ:

ومِمَّا يَجِبُ عَلَى الوزير:

- أن يَكُوْنَ خبيرًا بأَدَبِ التَّدْبِيْرِ والسنن والفرائض والأحكام.
- وأن يَكُوْنَ ذا نصحٍ للملكِ، وأمانةٍ، وصدقٍ، وقولٍ وفعلٍ ليعتمدَ عَلَيْهِ.
- أن ينهيَ إلى المَلِكِ كُلَّ كلامٍ يخافُ عاقبتَهُ عَلَى المملكةِ.
- ليجمعَ بذَلِكَ صدقَ الملك ونصحه والخروج من اللائمةِ عِنْدَ الحوادثِ.
- ويدمن النَّظَرَ في سير المُلُوكِ وتدابيرهم وتجاربهم.
- وأن يَجْعَلَ نهارَه للنظرِ في أمورِ العامةِ، وليلَهُ للنظرِ في أمورِ الخاصةِ.
- ويَنْبَغِي أن يوكل بنَفْسِهِ من يرفع أخبارَه إِلَيْهِ، فيتصفحها في خلوته.
- وليُمْضِ في الغدِ ما وافق الصَّوَابَ، ويتلافى ما يمكن تلافيه.
- وليكثر عيونه عَلَى الخاصة والعامة حَتَّى يَعْرِفَ أخلاقهم وأحوالهم.
- وأَنْ تَكُونَ شفقته عَلَى المَلِكِ كشفقته عَلَى نَفْسِهِ، وعلى الخاصة كحواسه وعلى العامة كأعضائه.
- وأن يحسنَ اختبارَ من يستعمِلُهُ في أعمالِ المَلِكِ، وَلا يسامح أحدًا في جنايته[٢].

١- صبح الأعشى: للقلقشندي.

٢- سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ١٩٥.

وَصِيَّةٌ فيما ينبغي على صاحب الشرطة

صَاحِبُ الشُّرَطةِ: رئيسُها، ورَجُلٌ شُرْطِيٌّ وشُرَطِيٌّ: منسوب إلى الشُّرَطةِ، سموا بذَلِكَ لأَنهم أَعَدُّوا لذَلِكَ وأَعْلَمُوا أَنفسَهم بعلامات، وقيل: هم أَول كتيبة تشهد الحَرْبَ وتتهيأُ للموت، وهم أيضًا أَوّل طائفة من الجيش تشهد الوَقْعة، قال أحدهم: أَعُوذُ باللهِ وبالأَمِيرِ... من عامِلِ الشُّرْطةِ والأُتْرُورِ. والأُتْرُور لغة في التُّؤْرُور مقلوب عنه، والتُّؤْرُورُ العَوْن يكون مع السلطان بلا رِزْقٍ، وقيل هو الجِلوازُ[1].

قالَ ابْنُ أَبِي الرَّبِيْعِ: وأَمَّا صَاحِبُ الشُّرَطةِ:

- فيَنْبَغِي أن يَكُوْنَ حَلِيمًا مَهِيْبًا، دائمَ الصَّمْتِ، طويلَ الفكرِ، بعيدَ الغَوْرِ.
- وأن يَكُوْنَ غليظًا عَلَى أهل الرِّيَبِ في تصاريفِ الحيَلِ، شديدَ اليقظةِ.
- وأن يَكُوْنَ حفيظًا، ظاهرَ النَّزاهة، عارفًا بمنازل العقوبةِ، غَيْرَ عَجُولٍ.
- ويَنْبَغِي أن يَكُوْنَ نظرُه شزرًا، قليلَ التَّبسُّمِ، غَيْرَ ملتفتٍ إلى الشَّفاعاتِ[2].
- وأن يَأْمُرَ أصْحَابَهُ بملازمة المحابيسِ، وتفتيشِ الأطعمةِ وما يدخلُ السُّجونَ.
- ولْيَأمُرِ الحرَّاسَ من أَوَّلِ اللَّيْلِ إلى آخِرِهِ بتفقُّدِ الدُّروبِ والشَّوارعِ، ويُحْكِمُ أَمْرَهَا.
- ولينظرها آخر وَقْتٍ، ومن يخرج مِنْهَا عِنْدَ فتحها، فهو وَقْتُ الرِّيبة.
- ويَجِبُ عَلَيْهِ عمارةُ سُوْرِ المدينةِ وأبوابِها، ولَمِّ شَعْثِها، ومَعْرِفَةِ من يَدْخُلُهَا.

١- لسان العرب.

٢- نَظَرٌ شَزْرٌ: فيه إعراض كنظر المعادي المبغض، وقيل: هو النظر عن يمين وشمال، وأَكثر ما يكون النظرُ الشَّزْرُ في حال الغضب.

- ويَجِبُ عَلَيْهِ إقامةُ الحدودِ، كما وردتْ في الكتابِ العزيزِ، والْعَمَلُ بها.
- وليعلمْ أنَّ اللهَ تَعَالَى أعلمُ بصلاحِ عِبَادِهِ، فلا يهملُ من حدودِهِ شيئًا.
- وإِذَا أفرجَ عَنْ أحدٍ من السِّجْنِ، ثُمَّ عاد يُجْرِمُ فليَجْعَلِ الحبسَ قَبْرَهَ.
- وليمنع المظلومَ من الانتصارِ لنَفْسِهِ بِيَدِهِ، بَلْ ينهي حالَهُ ليقابل بما يستحقُّ.
- ويَأْمُرُ العامَّةَ أنْ لا يُجيروا أحَدًا، ينبهوه للهرَبِ، بَلْ يدلون عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الضَّررَ يعودُ إِلَيْهِم.
- ويَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عقوبتُهُ للخاصِّ والعامِّ واحدةً، كما أمرتْ الشَّريعةُ[1].

١- سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٢٠١.

الْوَصِيَّةُ باختيار الحاجب

قال ابن أبي الربيع: وأمَّا الحاجبُ: فهو الواسطةُ بَيْنَ المَلِك وبَيْنَ من يُريدُ لقاءَه، ليرتِّبَ النَّاسَ بَيْنَ يدي المَلِكِ، كما يليقُ بِمَجْلِسِهِ؛ وصفتُهُ:

- يَجِبُ أن يَكُوْنَ فَهِمًا ذا خُلُقٍ واسعٍ، ومنطِقٍ بارعٍ.
- وأن يَكُوْنَ طويلا ، جسيمًا وسيمًا، لتروعَ العيونَ هيأتُهُ وهيبتُهُ.
- وأن يَكُوْنَ ذا عقلٍ وحِكْمَةٍ يدلانه عَلَى صوابِ ما يأتي ويَذَرُ.
- ويَنْبَغِي أن يَكُوْنَ لا مكفهرًا وَلا سهلا للانقيادِ.
- ويَجِبُ عَلَيْهِ أن يَعْرِفَ مراتبَ الدَّاخلين عَلَى المَلِك فينـزلَهم.
- ولا يَنْبَغِي الإذْنُ عِنْدَ جلوسِ المَلِكِ، وَلا يطلقُهُ عِنْدَ خَلوتِهِ.
- ويَجِبُ عَلَيْهِ أن يَعْرِفَ سِيَرَ المُلُوكِ وقواعدَهم، وخاصَّةَ المَلِكِ وعامَّتَهُ.
- وليَعْرِفْ من تأخَّرَ مِنْهُم ليجيبَ السُّلْطَانَ إذا سألَ عَنْهُ.
- ولْيَأمُرْ مَنْ يَسِيْرُ بَيْنَ يدي المَلِكِ بِبُعْدِهِمْ عَنْ ركابِهِ.
- وليَمْنَعِ العوامَّ من التَّعرضِ لركابِهِ بالقصصِ ولْيَأمُرْ بأخذها مِنْهُم.
- ويَجِبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاةُ الوزيرِ، والامتثالُ لأمرِهِ لأَنَّهُ المشار إِلَيْهِ دُوْنَه.
- ويَنْبَغِي أن يَعْرِفَ أخبارَ المَلِكِ في كُلِّ وَقْتٍ، ويوصلَ إِلَيْهِ الأخبارَ.
- ولْيَأمُرِ البوَّابينَ بإنهاءِ ما يردُ عَلَيْهِم لئلا يخفى عَنْهُ من دارِ المَلِكِ شيءٌ.
- وليَعْرِفِ الأوقاتَ الني يَجْلِسُ فِيهَا المَلِكِ، والأوقاتَ التي يَكُوْنُ في خلوتِهِ.
- ويَنْبَغِي لَهُ أن يُرَاعِيَ خواصَّ المَلِكِ، ويكرمَهُم ويَعْرِفَ مواضِعَهُمْ، وَلا يُفْسِحُ لأحدٍ مِنْهُم الدُّخولَ عَلَيْهِ إلا بإذنِهِ ولو كَانَ وَلَدًا[1].

١- سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ١٩٩.

وصية زياد لحاجبه عجلان

- قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس؟

قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب.

قال: فمن تؤخِّر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم. قال: ومن هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف، وكسوة الصيف في الشتاء[١].

فقال: وليتك حجابي، وعزلتك عن أربع:

- هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح: فلا تُعَوِجَنَّهُ عني، ولا سلطانَ لكَ عليه[٢].
- وطارقُ الليل: فلا تحجبه؛ فَشَرٌّ ما جاءَ به، ولو كان خيرًا ما جاء في تلك الساعة[٣].
- ورسول الثَّغْر: فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة؛ فأدخله عليّ وإن كنت في لحافي[٤].
- وصاحب الطعام: فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد[٥].

١- العقد الفريد: لابن عبد ربه.

٢- عاجَ وعَوَّجَ وتَعَوَّجَ: عَطَفَ.

٣- كل آتٍ بالليل طَارِقٌ، وقيل: أَصل الطُّروقِ من الطَّرْقِ وهو الدَّق، وسمي الآتي بالليل طَارِقًا لحاجته إلى دَقّ الباب.

٤- الثغر الموضع الذي يكون حدًّا فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من أَطراف البلاد.

٥- صبح الأعشى: للقلقشندي.

وصية لناظر الخزانة

قال القلقشندي: وهذه وصية لناظر الخزانة أوردها في التعريف.

- وليَمْلأ بنظرِهِ صدورَ الخزائن، وليجمع فيها أشتاتَ المحاسن.
- وليعدّ فيها كل ما يدّخر للإنفاق، ويحتفظ به للإطلاق.
- ويحصِّلُ ما يضاهي البحرَ بالتفريع والتأصيل، والجمل والتفاصيل.
- وما لا يوزن إلا بالقناطير، ولا يحصي منه ملء الأساطير.
- وما يهيأ من التشاريف الشريفة التي تباهي أشعة الشموس بلمعها، وتحاسن وشائع الروض بخلعها[١].
- وما فيها من مخلقات ألوانٍ لا تماثل بتصوير، ولا يظنها الأولياء إلا الجنة ولباسهم فيها حرير.
- وما تحتوي عليه من عَتّابِيّ وأطلس، ومشربش ومقندس[٢].
- وكل طراز مذّهب وباهي، وما هو من ذهب أو له يضاهي[٣].
- وكل ما يتشرف به صاحب سيف وقلم، ويعطى إنعامًا أو عند أول استخدام في خدم.
- وما هو مع هذا من أنواع المستعملات، والنواقص والمكملات.
- ومايحمل من دار الطراز، ويحمد مما يأتي من المبتاع من بزّ وبزاز[٤].
- وماهو مرصد للخزانة العالية من الجهات، التي يحمل إليها متحصلها لينفق في أثمان المبيعات.

١- التَّشاريف: ما يَخْلَعُه المَلِكُ على خلاص وُزَرائه.

٢- عَتّابِيّ: نَسِيجٌ حَرِيرِيّ. والطُّلْسَةُ وهي الغُبْرَةُ إلى السواد.

٣- الطراز: الرقام الذي يعمل الطراز أو يطرز الثياب ونحوها بخيوط الحرير أو بأسلاك الذهب أو الفضة. والطرَازُ: دَخِيلٌ مُعَربٌ. والتَطَرُزُ في الثِّيَاب: التنَوقُ فيها.

٤- ديوان الطراز: من الدواوين التي أسست في العهد العباسي ويشرف على المعامل التي كانت تنتج الأزياء الرسمية والرايات، ويشرف على أمور الصاغة والحاكة، ويجري عليهم الأرزاق ويتفقد أعمالهم.

- وما يستعمل وما يعلم منه بالطرز ويعمل، وبقية ما يدخر في حواصلها من مال بيت المال الذي يحمل.
- وذلك كله فهو الناظر عليه، والمناظر عنه مما خرج من عنده ووصل إليه، والمحاجج عنه بالمراسيم التي، تشك للحفظ وتنـزل لديه.
- فليُراعِ ذلك جميعه حقَّ المراعاة وليحرّز قدر ما ينفق من الأثمان وقيمة المبيعات، وليحترز فيما يزكي بعضه بعضًا من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرجعات.
- وليعر العاملين من نظره ما لا يجدون معه سبيلا، ولا يقدرون معه على أن يأخذوا فوق قدر استحقاقهم كثيرًا ولا قليلا.
- وليقدم تحصيل كل شيءٍ قبل الاحتياج إليه ويدعه لوقته، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذي متى تأخر أخر لوقته.
- والأمانة الأمانة، والعفاف العفاف، فما كان منهما واحد رداء امريءٍ إلا زانه، ولولاهما لما قال له الملك إنك اليوم لدينا مكين أمين وسلم إليه الخزانة[1].

١- صبح الأعشى: للقلقشندي ١١/ ٣٣٨.



الفصل السادس

وصايا في الطب وصحة الإنسان

عِلْمُ الطبِّ

عِلْمُ الطبِّ:

عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ بدن الإنسان من جهة ما يُصِحُّ ويمرض، لحِفْظِ الصِّحَّةِ وإزالةِ المَرَضِ،

وأوّلُ من دوَّنَ فيه: أبقراط الحكيم، ثُمَّ جالينوس الحكيم.

يقال: كَانَ الطبُّ معدومًا فأوْجدَه أبقراط، وكَانَ مَيِّتًا فأحياه جالينوس، وكَانَ متفرّقًا فجمعه الرَّازي، وكَانَ ناقصًا فأكمله ابن سينا.

يروى عَنْ سَيِّدِنَا علي رضي الله عنه قوله: العلوم خمسة، الفقه للأدْيان، والطبُّ للأبدان، والهندسة للبنيان، والنَّحو للِّسان، والنُّجوم للزّمان.

أسباب الأمراض:

اتَّفَقَ أَطِبَّاءُ الْفُرْسِ وَالرُّوم وَالْهِنْدِ أَنَّ جَمِيعَ الأَمْرَاضِ تَتَوَلَّدُ مِنْ سِتَّةٍ: كَثْرَةِ الْجِمَاعِ، وَقِلَّةِ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ، وَكَثْرَةِ النَّوْمِ فِي النَّهَارِ، وَحَبْسِ الْبَوْلِ، وَشُرْبِ الْمَاءِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَإِدْخَالِ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ.

وقيل: أَرْبَعَةٌ يَهْدِمْنَ الْعُمْرَ وَرُبَّمَا يَقْتُلْنَ: دُخُولُ الْحَمَّامِ مَعَ الْبِطْنَةِ، وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِّ، وَالْغَشَيَانُ عَلَى الامْتِلاءِ، وَمُجَامَعَةُ الْعَجُوزِ.

وَصِيَّةٌ جامعةٌ للحارث بن كَلَدة للناس

الحارث بن كلدة بن عمر بن علاج الثقفي طبيب العرب فِي وقته، أصله من ثقيف من أهل الطائف. رحل إِلَى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تِلْكَ الديار من أهل جند يسابور وغيرها فِي الجاهلية وقبل الإسلام، وجاد فِي هَذِهِ الصناعة وطبّ بأرض فارس، وعالج وحصل لَهُ بذلك مال هناك، وشهد أهل بلد فارس ممن رآه بعلمه، وَكَانَ قَدْ عالج بعض أجلائهم فبرأ وأعطاه مالا وجارية سماها الحارث سمية، ثُمَّ أن نفسه اشتاقت لبلاده فرجع إِلَى الطائف. وله محاورة فِي الطب بَيْنَه وبَيْنَ كسرى أنو شروان، ذكرها ابنُ أبي أصيبعةَ.

لَمَّا احْتُضِرَ الحارث بن كلدة اجتمع النَّاسُ إِلَيْهِ، فقالوا: مرنا بأمر ننتهي إِلَيْهِ بَعْدَك[1].

- فقالَ: لا تَتَزَوَّجُوا من النِّسَاءِ إلا شابَّةً.
- ولا تأكلوا من الفاكهةِ إلاّ فِي أوانِ نُضْجِها.
- ولا يتعالَجَنَّ أحدُكم ما احتملَ بدنُهُ الدَّاءَ.
- وعَلَيْكُمْ بتنظيفِ المَعِدَةِ كلَّ شَهْرٍ، فَإِنَّها مُذيبةٌ للبلغَمِ، مُهلِكةٌ للمِرَّةِ، مُنْبِتَةٌ لِلَّحْمِ[2].
- وإِذَا تغدَّى أحدُكم فلينمْ عَلَى إِثر غَدائِهِ ساعةً.
- وإِذَا تعشَّى فَلْيَمْشِيَنَّ أربعينَ خُطْوَةً[3].

١- الاستيعاب: لابن عبد البرّ. عيون الأنباء فِي طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة، أحمد بن قاسم. أخبار العلماء بأخيار الحكماء: القفطي.

٢- والمِرّة: خلط من أخلاط البدن، وهو المسمى المزاج، والمَرارَةُ التي فيها المِرَّةُ، يقال: غلبت عليه المرة: أي هاجت (المعجم الوجيز).

٣- زاد المعاد: ٤ / ٤٠٨.

وصية ابن القيم للأطباء الحاذقين

قال ابن القيم رحمه الله: وَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ هُوَ الَّذِي يُرَاعِي فِي عِلاجِهِ عِشْرِينَ أَمْرًا :

- أَحَدُهَا : النَّظَرُ فِي نَوْعِ الْمَرَضِ مِنْ أَيِّ الْأَمْرَاضِ هُوَ.
- الثَّانِي : النَّظَرُ فِي سَبَبِهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ حَدَثَ وَالْعِلَّةُ الْفَاعِلَةُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ حُدُوثِهِ مَا هِيَ.
- الثَّالِثُ : قُوَّةُ الْمَرِيضِ وَهَلْ هِيَ مُقَاوِمَةٌ لِلْمَرَضِ أَوْ أَضْعَفُ مِنْهُ؟ فَإِنْ كَانَتْ مُقَاوِمَةً لِلْمَرَضِ مُسْتَظْهِرَةً عَلَيْهِ تَرَكَهَا وَالْمَرَضَ وَلَمْ يُحَرِّكْ بِالدَّوَاءِ سَاكِنًا.
- الرَّابِعُ : مِزَاجُ الْبَدَنِ الطَّبِيعِيِّ مَا هُوَ.
- الْخَامِسُ : الْمِزَاجُ الْحَادِثُ عَلَى غَيْرِ الْمَجْرَى الطَّبِيعِيِّ .
- السَّادِسُ : سِنُّ الْمَرِيضِ .
- السَّابِعُ : عَادَتُهُ .
- الثَّامِنُ : الْوَقْتُ الْحَاضِرُ مِنْ فُصُولِ السَّنَةِ وَمَا يَلِيقُ بِهِ .
- التَّاسِعُ : بَلَدُ الْمَرِيضِ وَتُرْبَتُهُ .
- الْعَاشِرُ : حَالُ الْهَوَاءِ فِي وَقْتِ الْمَرَضِ .
- الْحَادِيَ عَشَرَ : النَّظَرُ فِي الدَّوَاءِ الْمُضَادِّ لِتِلْكَ الْعِلَّةِ .
- الثَّانِيَ عَشَرَ: النَّظَرُ فِي قُوَّةِ الدَّوَاءِ وَدَرَجَتِهِ وَالْمُوَازَنَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قُوَّةِ الْمَرِيضِ .
- الثَّالِثَ عَشَرَ : أَلا يَكُونَ كُلُّ قَصْدِهِ إِزَالَةَ تِلْكَ الْعِلَّةِ فَقَطْ، بَلْ إِزَالَتُهَا عَلَى وَجْهٍ يَأْمَنُ مَعَهُ حُدُوثَ أَصْعَبِ مِنْهَا؛ فَمَتَى كَانَ إِزَالَتُهَا لا يَأْمَنُ مَعَهَا

حُدُوثَ عِلَّةٍ أُخْرَى أَصْعَبَ مِنْهَا أَبْقَاهَا عَلَى حَالِهَا، وَتَلْطِيفِهَا هُوَ الْوَاجِبُ، وَهَذَا كَمَرَضِ أَفْوَاهِ الْعُرُوقِ؛ فَإِنَّهُ مَتَى عُولِجَ بِقَطْعِهِ وَحَبْسِهِ خِيفَ حُدُوثُ مَا هُوَ أَصْعَبُ مِنْهُ.

- الرَّابِعَ عَشَرَ: أَنْ يُعَالِجَ بِالأَسْهَلِ فَالأَسْهَلِ، فَلا يَنْتَقِلُ مِنَ الْعِلاجِ بِالْغِذَاءِ إِلَى الدَّوَاءِ إلا عِنْدَ تَعَذُّرِهِ، وَلا يَنْتَقِلُ إِلَى الدَّوَاءِ الْمُرَكَّبِ إلا عِنْدَ تَعَذُّرِ الدَّوَاءِ الْبَسِيطِ، فَمِنْ حِذْقِ الطَّبِيبِ عِلاجُهُ بِالأَغْذِيَةِ بَدَلَ الأَدْوِيَةِ، وَبِالأَدْوِيَةِ الْبَسِيطَةِ بَدَلَ الْمُرَكَّبَةِ.

- الْخَامِسَ عَشَرَ: أَنْ يَنْظُرَ فِي الْعِلَّةِ هَلْ هِيَ مِمَّا يُمْكِنُ عِلاجُهَا أَوْ لا؟ فَإِنْ يُفِيدُ شَيْئًا. وَإِنْ أَمْكَنَ عِلاجُهَا نَظَرَ هَلْ يُمْكِنُ زَوَالُهَا أَمْ لا؟ فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ زَوَالُهَا نَظَرَ هَلْ يُمْكِنُ تَخْفِيفُهَا وَتَقْلِيلُهَا أَمْ لا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَقْلِيلُهَا وَرَأَى أَنَّ غَايَةَ الإِمْكَانِ إِيقَافُهَا وَقَطْعُ زِيَادَتِهَا قَصَدَ بِالْعِلاجِ ذَلِكَ وَأَعَانَ الْقُوَّةَ وَأَضْعَفَ الْمَادَّةَ.

- السَّادِسَ عَشَرَ: أَلا يَتَعَرَّضَ لِلْخَلْطِ قَبْلَ نُضْجِهِ بِاسْتِفْرَاغٍ بَلْ يَقْصِدُ إِنْضَاجَهُ فَإِذَا تَمَّ نُضْجُهُ بَادَرَ إِلَى اسْتِفْرَاغِهِ.

- السَّابِعَ عَشَرَ: أَنْ يَكُونَ لَهُ خِبْرَةٌ بِاعْتِلالِ الْقُلُوبِ وَالأَرْوَاحِ وَأَدْوِيَتِهَا، وَذَلِكَ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي عِلاجِ الأَبْدَانِ، فَإِنَّ انْفِعَالَ الْبَدَنِ وَطَبِيعَتَهُ عَنِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ أَمْرٌ مَشْهُودٌ، وَالطَّبِيبُ إِذَا كَانَ عَارِفًا بِأَمْرَاضِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَعِلاجِهِمَا كَانَ هُوَ الطَّبِيبَ الْكَامِلَ، وَالَّذِي لا خِبْرَةَ لَهُ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ حَاذِقًا فِي عِلاجِ الطَّبِيعَةِ وَأَحْوَالِ الْبَدَنِ نِصْفُ طَبِيبٍ. وَكُلُّ طَبِيبٍ لا يُدَاوِي الْعَلِيلَ بِتَفَقُّدِ قَلْبِهِ وَصَلاحِهِ وَتَقْوِيَةِ رُوحِهِ وَقُوَاهُ بِالصَّدَقَةِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَالإِحْسَانِ وَالإِقْبَالِ عَلَى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ، فَلَيْسَ بِطَبِيبٍ بَلْ مُتَطَبِّبٌ قَاصِرٌ، وَمِنْ أَعْظَمِ عِلاجَاتِ الْمَرَضِ فِعْلُ الْخَيْرِ وَالإِحْسَانِ وَالذِّكْرُ وَالدُّعَاءُ وَالتَّضَرُّعُ وَالابْتِهَالُ إِلَى اللهِ وَالتَّوْبَةُ، وَلِهَذِهِ الأُمُورِ تَأْثِيرٌ فِي دَفْعِ الْعِلَلِ وَحُصُولِ الشِّفَاءِ أَعْظَمُ مِنَ الأَدْوِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَلَكِنْ بِحَسَبِ

اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ وَقَبُولِهَا وَعَقِيدَتِهَا فِي ذَلِكَ وَنَفْعِهِ.

- الثَّامِنَ عَشَرَ : التَّلَطُّفُ بِالْمَرِيضِ وَالرِّفْقُ بِهِ كَالتَّلَطُّفِ بِالصَّبِيِّ .
- التَّاسِعَ عَشَرَ : أَنْ يَسْتَعْمِلَ أَنْوَاعَ الْعِلاجَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالإِلَهِيَّةِ وَالْعِلاجَ بِالتَّخْيِيلِ، فَإِنَّ لِحُذَّاقِ الأَطِبَّاءِ فِي التَّخْيِيلِ أُمُورًا عَجِيبَةً لا يَصِلُ إِلَيْهَا الدَّوَاءُ، فَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ يَسْتَعِينُ عَلَى الْمَرَضِ بِكُلِّ مُعِينٍ .
- الْعِشْرُونَ : وَهُوَ مِلاكُ أَمْرِ الطَّبِيبِ ، أَنْ يَجْعَلَ عِلاجَهُ وَتَدْبِيرَهُ دَائِرًا عَلَى سِتَّةِ أَرْكَانٍ: حِفْظُ الصِّحَّةِ الْمَوْجُودَةِ، وَرَدُّ الصِّحَّةِ الْمَفْقُودَةِ، بِحَسَبِ الإِمْكَانِ أَدْنَى الْمَفْسَدَتَيْنِ لإِزَالَةِ أَعْظَمِهِمَا، وَتَفْوِيتِ أَدْنَى الْمَصْلَحَتَيْنِ لِتَحْصِيلِ أَعْظَمِهِمَا، فَعَلَى هَذِهِ الأُصُولِ السِّتَّةِ مَدَارُ الْعِلاجِ، وَكُلُّ طَبِيبٍ لا تَكُونُ هَذِهِ أَخِيَّتَهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا فَلَيْسَ بِطَبِيبٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

١- زاد المعاد : لابن القيم (٤/ ١٤٥). ط .الرسالة.

وَصِيَّةٌ بما ينبغي أن يكون عليه الحكيم

الحِكْمَةُ: علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية[1]. وقيل: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لِمَنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيمٌ.

- وأما الْحَكِيْمُ: فيَنْبَغِي أن يَكُوْنَ حاذقًا، لطيفًا، رقيقًا، طويل الفكرة.
- وأن يَكُوْنَ صحيحَ الرُّؤيةِ، كَثِيرَ الدَّرْسِ في الكتب القديمة.
- ويَجِبُ أن يَكُوْنَ عالِمًا بمجرى عِلْمِ الطبِّ وعمله.
- وأن يَكُوْنَ كثيرَ العلاجِ والتَّجارِبِ، عالِمًا بالمجازاتِ.
- ويَنْبَغِي أن يَكُوْنَ ديِّنًا، خيِّرًا، مأمونَ السِّيْرَةِ.
- ويَجِبُ أن يَكُوْنَ ثوبُهُ نظيفًا، ورائحتُهُ طيِّبةٌ.
- ويَنْبَغِي أن يَكُوْنَ عارفًا بالعقاقيْرِ والأدويـةِ والأغذيةِ وأن يَكُوْنَ عالِمًا بمفردها ومركَّبِها وجيِّدِها ورديئِها.
- وأن يَكُوْنَ بصيرًا بفصولِ السَّـنَةِ وأوقاتِ الاعتدالِ.
- وليَعْرِفِ المياهَ والأهويةَ والبلدانَ وما يُسْتعملُ فِيهَا.
- ويَنْبَغِي أن يَكُوْنَ عارفًا بأحكامِ النُّجومِ وتسييْراتِها[2].

وأن يَعْتَنِيَ بعِلْمِ الاختيارات[3]، لِكَثْرَةِ حاجة الْمُلُوكِ إِلَيْها[4].

١- التعريفات: للجرجاني.

٢- علم النجوم: هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث ... (مقدمة ابن خلدون).

٣- علم الاختيارات: هو من فروع علم النجوم. فهو علم باحث عن أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر الجاريين في العالم السفلي بحسب تبدل أحوال القمر في منازله، وأوضاع الكواكب... (أبجد العلوم: السيد صديق حسن خان بهادر القنوجي).

٤- سلوك المالك في تدبير الممالك: لابن أبي الربيع، ص ٢٠٤.

وصية متطبب طبائعي

قالَ مُتَطبِّبٍ طبائعيٍّ في وَصيَّتِهِ:

- وليتعرَّفْ أولا حقيقةَ المرضِ بأسبابِهِ وعلاماتِهِ، ويستقصِ أعراضَ المريضِ قبل مُداواتِهِ، ثُمَّ ينظرُ إلى السِّنِّ، والفَصْلِ، والبَلَدِ.
- ثُمَّ إذا عرفَ حقيقةَ المرضِ، وقَدْرَ ما يَحْتمِلُهُ المزاجُ من الدَّوَاءِ لما عَرَضَ يشرعُ في تخفيفِ الحاصلِ، وقَطْعِ الواصلِ، مع حفظِ القوى.
- ولا يهاجِمُ الدَّاءَ، ولا يستغربُ الدَّوَاءَ، ولا يُقْدِمُ على الأبدانِ إلا بما يلائمُها، ولا يُبْعِدُ الشُّبَهَ، ولا يخرجُ عن جادَّةِ الأطبَّاءِ، ولو ظنَّ الإصابةَ حتى يقْوَى لديْهِ الظنُّ ويتبصَّرُ فيه برأيِ أمثالِهِ.
- وليتجنَّبِ الدَّوَاءَ، ما أمكنَهُ المعالجةُ بالغذاءِ، والمُرَكَّبِ، ما أمكنَهُ المعالجةُ بالمفردِ.
- وإيَّاهُ والقياسَ إلا ما صَحَّ بتجريبِ غيْرِهِ في مثلِ مِزاجٍ من أخذَ في علاجِهِ؛ وما عرَضَ لَهُ، وسِنِّهِ، وفصلِهِ، وبلدِهِ، ودرجةِ الدَّوَاءِ.
- وليحذرْ من التَّجرِبَةِ، فقد قالَ أبقراط (وهو رأسُ القومِ): إنَّها خَطَرٌ.
- ثُمَّ إذا اضْطُرَّ إلى وصفِ دواءٍ صالحٍ للعِلَّةِ نظر على ما فيه من المنافاةِ وإنْ قَلَّتْ، وتَحَيَّلَ لإصلاحِهِ بوصفٍ يَصْلُحُ معه، مع الاحترازِ في وصفِ المقاديرِ والكميَّاتِ والكيفيات، في الاستعمالِ والأوقاتِ، وما يتقدَّمُ ذلكَ الدَّوَاءَ أو يتأخَّرُ عنه.
- ولا يَأْمُرُ باستعمالِ دواءٍ، ولا ما يُسْتغربُ من غذاءٍ حتى يُحقِّقَ حقيقتَهُ، ويعرفَ جديدَه من عتيقِهِ؛ ليعرِفَ مقدارَ قوَّتِهِ في الفعلِ.
- وليعْلَمْ أنَّ الإنسانَ هو بُنْيَةُ اللهِ ومَلعُونٌ من هَدَمَها وأنَّ الطبيعَةَ مكافِئَةٌ وبُؤْسَى لمن ظَلَمَها وقد سلَّمَ الأرواحَ، وهي وديعةُ اللهِ في هذه الأجسام فليحفظْها وليتقِّ اللهَ ففي ذلكَ جميعُ الأقسام وإيَّاهُ ثُمَّ إيَّاهُ أنْ يصفَ

دواءً ثُمَّ يكونُ هو الذي يأتي به أو يكونُ هو الذي يدُلُّ عليه أو المتولِّي لمناولتِهِ للمريضِ ليستعملَهُ بين يديه وفي هذا كلِّهِ للّهِ المنَّةُ ولنا إذ هديْناهُ له وأرشدْناهُ إليه[1].

وَصِيَّةُ الإمام الشافعي رضي الله عنه فيما يقوّي البدن والبَصَرَ والعَقْلِ

قال الإمـامُ الشَّافعيُّ رضي اللّه عنه:

- أرْبَعَةٌ تقوي البدن: أكلُ اللَّحْمِ، وشمُّ الطِّيْبِ، وكَثْرَةُ الغُسْلِ من غيْرِ جماع، ولبسُ الكَتان.
- وأرْبَعَةٌ توهنُ البدنَ: كَثْرَةُ الجماعِ، وكَثْرَةُ الْهمِّ، وكَثْرَةُ شرب الماء عَلَى الرِّيق، وكَثْرَةِ أكل الحامض.
- وأرْبَعَةٌ تقوّي البَصَرَ: الجلوسُ حيالَ الكعبة، والكُحْلُ عِنْدَ النَّوْمِ، والنَّظَرُ إلى الخُضْرةِ، وتنظيفُ المَجْلِسِ.
- وأرْبَعَةٌ توهِنُ البَصَرَ: النَّظرُ إلى القَذَرِ، وإلى المَصلوبِ، وإلى فرجِ المَرأةِ، والقعودُ مستدبرَ القبلةِ.
- وأرْبَعَـةٌ تزيدُ في الجمـاعِ: أكـلُ العَصَافيْرِ، والإطريفلِ، والفُسْتُقِ، والخَرُّوبِ[2].
- وأرْبَعَةٌ تزيدُ في العَقْلِ: تركُ الفضولِ من الكلامِ، والسِّواكُ، ومجالسةُ الصَّالِحِينَ، ومجالسةُ العُلَمَاءِ[3].

١- صبح الأعشى: للقلقشندي.

٢- الإطريفل: علاج مركب يقوي المعدة، وينشف رطوبتها، ويمنع البخار المتراقي إلى الرأس، ويجلو البصر. وهو نوعان: إطريفل كبير على رأي جالينوس، وإطريفل صغير. وأفرد له (خليفة) فصلا كاملا ص٥٣٨ من كتابه الكافي للإطريفلات. انظر: (أمراض العين وعلاجها: لابن سينا بتحقيق: د. الوفائي ود. محمد رواس قلعه جي) والخَروب بوزن التنور: شجر مثمر من الفصيلة القرنية ثماره قرون تؤكل وتعلفها الماشية.

٣- زاد المعاد: لابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، وقالا: راجع آداب الشافعي ص: ٣٢٣. والآداب الشرعية: ٢/٣٩٠.

وَصِيَّةُ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ليَحْيَى بن يَحْيَى الليثي

يقالُ: إنَّ مالكًا رضي الله عنه لَمَّا ودعَ يَحْيَى بن يَحْيَى قال له: أُوَصِيْكُم بأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ[1]:

- الأولى: أَجْمَعُ لَكَ فِيهَا فِقْهَ الْفُقَهَاءِ؛ إِذَا سئلت عَنْ شيء لا تعرِفُهُ فقل: لا أدري.
- والثَّانيةُ: أَجْمَعُ لَكَ فِيهَا حِكْمَةَ الحُكَمَاءِ؛ إِذَا جالستَ قومًا فكُنْ أَصْمَتَهم، فإن أصابوا أصبتَ مَعَهُمْ، وإنْ أخطئوا سلمتَ.
- والثالثةُ: أَجْمَعُ لَكَ فِيهَا طبَّ الأطباءِ، أَنْ تضعَ يَدَكَ فِي الطَّعَام وأنت تَشْتَهِيْهِ، وترفعَ يَدَكَ وأنتَ تَشْتَهِيْهِ؛ فَإِنَّك إِذَا فعلت ذَلِكَ لَم يُصِبْكَ مرضٌ إلاّ مرض المَوْتِ.
- وفي الحِكْمَةِ: إِذَا امتلأتْ المَعِدَةُ، نامتْ الفِكرةُ، ورَقَدتْ الأعضاءُ عَنْ العِبَادَةِ[2].

١- يحيى بن يحيى بن بكير بن وسلاس بن شملل بن صيغا، يكى أبا محمد، هو من مصمودة من مضارة قبيلة منها، دخل يحيى بن وسلاس، مع ابن أخيه نصر بن عيسى في جيش طارق، وأسلم وسلاس جدهم، على يدي يزيد بن عامر الليثي، ليث كنانة، فهذا والله أعلم سبب انتمائهم إلى ليث، قال الرازي: ثم دخل بعدهما كثير بن وسلاس، وهو جد يحيى، وولي ابنه يحيى الجزيرة، وشذونه، وطلب يحيى ابنه العلم. (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) (١/ ٥٣٤): للقاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ) تحقيق د. أحمد بكير، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧.

٢- زهر الأكم في الأمثال والحكم: للحسن اليوسي، تحقيق محمد حجي محمد الأخضر.

وصية رجل أعمى من الأزْدِ لشابٍّ يقودُه

قال محمد بنِ السَّائبِ: رأيتُ (بِبِيْشَةَ)[1] رَجُلا من أزْدِ السَّرَاةِ أعْمَى يقودُهُ شَابٌّ جَمِيْلٌ، وهو يقولُ لَهُ:

- يا سَمِيَّ: لا يغرّنّكَ أنْ فَسّحَ الشّبابُ خَطْوَكَ، وخَلّى سِرْبَكَ، وأرْفَهَ وِرْدَكَ.
- فكأنَّك بالكِبَرِ قد أرَبَّ ظَوْفَكَ، وأثقلَ أوْقَكَ، وأوْهنَ طَوْقَكَ، وأتْعَبَ سَوْقَكَ؛ فهَدَجْتَ بعد الهَمْلَجَةِ، ودَجَجْتَ بعد الدَّعْلَجَةِ.
- فَخُذْ من أيَّامِ التّرْفيهِ لأيّامِ الانزعاجِ، ومن سَاعاتِ المُهْلَةِ لسَاعَةِ الإعجالِ.
- يا ابنَ أخي: إنّ اغترارَكَ بالشّبابِ كالتذاذِكَ بسَمَاديْرِ الأحْلامِ، ثُمَّ تنقشِعُ فلا تتمسَّكُ منها إلا بالحسرةِ عليها، ثُمَّ تعرّى رَاحلةُ الصّبا، وتَشْربُ سلوةً عن الهوى.
- واعلم أنَّ أغْنَى النَّاسِ يومَ الفقرِ من قدّمَ ذخيْرَةً، وأشدَّهم اغتباطًا يومَ الحسرةِ من أحسنَ سريرةً[2].

١- بيشة: بالهاء اسم قرية غَنّاء في وادٍ كثير الأبل من بلاد اليمن، وقيل (بئشة) مهموزة، وبيشة: من عمل مكة مما يلي اليمن من مكة على خمسة مراحل، (معجم البلدان).

٢- الأمالي: للقالي (٢ / ٣١٢). السّربُ: الطريقُ والوجهُ. والرّفَهُ: أن تشربَ الإبلُ في كلَّ يوم. وأرَبَّ: شَدَّ. ظفْتُ البعيرَ أظوفُهُ: إذا دانيتُ بين قينيه، والقينان: موضع القيد من الوظيف. قال أبو علي: الأوْقُ: الثّقلُ، والهملجةُ: سرعة في المشي: دجّ يدجُّ دجيجًا: إذا مرَّ مرًّا ضعيفًا. الدّعلجة: ضرب من المشي، والدّعلجة: الدّحرجة، والدّعلجة: الظّلمة، والدّعلج: الحمار والدّعلجة: الذهاب والمجيء، والدّعلجة: لعبة للصبيان والدّعلجة: الأكل بنهم. والسّمادير: ما يتراءى للإنسان في نومه من الأباطيل وما يتراءاه السكران في سكره، وقد قال بعض اللغويين: قد اسمدرّ إذا ضعف. الهَدْجُ والهَدَجانُ: مَشيٌ رُوَيْدٌ في ضَعْفٍ

وَصِيَّةٌ باختيارِ صاحبِ الطَّعَامِ والشرابِ

قال ابن أبي الربيع:

- ويَنْبَغِي أن يَكُوْنَ صَاحِبُ الطَّعَام والشَّرَابِ ثِقَةً، مُؤْتَمَنًا، عاقلا، حُرًّا، مُجِلا للمَلِكِ، مُجتهدًا في رِضَاه[١].
- وأنْ يتلطَّفَ في مَنْعِ المَلِكِ عَنْ بعضِ المطاعمِ التي لا تُوافِقُهُ، ويعرّفه وجْهَ المصلحةِ في تركِها.
- وأن لا يعرضَ عَلَيْهِ طعامًا عرضَهُ مَرَّةً قبلَها، بَلْ يصرفُهُ في الوجوهِ الجميلةِ.
- ولا يَكُوْن بخيلا وَلا مُضَيِّعًا، ويَنْبَغِي أنْ يتصفَّحَ المطبخَ أولَ الأوقاتِ وآخرَها لأجلِ الغداءِ والعشاءِ.
- وَلْيَتَفَقَّدِ الطَّعَامَ والشَّرَابَ في كُلِّ ساعةٍ، حَتَّى الملحَ والخلَّ وأشباهَهُمَا.
- وليكثرْ مُرَاعَاةَ الآلاتِ، فَإِنَّ رائحةَ الطَّعَامِ وجَوْدَةَ عَرْفِهِ، وحُسْنَ تنضيجِهِ يَفْتُقُ الشَّهْوَةَ[٢].
- ويَجِبُ أن يَكُوْنَ خبيرًا بتنصيصِ الألوانِ وترتيبِها وأوقاتِها، ليختارَ لِكُلِّ فصلٍ ما يليقُ بِهِ.
- وأن يَكُوْنَ عارفًا بما يُجلَبُ من البلادِ من المطاعمِ والمشاربِ والجيِّدِ مِنْهُا والمغشوشِ[٣].

١- الطَّبْخُ: إنضاج اللحم وغيره اشتواءً واقتدارًا. والمَطَبخ: بيت الطَّباخ، والطَّبَّاخ: معالج الطبخ وحرفته الطِّباخة.

٢- العَرْفُ: الرّيح، طيّبة كانت أو خبيثة.

٣- سلوك المالك في تدبير الممالك: ص ٢٠٥.

وَصِيَّةُ أبي عثمانَ الثَّوْرِيِّ لابنه

قالَ الجاحظُ: كَانَ أبو عثمانَ الثَّوْرِيُّ يُجْلِسُ ابْنَهُ مَعَهُ يَوْمَ الرَّأس، وكَانَ لَهُ يَوْمٌ معروفٌ يأكل فِيهِ رأسًا لا مَحالَةَ، فكَانَ يُجْلِسُ ابنه مَعَهُ ويَقُولُ:

- يا بُنَيّ، إيَّاكَ ونَهَمَ الصِّبْيَانِ، وأخلاقَ النَّوائحِ، ونَهْشَ الأعرابِ[1]، وكُلْ مِمَّا يليكَ.
- وَاعْلَمْ أَنَّهُ إذَا كَانَ فِي الطَّعَامِ لقمةٌ كَرِيمةٌ، أو مُضْغَةٌ شهيَّةٌ، أو شيءٌ مستطرفٌ، فَإنَّما ذَلِكَ للشَيْخِ المُعَظَّمِ، أو للصَّبِيِّ المُدَلَّلِ، ولَسْتَ بواحدٍ منهما.
- وقد قالوا: مدمنُ اللَّحْمِ كمُدْمنِ الخمرِ.
- أي بُنَيَّ، عَوِّدْ نَفْسَكَ الأَثَرَةَ ومُجاهدةَ الهوى والشَّهْوَةِ.
- ولا تنهشْ نَهْشَ السِّباعِ، وَلا تَخْضَمْ خَضْمَ البَرَاذينِ، وَلا تُدمنِ الأكلَ إدمانَ النِّعاجِ، وَلا تَلْقَمْ لَقْمَ الجِمَالِ، فَإنَّ اللّٰه جَعَلَكَ إنسانًا، فلا تجعلْ نَفْسَكَ بَهِيْمَةً[2].
- واحذرْ صرعةَ الكِظَّة، وسَرَفَ البطنة؛ فَقَدْ قال بعضُ الْحُكَمَاءِ: إذا كُنْتَ نَهِمًا فَعُدَّ نَفْسَكَ من الزَّمْنَى، وَاعْلَمْ أن الشِّبَعَ داعيةُ البَشَمِ، والبَشَمُ داعية السَّقَم، وأنَّ السَّقَمَ داعيةُ المَوْتِ، ومن ماتَ هَذهِ الميتة فَقَدْ ماتَ ميتةً لَئِيْمَةً، لأَنَّهُ قاتلُ نَفْسِهِ، وقاتلُ نَفْسِهِ ألأمُ من قاتلِ غَيْرِه[3].
- أي بُنَيَّ، واللّٰه ما أدَّى حَقَّ الرُّكوعِ والسُّجودِ ذو كِظَّةٍ، وَلا خَشَعَ للّٰهِ ذو بِطنةٍ، والصَّوْمُ مَصَحَّةٌ، والوَجَبَاتُ عَيْشُ الصَّالِحِينَ[4].

١- نَهْس اللحمَ: أَخْذُه بمقدَّم الأَسنان، والنهشُ: الأَخذ بجميعها.

٢- الخَضْمُ: مَلءُ الفم بالمأكول، وقيل: الخَضْمُ الأَكل بأقْصى الأَضراس والقَضْمُ بأَدْناها. ولَقَّم البعيرَ: إذا لم يأكل حتى يُناولَه بيده.

٣- الكِظَّة: الامتلاء. والزَّمانةَ: العاهة؛ البَشَم: تُخَمَةٌ على الدَّسَمِ.

٤- الوجبةُ: أكلة واحدة في اليوم والليلة.

- أي بُنَيَّ: لأمر ما طالت أعمار أهل الهند، وصحت أبدان العَرَبِ، ولله درُّ الحارثِ بنِ كَلَدَةَ إذْ زَعَمَ أنَّ الدَّاءَ هُوَ الأزْمُ، فالدَّاءُ كلُّهُ من فضولِ الطَّعَامِ، فَكَيْفَ لا ترغب في شيء يجمعُ لَكَ صِحَّةَ البدنِ وذكاءَ الذِّهنِ وصلاحَ الدِّيْنِ والدُّنْيَا، والقُرْبَ من عيشِ المَلائِكَةِ[1].
- أي بُنَيَّ: لمَ صارَ الضَّبُّ أطولَ عمرًا، إلا لأنَّهُ يتبلغ النسيم! ولمَ قالَ الرَّسولُ ﷺ: إنَّ الصَّوْمَ وِجاء، إلا لأنَّهُ جَعَلَهُ حجازًا دُوْنَ الشَّهَوَاتِ! فافهمْ تأديبَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وتأديبَ رسولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].
- أي بُنَيَّ، قَدْ بَلَغْتُ تسعينَ عامًا ما نقصَ لي سِنٌّ، وَلا انتشرَ لي عَصَبٌ، وَلا عَرَفْتُ ذَنِيْنَ أنفٍ، وَلا سَيَلانَ عَيْنٍ[3]، وَلا سلسَ بولٍ، ما لذَلِكَ عِلَّةٌ إلا التَّخفيفَ من الزَّادِ.
- فَإِنَّ كُنْتَ تُحِبُّ الْحَيَاةَ فهَذِهِ سبيلُ الْحَيَاةِ، وإن كُنْتَ تُحِبُّ الْمَوْتَ فلا أبْعَدَ الله غَيْرَكَ[4].

١- الأَزْمُ: الإمساك. والأَزْمُ: الصمْت. الأَزْمُ: تركُ الأَكل وأَصله من ذلك؛ والأَزْمةُ: الأَكلة الواحدة في اليوم مرَّة كالوَجْبة (لسان العرب).

٢- وجاء: أي يقطع الشهوة، وأصل الوجاء: أن تدق عروق الخصيتين بين حجرين.

٣- ذنين الأنف: سيلان مخاطه.

٤- العقد: لابن عبد ربه الأندلسي: ٦/٣٠٥.



خاتمة المطاف..

- لقد وقفت -من خلال هذه الرحلة في أدب الوصايا- على العديد من الثمرات والنتائج، لخصتها في هذا المبحث، وهي:

- أدب الوصايا أدب إنساني قديم، موجود عند كل الشعوب، فللفرس عناية بالحكم والوصايا؛ وبخاصة الوصايا السياسية والإدارية، ولحكماء اليونان عناية بالوصايا؛ وبخاصة المتعلقة بالحكمة والفلسفة، ولَم تخل آداب قدماء المصريين من خير يقتبس وحكمة تقتنص.

- اهتم العرب قديمًا وحديثًا بأدب الوصايا؛ فلا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الأدب أو التاريخ أو التراجم.

- الوصايا لون أدبي-شعري ونثري- عرف بالجاهلية، وامتازت تلك الوصايا بجمالها، وتناسب جملها.

- ورد في القرآن الكريم وصايا للتأديب والإرشاد، وهي جمة غزيرة، منها ما جاء بلفظ الوصية، ومنها ما جاء بمعناها.

- تعدُّ وصايا لقمانَ من أشهرِ الوصايا، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وجَمَعتْ وصاياهُ أصولَ الشَّريعةِ؛ وهي الاعتقاداتُ والأعمالُ، وأَدبُ المعاملةِ، وأَدبُ النَّفسِ.

- أوصى الأنبياء أقوامهم، وكانت وصاياهم ونَصَائِحُهم مناسبة لحالِ أقوامهم.

- أوصى النبي صلى الله عليه وسلم صحابته وأمته والناس، ووصاياه ونصائحه أكثر من أن تحصى.

- يمكن اعتبار الوصايا خطوة في طريق الإصلاح، والارتقاء بالواقع؛ من خلال التأثير على القارئ إيجابًا بالمجالات النفسية والسلوكية

والأدبية.

- في تقديري أن هذا اللون الأدبي لم يحظَ بالعناية اللائقة به من قبل المختصين، كما حظيت الفنون الأدبية الأخرى؛ لذلك أتمنى أن يكون هناك اهتمام ورعاية لهذا الفن كما هو الحال بالنسبة للفنون الأدبية الأخرى،
- ومما يحسب لـ «رابطة الأدب الإسلامي» أنها عقدت في مدينة حيدر أباد الهند ندوة بعنوان «أدب الوصايا والمواعظ في الإسلام» وذلك سنة ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
-



١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ______________________

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ______________________

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ______________________

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ______________________

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح ______________________

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ______________________

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ______________________

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ______________________

د. محمد إقبال عروي ______________________

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ______________________

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي ________________

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح ________________

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني ________________

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر ________________

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه ________________

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح ________________

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي ________________

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية ________________

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان ________________

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

نهـــر متعــدد.. متـجـــدد

هــذا الكتــاب

...كما أن أدب الوصايا يساعدُ على رياضة النَّفس وتَهذيبِ الأخْلاقِ؛ وليس ثمّة غاية للأدَب أسمى وأجلّ مِن صقل النّفوس وتهذيبها، وبثّ قيم الخير والفضيلة فيها؛ لاسيما وأن أمتنا الإسلامية - وبالرغم مما تتمتع به من موروث أخلاقي- فإنها تعيش أزمة أخلاقية حقيقية، تظهر آثارها من خلال تراجع منظومة القيم، وتصاعد وتيرة العنف، وتردّي العلاقات الإنسانية، وضعف العرى والأواصر الاجتماعية والأسرية.

كما أن أدب الوصايا يساعدُ على استلهام نجاحات أولئك الحكماء الناصحين الناجحين، ويدفع باتجاه التأسِّي بهم؛ والاستفادة من خلاصة تجاربهم.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa